الجدار

جان بول سارتر

ترجمة

هاشم الحسيني

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

تعريف

عوَّدنا ساتر في أبحاثه ورواياته ومسرحياته وصف الحالات النفسية في أروج توترها. لذا نراه يخلق "مواقف" الإحراج والقلق ليعبّر بها عن العواطف الحادّة التي تعصف بذات الإنسان. فهو كما سمّاه أندريه موروا "خبير المشاعر الإنسانية الصاخبة".

و "الجدار" عنوان كتابنا هذا يتضمن خمس أقصوصات، أولاها الجدار، وهي قصة ثلاثة أشخاص ينتظرون ساعة إعدامهم رميًا بالرصاص صبيحة الغد، يحلل فيها سارتر مشاعر كل منهم، ومظاهر تلك المشاعر كما تتمثل في أنواع سلوكهم.

غير أن المواقف المتشابهة التي يعيشها أبطال القصة في مجابهتهم خطر الموت، لا يعني أن كلًا منهم قد فقد ذاتيته. فإذا ما كانوا جميعًا حيال خطر واحد يحيط بهم، فان لكل منهم "موقفه" الخاص، يواجهه من زاوية بيئته وثقافته ونوعية تفكيره، فضلًا عن عمره ومدى تجاربه.

ولا شك أن موضوع الجدار، يحتاج لمقدرة فنية في التحليل الدقيق والوصف الحي. فهو يبرز ذلك الجوّ الرهيب الذي يعيشه الإنسان في لأقصى ساعات الحرج.

وتعد قصة "الجدار" من أرقى الأعمال الفنية التي تمثل التفكير السارتري، فهي تظهر مدى العمق الذي بلغه الكاتب الفرنسي في سبره أعماق المشاعر الإنسانية.

المترجم

obeikandl.com

دفعونا إلى داخل قاعة كبيرة بيضاء، فتراقصت عيناي لأن النور كان يؤذيها. رأيت، من ثم، طاولة وراءها أربعة أشخاص من المدنيين، كانوا يتصفحون الأوراق. وحشدوا السجناء الأخرى في القعر وكان علينا أن نعبر الحجرة حتى أخرها لنلتحق بهم. كنت أعرف العديدين منهم أما الآخرون فغرباء. والاثنان اللذان يواجهاني كانا أشقري اللون على جمجمتين مستديرتين. أنهما يتشابهان، فهما فرنسيان على ما أتصور. كان أصغرهما ينهض سرواله طيلة الوقت. كما كان عصبي المزاج.

استمر هذا الحال ثلاث ساعات؛ كنت مخبولا وكان رأسي فارغًا لكن الغرفة مدفأة وكنت أجد هذا شيقًا، منذ ثمان وأربعين ساعة لا زلنا نرتجف.

كان الحراس يقتادون السجناء الواحد تلو الآخر أمام الطاولة. وعندها يسألهم الأشخاص الأربعة عن اسمهم ومهنتهم. ولم يذهبوا أكثر من ذلك معظم الوقت- أو أنهم كانوا يطرحون سؤالًا من هنا وهناك: "هل اشتركت في تدمير الذخيرة؟" أو بالأحرى "أين كنت صبيحة يوم ٩ وما كنت تفعله؟" لم يكونوا ليصغوا للأجوبة أو أن ذلك لم يبد عليهم على الأقل: كانوا يسكتون برهة ويتطلعون أمامهم ثم يأخذون بالكتابة. سألوا توم إذا كان قد خدم حقًا في الفرقة الدولية: لم يكن توم ليستطيع قول العكس بسبب الأوراق التي وجدت في سترته. ولم يسألوا جوان شيئًا، فبعد أن ذكر اسمه، استمروا بالكتابة طويلًا.

قال جوان: "إن أخي جوزي هو الفوضوي. وأنتم تعرفون جيدًا أنه ليس هنا. أنا لا أنتمي لأي حزب، ولم أعمل بالسياسة أبدًا".

لم يجيبوا. فأضاف جوان:

"أنا لم أعمل شيئًا. لا أريد أن أدفع الثمن عن الأخرين".

كانت شفتاه ترتجفان. أسكته أحد الحراس واقتاده. وجاء دوري.

- اسمك بابلو إبياتا؟

فقلت: نعم.

نظر الشخص إلى أوراقه وقال لي:

- أين رامون غري؟

- لا أعرف.

- خبأته في بيتك من يوم ١٦ إلى ١٩.

أخرجني الحراس. بدأنا بالمسير. سأل توم أحد الحارسين:

- وبعده؟

فقال الحارس: ماذا؟

- هذا استجواب أم حكم؟

فقال الحارس:

- كان الحكم

- حسنًا، ما سيفعلون بنا؟

أجاب الحارس بجفاف:

- ستبلغون الحكم في زنزاناتكم.

وفي الواقع، أن ما كان بمثابة زنزانة لنا هي أقبية المستشفى. كان فيها البرد شديدًا بسبب مجاري الهواء. ظللنا

نرتجف طيلة الليل ولم تتحسن الحال طيلة النهار. الأيام الخمسة الماضية أمضيتها في سجن الأبرشية المظلم، وهو نوع من زنزانات العصر الوسيط؛ وبما إن السجناء كثيرون والمكان ضيق، فقد رصفوهم أينما كان. لم أكن آسف على سجني المظلم: لم أعان فيه من البرد غير أني كنت وحيدًا فيه؛ وهذا مزعج إذا استمر. وفي القبو كانت لي صحبة. جوان لم يكن ليتكلم أبدًا: كان خائفًا ثم أنه كان أصغر من أن يتكلم لكن توم كان متحدثًا لبقًا يتقن الإسبانية تمام الإتقان.

في القبو كان هناك مقعد وأربعة فرش محشوة بالقش. وعندما عادوا بنا، جلسنا ننتظر بصمت

وقال توم بعد برهة:

- انتهى أمرنا.

فقلت: أعتقد ذلك أيضًا، لكني أظن أنهم لن يفعلوا شيئًا بالنسبة للصغير.

فقال توم: لا يستطيعون اتهامه بشيء، أنه شقيق لثائر، هذا كل شيء.

نظرت إلى جوان: لم يكن يبدو عليه أنه ينتبه.

وتابع توم:

- هل تدري ما يفعلونه في سراغوسة؟ يطرحون الأشخاص على الطريق ويمرون فوقهم بالشاحنات. أخبرنا بذلك أحد المغاربة الفارين. يقولون إن ذلك لتوفير الذخيرة. فقلت:

- هذا لا يوفر المحروقات.

كنت غاضبًا من توم: ما كان عليه أن يقول ذلك. وأضاف: هناك ضباط يتنقلون على الطريق، يشرفون على العملية،

أيديهم في جيوبهم والسيجار في فمهم. أتظن أنهم يجهزون على الأشخاص؟ يدعونهم يتصايحون عدة مرات في الساعة.
كان المغربي يقول أنه لم يصرخ في المرة الأولى. فقلت:
- لا أظن أنهم سيفعلون هذا هنا. إلا إذا كان ثمّة نقص في الذخيرة.
كان النهار يدخل من خلال الفجوات الأربع والثغرة المستديرة التي أحدثت في السقف، إلى جهة اليسار، وكانت مشرفة على السماء. فمن خلال هذا الثقب المستدير المسدود عادة بحاجز صغير، كانوا يرمون بالفحم إلى القبو.
تحت الثقب تمامًا كانت توجد كومة كبيرة من الفحم المسحوق. وكان مخصصًا لتدفئة المستشفى، ولكن منذ بداية الحرب تم إجلاء المرضى وظل الفحم هناك بغير استعمال. وكان المطر يتساقط بالمناسبة، إذا أغفلوا إغلاق الحاجز الصغير.
بدأ توم يرتجف قال:
"يا اسم الله المقدس، أني أرتجف، ها أنّ كل شيء يعاودني".
ونهض وبدأ يقوم ببعض الحركات الرياضية. وفي كل حركة كان قميصه ينفتح على صدره الأبيض المكسو بالشعر. تمدد على ظهره ورفع رجليه في الهواء على شكل مقص: كنت أرى مؤخرته السمينة ترتجف. كان توم قوي البنية لكنه كان كثير الشحم. كنت أفكر بأن رصاصات البندقية أرؤس الحراب لا بد وأن تدخل في تلك الكتلة من اللحم الطري كما تدخل في قطعة من الزبدة. لم يكن يحدث لي نفس الأثر لو كان ضعيفًا.

لـم أكـن أشـعر بـالبرد تمامًـا، بـل كنـت لا أحـس كتفـيّ ولا ذراعـيّ. كـان يتهيـأ لـي مـن وقـت لآخـر أن شـيئًا مـا ينقصـني فأبحـث عـن سـترتي حـولي، ثـم أتـذكر بغتـة أنهـم لـم يعطـوني السترة. كـان الأمـر عسيرًا. أخـذوا ثيابنـا ليعطوهـا جنـودهم ولـم يتركوا لنا سوى قمصاننا، وتلك السراويل التي يرتديها مرضـى المستشـفيات فـي الصـيف. بعـد برهـة نهـض تـوم وجلـس قربـي وهو ينفخ.

- هل تدفأت؟

- يا اسم الله المقدس، لا. ولكني على آخر نفس.

نحو الساعة الثامنة دخل أحد القواد مع اثنين من الكتائب. كانت بيده ورقة. فسأل الحارس:

- ما اسم هؤلاء الثلاثة؟ فقال الحارس:

- ستينبوك، إبياتا وميربال.

ووضع القائد نظارته القديمة ونظر إلى اللائحة:

- سـتينبوك ... سـتينبوك... انظـر. أنـت محكـوم بالإعـدام. ستعدم رميًا بالرصاص صباح الغد".

وتطلع أيضًا ثم قال:

- والآخران أيضًا، فقال جوان:

- غير معقول. ليس أنا. فنظر إليه القائد بدهشة:

- ما اسمك؟ فقال: جوان مربال.

فقال القائد:

- اسمك هنا، أنت محكوم.

فقال جوان: لم أفعل شيئًا.

فهز القائد كتفيه واتجه نحو توم ونحوي.

- أنتما من الباسك؟
- لا أحد من الباسك.
بدا أنه منزعج.
- قيل لي أن هناك ثلاثة من الباسك. ولن أضيع الوقت بالركض وراءهم إذا بالطبع لا تريدون كهنة!
فلم نكلف نفسنا الإجابة. فقال:
- سيأتي طبيب بلجيكي في الحال. سمح له بقضاء الليلة معكم. وقدم التحية العسكرية وانصرف.
فقال توم: أما كنت أقول لك. نحن بأحسن حال.
فقلت: نعم، لكنه عمل وحشي بالنسبة للصغير.
لم يكن أمر الشفقة عليه شيئًا، ولكن الشفقة تثير اشمئزازي، إذ أنه كان يخيفني.
لم يضف شيئًا بعد ذلك لكنه أصبح داكن اللون: كما أصبح وجهه ويداه داكنة أيضًا. عاد إلى الجلوس ونظر إلى الأرض بعينين مستديرتين. كان توم طيب النفس، فأراد أن يمسك بيده، لكن الصغير تخلص منه بعنف مبديًا امتعاضه. فقلت بصوت منخفض: "دعه، فأنت ترى أنه سيبدأ بالمواء".
ورضخ توم مكتئبًا، إذا كان يؤثر تعزية الصغير، فهذا كان يشغله عن التفكير بنفسه مرة أخرى. لكن هذا يزعجني: لم أكن قط قد فكرت بالموت لأن فرصة الموت لم تسنح، ولكن الفرصة موجودة الآن ولم يعد من شيء آخر يجدر أن نفكر به.
بدأ توم بالكلام وسألني:
"هل قتلت شخصًا، وأنت؟" لم أجب. فأخذ يشرح لي كيف أنه قتل ستة أشخاص منذ بداية شهر آب، لم يكن يعي الموقف،

ورأيت أنه لم يرغب بأن يشعر بذلك. أما أنا فلم أكن أفقه شيئًا كما يجب، كنت أتساءل إذا كانوا يتألمون كثيرًا، وأفكر بالرصاصات، وأتصور أجسامها المحرقة عبر جسدي. كل هذا كان على هامش القضية الحقيقية، لكنني حافظت على هدوئي: فلدينا الليل كله لنفهم. وبعد لحظة أمسك توم عن الحديث فنظرت إليه بطرف عيني. رأيت أنه بات داكن اللون، وهو أيضًا، وأن ملامحه تدل على البؤس، وقلت في نفسي: "ها هي البوادر" كان الوقت ليلًا إلى حد ما، والضوء الباهت يدخل من خلال الثغرات وكومة الفحم، محدثًا لطخة كبيرة تحت السماء. من ثقب بتُّ أرى إحدى النجوم: سيكون الليل صافيًا باردًا.

وفتح الباب ليدخل حارسان. كان يتبعهما رجل أشقر يرتدي بزة رسمية بلجيكية. حيانا ثم قال: "أنا طبيب. ولدي الأذن بمؤازرتكم في هذه الظروف العصبية".

كان صوته مميزًا يروق للسامع. وقلت له: "ما جئت تفعله هنا؟"

- أضع نفسي تحت تصرفكم. سأبذل قصارى جهدي حتى لا تكون هذه الساعات القليلة شديدة الثقل.

- لماذا أتيت إلينا؟ فهناك أشخاص آخرون، يضيق بهم المستشفى.

فأجاب بهيئة مبهمة:

- لقد أرسلوني إلى هنا. وأضاف: "آه ! كان بودكم أن تدخنوا أليس كذلك. لدي سجائر وسيكار أيضًا".

قدم لنا سجائر إنكليزية لكننا رفضنا. نظرت في عينيه فبدا منزعجًا.

وقلت له:

"أنت لا تأتي إلى هنا للمسايرة. فأنا أعرفك. لقد شاهدتك مع الفاشيين في باحة الثكنة، في اليوم الذي أوقفت فيه".

كنت أهمّ بالمتابعة، ولكن شيئًا ما أتأني فجأة فباغتني: إن وجود هذا الطبيب لم يعد يهمني. عادة، عندما أكون تجاه رجل لا أتركه أبدًا. ومع ذلك فإن الرغبة في الكلام ذهبت منى. فهززت كتفي وحولت عيني. بعد ذلك بقليل، نهضت رأسي: كان يراقبني مراقبة الفضولي. كان الحراس قد جلسوا فوق أحد فرش القش. بادرو الطويل الناحل كان يدير إبهاميه، والآخر يهز رأسه من وقت لآخر حتى لا ينام.

قال بادرو فجأة للطبيب: "هل تريد ضوءً". فأومأ الآخر برأسه أن "نعم" ؛ أظن أنه لم يكن أذكى من قطعة الحطب، لكنه لم يكن خبيثًا بلا ريب. والناظر إلى عينيه الزرقاوين الباردتين يرى أنه كان يخطئ لضعف خياله. وخرج بادرو وعاد حاملًا سراجًا على النفط وضعه على طرف المقعد.

كان السراج لا يضيء كثيرًا، ولكنه أفضل من لا شيء: فقد تركونا البارحة في الظلام. نظرت لبرهة غير قصيرة إلى دائرة النور التي رسمها السراج في السقف. كنت مشدوهًا. ومن ثم، استيقظت بغتة، فلمحت دائرة النور وأحسست بأني منسحق تحت عبء ثقيل. لم تكن تلك فكرة الموت أو الخوف: بل كان ذلك مبهمًا. كان خداي يحرقانني كما كنت أشعر بألم في جمجمتي.

نبهت نفسي وتطلعت إلى صاحبي. كان توم قد أغرق رأسه بين يديه، فلم أكن أرى سوى رقبته السمينة البيضاء.

والصغير جوان كان أكثرنا بعدًا عن طوره، كان فمه مفتوحًا ومنخراه يرتجفان. اقترب الطبيب منه ووضع يده فوق كتفه وكأنه يريد أن يواسيه. لكن عينيه ظلتا مثلجتين. ثم شاهدت يد البلجيكي تنزل على طول زراع جوان حتى القبضة. وجوان يمسح له بذلك غير آبه. وأخذ البلجيكي يده بين أصابعه الثلاث، بأسارير منبسطة، وفي نفس الوقت تراجع قليلًا إلى الوراء لكي يدير لي ظهره، غير أني انحنيت نحو الوراء فشاهدته يخرج ساعته وينظر إليها لحظة بدون أن يترك يد الصغير. وما هي إلا هنيهة حتى ترك اليد الجامدة وذهب إلى الجدار يستند إليه، ثم أخذ دفترًا من جيبه، وكأنه تذكر فجأة بأن عليه أن يراقب، وكتب عليه عدة أسطر. وقلت في نفسي: "لن يأتي هذا القذر ليجس نبضي، فسأضربه بقبضة يدي على أم وجهه".

ولم يأت، ولكني كنت أحسّ بأنه ينظر إلي. فرفعت رأسي ونظرت إليه بالمقابل. فقال لي بصوت كأنه ليس صادرًا عنه: "ألا تجد أننا نرتجف هنا؟".

كان يبدو عليه أنه بارد الجسم، فقد كان بنفسجي اللون.

فأجبته:

"أنا لا أشعر بالبرد"

ولم ينفك عن النظر إلي، بعين قاسية. فجأة فهمت ورفعت يدي إلى وجهي: كنت مبتلًا بالعرق. في ذلك القبو، وفي خضم الشتاء، وفي مجاري الهواء، كان العرق يتصبب مني. ومررت بأصبعي على شعري الذي يبس من العرق. ورأيت في نفس الوقت أن قميصي مبللة لاصقة بجسدي: كان العرق يتصبب

مني منذ ساعة على الأقل ولم أحس بشيء. ولكن هذا البلجيكي لم يتغافل عن هذا: فقد رأى القطرات تتدحرج على خدي وفكر: أنها عوارض شبه مرضية للخوف. وكان يحس أنه طبيعي وبكل فخر لأنه كان يشعر بالبرد. أردت أن أقوم بحركة بسيطة حتى أمحى خجلي وغضبي. وسقطت على المقعد غير آبه.

اكتفيت بفرك عنقي بمنديلي، لأني الآن بت أشعر بالعرق المتصبب من شعري على رقبتي وكان كريهًا وفجأة عدلت عن فرك رقبتي، كان ذلك بغير جدوى: وكان منديلي قد أصبح برسم التمزيق، والعرق لا يزال يتصبب. كنت أعرق في مؤخرتي أيضًا كما كان سروالي المبلل لاصقة بالمقعد.

وتكلم جوان الصغير فجأة:

- هل أنت طبيب؟ فقال البلجيكي : نعم.

- هل نتألم ... لوقت طويل؟

فقال البلجيكي بصوت أبوي:

أوه ! متى ...؟ كلا بل إن الأمر ينتهي بسرعة.

كان يبدو عليه أنه يشدد من عزيمة مريض يدفع الثمن.

- ولكن أنا ... قيل لي ... أنهم يعمدون في أكثر الأحيان إلى رشقتين.

فقال البلجيكي وهو يحرك رأسه: في بعض الأحيان قد لا تصيب الرشقة الأولى أيا من الأعضاء الحيوية.

- عندها من الواجب إعادة تعبئة البنادق والتصويب من جديد !

- هذا يستمر وقتًا طويلًا !

كان يخاف أن يتألم خوفًا هائلًا، ولم يكن يفكر إلا بهذا: وهذا بنسبة عمره على كل حال. أما أنا فلم أعد أفكر بذلك كثيرًا ولم يكن الخوف من العذاب ما كان يجعل العرق يتصبب مني.

نهضت ومشيت إلى كومة الفحم المسحوق. فارتجف توم ورمأني بنظرة بغيضة: كنت أزعجه لأن حذائي يقرقع. وتساءلت في نفسي إذا كان وجهي مخيفًا قدر وجهه: رأيت أن العرق يتصبب منه هو الآخر. كانت السماء رائعة، لم يكن أي ضوء يتسرب إلى هذه الزاوية المعتمة، وليس علي إلا أن أرفع رأسي حتى أشاهد الدب الأكبر. ولكنه ليس كما في السابق: ليلة أول أمس في سجن الأبرشية، كان بإمكاني أن أشاهد قطعة من السماء كبيرة، وكل ساعه من النهار كانت تبعث في نفسي ذكرى مختلفة. وفي الصباح حين كانت السماء زرقاء حادة وخفيفة، كنت أفكر بالمسابح على ضفاف الأطلسي. في الظهر أرى الشمس وأتذكر ذلك البار في سفيل، حيث كنت أشرب النبيذ الإسباني وأنا آكل السمك والزيتون. وبعد الظهر أصبح في الظل، أفكر بذلك الظل العميق الذي يمتد على نصف مساحة الحلبات بينما كان نصفها الثاني يسطع تحت الشمس: كان عسيرًا حقًا أن نبصر الأرض هكذا تنعكس في السماء. لكنه أصبح بإمكاني الآن اتطلع في الهواء ما شئت، فلم تعد السماء توحي لي بشيء. أفضل من هذا. وعدت لأجلس بجوار توم. ومرت فترة طويلة.

بدأ توم حديثه بصوت خافت. كان عليه دائمًا أن يتكلم، فبدون هذا لم يكن يستطيع أن يعرف نفسه من خلال أفكاره. أظن أنه كان يوجه كلامه إلي ولكنه لم يكن يتطلع نحوي. فقد

كان يخشى بلا ريب أن يراني كما كنت، داكن اللون يتصبب مني العرق: كنا أشبه بالمرايا أو أسوأ، بالنسبة لبعضنا البعض. كان يتطلع إلى البلجيكي، الحي. وكان يقول له: "هل تفهم، أنت؟ أنا لا أفهم".

بدأت أنا أيضًا بالحديث بصوت خافت. كنت أتطلع إلى البلجيكي.

"ماذا، ما هنالك؟

- سيحصل لنا شيء لا أستطيع أن أفهمه".

كانت هناك رائحة غريبة حول توم. فقد بدا لي أني أكثر إحساسًا للرائحة من ذي قبل.

وهممت متضاحكًا:

"ستفهم في الحال. فقال بوجه عنيد: ليس الأمر واضحًا. أودّ أن تكون لي الشجاعة، ولكن علي أن أفهم على الأقل ... اصغ، سيقتادوننا إلى الباحة. وسيصطف الأشخاص بمواجهتنا. كم سيكون عددهم؟

- لا أعرف. خمسة أو ثمانية. ليس أكثر.

- حسنًا. سيكونون ثمانية. سنصيح فيهم: "صوبوا على الهدف".

وسأرى البنادق الثمأني مصوبة إلي. أفكر بأني سأدخل في الجدار، سأدفع الجدار بكل قواي، والجدار يقاوم، كما هي الحال في الكابوس. كل هذا بإمكاني أن أتصوره. آه ! لو تدري كم بإمكاني أن أتصوره. فقلت له:

- حسنًا ! فأنا أتصوره أيضًا. فأضاف بخبث:

- سيؤدي إلى عذاب الكلاب هل تدري أنهم يصوبون على العينين والفم لكي يشوهوا الصورة. أني أشعر بالجراح منذ الآن ؛ بل أسوأ هي الآلام التي سأحسها غدًا صباحًا. ولكن ماذا بعدها؟".

كنت أفهم تمامًا ما بعينه، ولكني لم أرغب في أن افصح عن ذلك.

أما الآلام، فأنا أيضًا كنت احملها في جسدي، كمجموعة من نوادب الجراح. لم أشأ أن انثني فكنت مثله، لا أعير ذلك أهمية. وقلت بقساوة. "بعدها، ستأكل السلطة". بدأ يتحدث إلى نفسه: بدون أن يترك البلجيكي بعينيه.

ولم يبد على هذا الأخير أنه كان يصغي. كنت أعرف السبب الذي جاء من أجله. وما كنا نفكر به لم يكن يهمه. لقد أتى ليشاهد أجسامنا، تلك الأجسام التي تنازع وهي حية. قال توم: كما لو في الكابوس نود أن نفكر بشيء، فنعتقد طيلة الوقت أننا فيه، وبأننا سنفهمه ومن ثم نراه ينزلق، ويفر ويسقط من جديد. قلت في نفسي: وبعدئذ، لا يبقى شيء. ولكنني لا أفهم ما يعني ذلك. هناك فترات أتواصل فيها لذلك تقريبًا ... ثم يسقط من جديد، وأعود لأفكر بالآلام والرصاص والمفرقعات. أنا مادي، أقسم لك بذلك. فلن أصبح مجنونًا. لكن أمرًا ما ليس على ما يرام. أني أرى جثتي: ليس هذا شاقًا ولكني أنا الذي أراها، بأم عيني. عليّ أن أتوصل لأفكر.. لأفكر بأني لن أرى شيئًا ، وان العالم سيستمر بالنسبة للآخرين. نحن لم نوجد لنفكر هكذا يا بابلو. بإمكانك أن تصدقني: فقد حصل لي أن سهرت الليل بطوله وأنا انتظر شيئًا، ولكن هذا الشيء، ليس شبيهًا

لذاك: أنه يباغتنا، يا بابلو، ولن نكون قد أتممنا الاستعداد لمواجهته. وقلت له: هل تريد أن أستدعي لك معرّفًا؟".

لم يجب بشيء. كنت قد لاحظت أنه كان يتوق إلى النبوة وأن يناديني بابلو متكلمًا بصوت نقي. لم أكن أحب هذا كثيرًا. ولكن يبدو أن جميع الايرلنديين على هذه الحال. كان يتهيأ لي أن رائحة البول تتصاعد منه. في الواقع لم أكن أحب توم كثيرًا ولم أكن أدري لماذا. وبحجة أننا سنموت معًا كان علي أن أزيد تلك المحبة. هناك أشخاص تختلف معهم الحال. مع رامون غري مثلًا. ولكنني كنت أجد نفسي وحيدًا بين توم وجوان. غير أني كنت أفضل ذلك: لعلني كنت ازداد عاطفة لو كان الأمر مع رامون.

لكنني كنت قاسيًا بصورة رهيبة في تلك الفترة، كما كنت أرغب بالبقاء كذلك.

وتابع مضغ كلماته، بنوع من الارتياح. أكيد أنه كان يتحدث ليمنع نفسه عن التفكير. كانت رائحة البول تفوح منه بشدة كالعجزة المرضى بالبروستات. وكنت من رأيه بالطبع، فكل ما قال كان بإمكاني أن أقوله: فليس طبيعيًا أن يموت الإنسان. ومذ بدأت استعداد للموت، لم يعد أي شيء يبدو لي طبيعيًا، لا هذه الكومة من الفحم المسحوق، ولا المقعد، ولا فم بادرو القذر. غير أنه لم يكن يعجبني أن أفكر بما يفكر به توم. وكنت أعلم حق العلم أننا، طيلة الليل وبفارق دقائق خمس فقط، كنا نتابع التفكير بالأشياء ذاتها، وفي نفس الوقت أيضًا كان العرق يتصبب منا معًا أو أننا نرتجف معًا. نظرت إليه جانبيًا ولأول مرة بدا لي غريبًا: كان يحمل موته في وجهه. لقد طعنت

بكبريائي: أربع وعشرون ساعة عشتها بجوار توم، كنت أصغي إليه، أحدثه، وأعرف أن ما من شيء مشترك بيننا.

أما الآن فنتشابه كالأخوين التوأمين، لمجرد أننا سنلاقي حتفنا معًا. أمسكني توم بيدي دون أن ينظر إلي:

"بابلو، أني أتساءل ... أتساءل إذا كنا ننعدم حقًا".

أفلت يدي وقلت له:

"انظر بين رجليك أيها القذر".

كانت تحت رجليه بركة، ونقاط تتساقط من سرواله. فقال مرتاعًا: "ما هذا" ؟ فقلت له:

- أنت تبول في سروالك. فقال غاضبًا:

- ليس هذا صحيحًا، أنا لا أبول ولا أشم شيئًا.

كان البلجيكي قد اقترب. وسأل برجاء مصطنع:

"هل تشعر بالألم؟ ".

لم يجبه توم. ونظر البلجيكي إلى البركة بدون أن يقول شيئًا. وقال توم بلهجة جسورة: "لا أعرف ما هذا، لكني لست خائفًا. أقسم لك بأني لست خائفًا".

لم يقل البلجيكي شيئًا. فنهض توم وذهب ليبول في الزاوية. وعاد وهو يزرر فتحة سرواله، وجلس بدون أن ينبس بكلمة. كان البلجيكي يسجل ملاحظاته.

كنا ننظر إليه نحن الثلاثة لأنه حيّ. كانت له حركات كحركات الحيّ، وهموم الحيّ. كان يرتجف في ذلك القبو، كما يرتجف الحي. كان جسمه طيعًا حسن التغذية. أما نحن فلم نعد نحس أجسامنا – وليس كما يحس هو على كل حال. كنت أرغب في أن أتحسس سروالي بين فخذي، ولكني لم أتجرأ.

فانظر إلى البلجيكي الواقف على رجليه بشكل قوس، وهو يسيطر على عضلاته – كما أن بإمكانه التفكير بغَده. كنا هناك، ثلاثة ظلال بغير دم، ننظر إليه فنمتص حياته كالأفاعي.

وأخيرًا اقترب من جوان الصغير. هل أراد أن يتحسس رقبته لسبب يتعلق بمهنته أو أن ذلك كان بدافع الإحسان؟ فإذا فعل هذا بدافع الإحسان فقد كانت المرة الوحيدة التي قدم فيها إحسانًا طيلة تلك الليلة. لقد دغدغ جمجمة جوان الصغير وعنقه. وتركه الصغير يفعل ذلك، بدون أن يتركه بناظريه، وفجأة أمسكه بيده ونظر إليه بوجه مضحك. كان يأخذ يد البلجيكي بكلتا يديه، ولم يكن في ذينك الملقطين الداكني اللون أي شيء طريف وهما يمسكان تلك اليد السمينة الموردة، كنت أشك كثيرًا بما سيحصل وكذلك كان توم: لكن البلجيكي لم يكن يرى سوى النار، وكان يبتسم ابتسامة أبوية. وما هي إلا لحظة حتى رفع الصغير تلك الراحة الضخمة الحمراء إلى فمه وأراد أن يعضها. فأفلت البلجيكي يده وتراجع حتى الجدار وهو يهتز يمينه ويسرة. ونظر إلينا للحظة بهلع شديد، كان عليه أن يفهم فجأة بأننا لسنا رجالًا مثله. أخذت بالضحك، وارتعد أحد الحراس. والآخر الذي نام بدا جاحظ العينين لا يظهر منهما سوى البياض.

كنت أحسّنِي منهكًا ومتوتر الأعصاب معًا. لم أكن أود أن أفكر بما سيحصل عند الفجر، أي بالموت. إذ لم أفقه شيئًا من ذلك، ولم أكن أصادف سوى كلمات أو فراغ. ولكن ما إن أحاول التفكير بشيء آخر حتى كنت أرى فوهات البنادق مصوبة إليّ. لقد عشت لحظة إعدامي نحو عشرين مرة متتالية:

اضطررت أن أنام دقيقة. كانوا يجرونني نحو الحائط، فأتخبط واطلب إليهم المغفرة. واستيقظ مذعورًا ونظرت إلى البلجيكي: خشيت أن أكون قد صرخت في نومي. لكنه كان يمسح شاربيه؛ فلم يلاحظ شيئًا. لو شئت، أظن أنه كان بإمكاني أن أنام برهة: كنت مستيقظًا منذ ثمان وأربعين ساعة، وقد تملكني الإعياء. لكنه لم يكن بودي أن أفقد ساعتين من ساعات الحياة: سيأتون لإيقاظي عند الفجر، وسأتبعهم مخبولًا من النعاس فأموت بدون أن أطلق زفرة؛ لم أكن أرغب في ذلك، لا أريد أن أموت كحيوان، أريد أن أفهم.

ثم أني كنت أخشى أن أرى الكوابيس. نهضت، وتمشيت طولًا وعرضًا وحتى أبدل أفكاري بدأت أفكر بحياتي السابقة. وعاودتني زحمة من الذكريات، من هنا وهناك، منها الجميلة ومنها الرديئة – أو إنني كنت اسميها هكذا على الأقل. كانت هناك وجوه وقصص. رأيت وجه مصارع صغير قتل على قرني الثور في فالنسيا إبان المهرجان، وكذلك وجه أحد أعمامي، ووجه رامون غري. وتذكرت قصصًا عديدة: كيف أني بقيت عاطلًا عن العمل ثلاثة أشهر سنة ١٩٢٦، وكيف كدت أن أموت من الجوع. وتذكرت ليلة أمضيتها فوق مقعد في غرناطة: ولم أكن قد تناولت الطعام منذ ثلاثة أيام، كنت مسعورًا، ولم أرغب في الموت. أضحكني ذلك.

فبأية همّة كنت أركض وراء السعادة، وراء النساء، وراء الحرية. ولماذا؟ أردت أن أحرر إسبانيا، كنت معجبًا بـــ بي مارغـــال، فالتحقـــت بالحركـــة الفوضـــوية، وتكلمـــت فـــي

الاجتماعات العامة: كنت أخذ كل شيء على محمل الجد، وكأنني كنت خالدًا.

في تلك اللحظة خِلت أن مجمل حياتي أمام عيني وفكرت:

"أنها كذبة مقدسة". ولم تكن بذات قيمة لأنها انتهت. تساءلت كيف كنت أستطيع أن أتنزه وأن أهذر مه النساء: لو كنت أعلم أني سأموت هكذا لما حركت أصغر أصابعي إطلاقًا. كانت حياتي أمامي، مغلقة ، مطبقة، كالحقيقة، ومع ذلك فإن كل ما في داخلها لم يكن منتهيًا. وحاولت، اللحظة، أن أعطي فيها حكمًا. وددت أن أقول لنفسي: أنها حياة جميلة. ولكنه ليس بالإمكان إعطاء حكم عليها، فقد كانت رسمًا. كما أمضيت وقتي باستخلاص المراحل في سبيل الأبدية، ولم أفهم شيئًا. ولم أكن آسف على شيء: كانت هناك عدة أشياء يمكن أن آسف عليها، كطعم النبيذ الإسباني أو الحمامات التي كنت أخذها في الصيف على خليج صغير قرب قادس. ولكن الموت أفسد كل شيء. وفجأة، أتت البلجيكي فكرة رائعة فقال لنا:

"أيها الأصدقاء، بإمكاني أن أتكلف – إذا وافقت الإدارة العسكرية – بأن أحمل منكم كلمة، أو ذكرى إلى من يحبونكم....."

فهمهم توم:

"ليس لدي أي إنسان".

ولم أجب بشيء. وانتظر توم لحظة، ثم تطلع إلي بفضول:

ألن توصي شيئًا لكونشا ؟

- كلا.

كنت أمقت هذه اللياقة الرقيقة؛ لكنها غلطتي، فقد تحدثت عن كونشا في الليلة السابقة، وكان عليّ أن اضبط نفسي. كنت معها منذ سنة. وفي العشية أيضًا، وددت قطع ذراعي بالفأس حتى أراها خمس دقائق.

لهذا تكلمت عنها، كان ذلك رغمًا عني. واليوم لم أعد أرغب برؤيتها ثانية، وليس عندي شيء أقوله لها. لم أكن أود حتى أن أضمها إلى صدري؛ كنت أمقت جسدي الذي أصبح داكن اللون يتصبب منه العرق – ولم أكن متأكدًا إذا كنت أمقت جسمها أيضًا.

ستبكي كونشا عندما تعلم بخبر موتي، ستظل شهورًا، غير راغبة بالحياة. ولكن، مع ذلك، فأنا الذي أموت، فكرت بعينيها الجميلتين العذبتين. عندما كانت تنظر إلي، ينتقل شيء منها إلي. ولكني فكرت أن الأمر قد انتهى؛ فإذا تطلع إليّ في الوقت الحاضر سيظل نظرها في عينيها ولن يصل إليّ. كنت وحيدًا.

وتوم كذلك كان وحيدًا، ولكن ليس بنفس الطريقة. إذ جلس منفرج الرجلين وأخذ ينظر إلى المقعد بنوع من الابتسام، كانت تبدو عليه الدهشة.

وقرب يده ولامس الخشب بحذر، وكأنه يخشى أن يكسر شيئًا ما، ثم سحب يده بحدة وارتجف. ما تسليت بالمقعد لو كنت أنا توم. كان ذلك نوعًا من التمثيليات الإيرلندية، ولكني كنت أرى أن للأشياء شكلًا مضحكًا: فقد كانت أكثر اختفاء وأقل وزنًا من المعتاد. إذ كان يكفي أن أنظر إلى المقعد، والسراج، وكومة الفحم المسحوق، حتى أشعر بأني سأموت.

بالطبع، لم يمكن باستطاعتي أن أفكر بموتي بصفاء، لكني كنت أراه أينما كان، على الأشياء، في الشكل الذي تراجعت به الأشياء ووقفت بعيدة، بتحفظ كأشياء يتكلمون بصوت خافت قرب فراش إنسان يموت، كان موته، ذاك الذي تحسسه توم على المقعد.

في الحال الذي كنت فيه، لو جاء من يعلن لي أن بإمكاني العودة بهدوء إلى بيتي، وأن حياتي سيتم إنقاذها: لظلت على برودي: فعدة ساعات أو عدة سنين من الانتظار كلها سواء، عندما يتبدد وهم الخلود. لم أعد أصر على شيء، فقد بت هادئا. لكن هدوئي كان رهيبا- بسبب جسدي: جسدي، الذي كنت أنظر بعينيه، وأسمع بأذنيه، ولكنه ليس أنا. كان يتصبب منه العرق ويرتجف وحده، ولم أعد أتعرف عليه. كنت ملزما بأن ألمسه أو أنظر إليه لأرى كيف أصبح، كما لو أنه أضحى جسم إنسان أخر. لفترات، كنت لا أزال أشعر به، أحس بالمنزلقات، وبأنواع التدحرج كما لو كنا في طائرة تائهة أو أنني أحس خفقان قلبي. ولكن هذا لم يكن ليطمئنني؛ فكل ما كان يأتي من جسدي كانت له هيئة قذرة معوجة. معظم الوقت، كان يسكت، ويظل أبكم، ولم أعد أحس بسوى نوع من الجاذبية، والوجود المدنس قبالتي. كان يتهيأ لي أني مرتبط بموت بطيء. كنت أتحسس سروالي لحظة وأحس بأنه مبلل؛ ولم أكن أعرف إذا كان مبللا من العرق أو البول، غير أني ذهبت لأبول على كومة الفحم، احتياطًا .

أخرج البلجيكي ساعته ونظر إليها. وقال:

"إنها الثالثة والنصف".

يا له من قذر. لقد فعل هذا عمدًا.

قفز توم عن الأرض: لم نكن قد عرفنا بعد أن الوقت يمر والليل يحيط بنا ككتلة مقسمة ليس لها شكل معين، ولم أعد أتذكر حتى أنه ابتدأ.

أخذ جوان الصغير بالصراخ. كان يتضوّر ألمًا، ويتوسل:

"لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت".

وركض عبر القبو رافعًا ذراعيه في الهواء، ثم تهالك على فراش من القش وانتحب. كان توم ينظر إليه بعينين كئيبتين ولم تعد به رغبة لمؤاساته. ولم يعد هذا ضروريًا، إذا كان الصغير يحدث ضجيجًا أكثر منا، ولكن إصابته كانت أخف؛ كان بمثابة مريض يدافع عن بؤسه بالحمى، فالحمى إذا زالت تصبح الأمور أشد خطورة.

كان بيكي، وكنت أعرف تمامًا أنه يشفق على نفسه، ولم يكن يفكر بالموت. للحظة واحدة، للحظة واحدة اعتراني شعور بالبكاء أنا أيضًا، بالبكاء رفقًا بنفسي، ولكن العكس هو الذي جرى؛ ألقيت نظرة على الصغير، فرأيت كتفيه الهزيلتين الباكيتين وأحسست بعدم إنسانيتي؛ لم يكن بوسعي أن أشفق على نفسي وعلى الأخرين. وقلت في نفسي: "أود أن أموت حقًا".

كان توم قد نهض، ووقف تحت الفوهة المستديرة بالضبط وأخذ يتربص طلوع النهار. وأنا كنت مصدومًا، وددت أن أموت حقًا، ولم أفكر بغير ذلك. ولكن، منذ أنبئنا الطبيب عن الوقت، بدأت أحس به ينقضي، بل يسيل قطرة فقطرة.

كان الوقت لا يزال ظلامًا عندما سمعت صوت توم:

- هل تسمعهم.
- نعم.
كان الرجال يمشون في الباحة.
مـا الـذي جـاء بهـم؟ فلـيس بإمكـانهم أن يطلقـوا النـار فـي الظلام. وما هي إلا دقائق حتي لم نعد نسمع شيئا. فقلت لتوم: "ها هو النهار".
استيقظ بدرو متثائبًا وجاء ليطفئ السراج. وقال لرفيقه: "يا له من صقيع".
كان القبو قد أصبح داكنًا تمامًا. وسمعنا عيارات نارية من بعيد. فقلت لتوم: "هـا هـي الأمـور تبـدأ، يـودون أن يقومـوا بالواجب في الباحة الخلفية".
طلب توم من الطبيب أن يعطيه سيجارة. أنا لم أكن أرغب بالتدخين. لا أريد لا سيكارة ولا كحولًا. ابتداء من هذه اللحظة، لم يكفوا عن اطلاق النار.
فقال توم: "هل ترى؟ "
كان يود أن يضيف شيئًا ولكنه سكت، ونظر إلى الباب. فتح الباب، ودخل ملازم مع أربعة جنود. فوقعت السيكارة من يد توم.
"ستينبوك ؟ ".
لم يجب توم. فبدرو هو الذي دل عليه.
- جوان مربال؟
- هذا الذي يفترش القش. فقال الملازم: "أنهض".
لم يتحرك جوان. فأخذه جنديان من تحت إبطيه وأوقفاه. ولكن ما إن تركاه حتى سقط أرضًا.

وتردد الجنود. وقال الملازم:
"ليس هو الوحيد الذي يرى نفسه في حالة سيئة، عليكما أن تحملاه أنتما الاثنين. وسنتدبر الأمر هناك".
واستدار إلى توم: "هيا، تعال".
وخرج توم بين جنديين. وكان يتبعه جنديان آخران، يحملان الصغير من تحت إبطيه وعرقوبيه. لم يكن مغشيًا عليه، فعيناه جاحظتان، والدموع تسيل على خديه. ولما هممت بالخروج أوقفني الملازم:
- أنت إبياتا الـ
- نعم.
- ستنتظر هنا؛ فسيأتون لأخذك في الحال.
وخرجوا. خرج البلجيكي والسجانان أيضًا، وبقيت وحدي. لم أكن أفهم ما يجري لي، ولكني وددت أن ينتهي ذلك بسرعة، وسمعت الطلقات على فترات شبه منتظمة. وكنت أرتعش لسماع كل منها. كنت أود أن أصرخ، أن انتزع شعري. لكني ضغطت على أسناني وغرست يدي في جيبي لأني كنت أود البقاء نظيفًا.
وما هي إلا ساعة، حتى أتوا ليأخذوني، واقتادوني إلى الطابق الأول، إلى حجرة صغيرة تفوح منها رائحة السيجار، ذات حرارة خانقة. كان فيها ضابطان يدخنان وهما جالسان على كنبات، كما يضع كل منهما على ركبتيه أوراقًا.
- اسمك ابياتا؟
- نعم.
- أين رامون غري؟

- لا أعرف.

الذي كان يستجوبني قصير ضخم. كانت عيناه القاسيتان تبدوان من خلف نظارته. وقال لي:

- اقترب

واقتربت. فنهض وأمسكني بكتفي وهو ينظر إلي بوجه مَن يريد قذفي إلى باطن الأرض. في نفس الوقت الذي كان في يضغط على عضلات زراعي بكل قواه. لم يكن ذلك بغية إيذائي، بل أنها اللعبة اللبقة.

كان يبغي السيطرة علي. وارتأى أيضًا أن ينفث لهاثه العفن في وجهي. بقينا لحظة واحدة على هذه الحال، كان هذا أقرب إلى إضحاكي. إذ كان يلزم أكثر من ذلك لإخافة رجل على وشك الموت: لم تنجح لعبته. فدفعني بعنف ثم عاد إلى الجلوس وقال:

"إنها حياتك مقابل حياته. نحن سننقذ حياتك إذا قلت لنا أين هو ".

إن هاذين الرجلين المزدانين بسياطهما وأحذيتهما الطويلة الساق، هما كذلك من الرجال الذين سيموتون، بعد موتي بقليل، ولكن ليس أبعد من هذا كان منهمكين بالبحث عن أوراقهما، يركضان وراء رجال آخرين بغية الإلقاء بهم في السجن أو حذفهم من الوجود. كانت لهما آراء حول مستقبل إسبانية وحول مواضيع أخرى. كانت نشاطاتها الضئيلة تبدو لي غليظة: لم يكن بوسعي أن أضع نفسي في مكانها إذ تهيأ لي أنهما مجنونان.

كـان الصـغير الغلـيظ ينظـر إلـي بإمعـان، وهـو يضـرب بالسوط على جزمته كل حركاته تدل بدقة على أنه له مشية حيوان هائج مفترس.

- إذا ؟ فهمت ؟ فأجبت:

- أنا لا أعرف أين غري. كنت أظن أنه في مدريد.

ورفـع الضـابط الثـاني يـده بوقاحـة. هـذه الوقاحـة كانـت مسحوبة بدقة أيضًا. كنت أشهد مناورتهم الصغيرة، مندهشًا من وجود رجال يتسلون بهذي الأمور. فقال بتؤدة:

- لديك ربع ساعة لتفكر. قده إلى غرفة الغسيل، وستعيده بعد ربع ساعة. فإذا أصر على الرفض سننفذ بـه الحكم في هذا المكان.

كانوا يعرفون ما يريدونه لقد أمضيت ليلي كله بالانتظار؛ وبعد هذا، حملوني على الانتظار ساعة في القبو، بينما كانوا يعـدمون تـوم وجـوان والآن هـا هـم يحتجزوننـي فـي غرفـة الغسيل. لابد أنهم أعدوا ضربتهم منذ البارحة. وقالوا في نفسهم إن الأعصاب تتلف مع الوقت وتأملوا في أن يروني هكذا.

كانوا يخطئون كل الخطأ. ففي غرفة الغسيل جلست على طاولـة، لأنـي كنت أعلم أين كـان غري! كـان مختبئًـا في بيت أبنـاء عمـه، علـى بعد أربعـة كيلو متـرات عن المدينـة. وكنـت أعرف كذلك أني لن أكشف عن مكـان وجـوده إلا إذا عذبوني (ولم يبد عليهم أنهم فكروا بذلك) كل ذلك كان معدًا تمام الإعداد النهـائي، فلـن يهمنـي أبـدًا. بيـد أنـي وددت لـو أدرك أسـباب سلوكي. كنت أوثر أن أموت على أن أسلم غري. لماذا ؟ لم أعد أحب رامون غري. وصداقتي معه تلاشت قبل الفجر، مع حبـي

لكونشا، مع رغبتي في الحياة. كنت لا أزال أقدره بلا شك، كان رجلًا قاسيًا. ولكن ليس لهذا السبب قبلت بالموت مكانه، فلم يعد لحياته قيمة تفوق قيمة حياتي، ولم يعد لأية حياة قيمة. سيلصقون الإنسان بالجدار وسيطلقون الرصاص عليه حتى الموت، ما هم لو كنت أنا أو غري أو أي شخص آخر، كنت أعلم أنه أكثر فائدة مني لقضية إسبانية غير أني كنت اسخر من إسبانية والفوضى، لم يعد لأي شيء أهمية. ومع ذلك كنت هناك، وكان بإمكاني أن أنقذ جلدي بتسليم غري ورفضت الإقدام على ذلك. رأيت هذا مضحكًا: إذ كان عنادًا وفكرت:

"هل على المرء أن يكون عنيدًا"

واعتراني نوع من السعادة غريب.

وجاؤوا يستدعونني أمام الضابطين. فخرج جرذ من تحت أرجلنا فسلاني قليلًا. واتجهت نحو أحد رجال الكتائب وقلت له:

"هل رأيت الجرذ ؟ "

ولم يجب. كان مكفهر الوجه، مقتنعًا بجديته. أما أنا فكنت أرغب بالضحك ولكني كنت اضغط على نفسي لأني خفت إن بدأت أن أفقد القدرة على التوقف. كان لرجل الكتيبة شاربان، فأضفت قائلًا له:

"عليك أن تحلق شاربيك أيها الغبي".

كنت أرى أن إطلاق الشعر ليغذو الوجه أثناء الحياة، من الأمور الغريبة. فرفسني برجله بغير اقتناع، فسكت.

فقال الضابط الضخم:

- حسنًا هل فكرت ؟

نظرت إليها بفضول كما لو أنني أنظر إلى حشرات من نوع نادر جدًا وقلت لهما:

"أنا أعرف أين هو. فهو مختبئ في المقبرة، في قبو صغير أو في كوخ الحفارين".

كان ذلك لأهزأ منهما كنت أود أن أرهما يقفان، ويشدان حزاميهما ويعطيان الأوامر باهتمام.

فقفزا على أرجلهما.

"هيا. اطلب خمسة عشر رجلًا من الملازم لوبيز. وقال لي الضابط القصير الضخم: وأنت لو قلت الحقيقة، فليس عندي إلا قول واحد. ولكن ستدفع الثمن غاليًا لو كنت تكذب علينا".

ومضوا محدثين ضجة قوية، بينما انتظرت بسرور تحت رقابة رجال الكتائب، كنت أضحك من وقت لأخر من الوجه الذي سيقابلونني به. شعرت بنفسي مغفلًا وخبيثًا. تخيلتهم رافعين حجارة القبر، فاتحين أبواب الأقبية واحدًا واحدًا. وتمثلت الموقف كما لو كان شخص آخر: هذا السجين الذي يصر على عمل البطولة، هؤلاء، هؤلاء الكتائبيون الوقورون بشواربهم، وأولئك الرجال ببزاتهم الرسمية يتراكضون بين القبور. كان ذلك في منتهى الطرافة.

وما هي إلا نصف ساعة حتى عاد القصير الضخم وحده. وخلت أنه جاء يعطي أمر القضاء علي. أما الباقون فظلوا في المقابر.

ونظر إلي الضابط. وقد اختفت من وجه مسحة الارتباك وقال: "اقتادوه إلى البارحة مع الآخرين. ففي نهاية العمليات العسكرية، ستبت المحكمة العادية بمصيره".

وخلت أنني لم أفهم، فسألته:
- إذا سوف لن ... لن يرموني بالرصاص؟...
- ليس الآن على كل حال. وبعده، لا يعود الأمر متعلقًا بي.
لم أفهم أبدًا. وقلت له: "ولكن لماذا ؟ "
فهز كتفيه بدون أن يجيب، واقتادني الجنود. وفي الباحة الكبيرة كان هناك مئات السجناء من نساء وأولاد وبعض الشيوخ. وبدأت أدور حول المرجة الرئيسية، لقد أصبحت معتوها. عند الظهر، قدموا لنا الطعام في المطعم. واستجوبني شخصان أو ثلاثة. كان علي أن أعرفهم، غير أني لم أجبهم؛ فلم أكن أعرف أين أنا.
عند المساء، ألقوا في الباحة نحو اثني عشر سجينًا جديدًا. فتعرفت على. غارسيا، الخباز. فقال لي:
- يا لك من محظوظ مقدس! لم أكن أفكر بأني سأراك على قيد الحياة فقلت.
- لقد أوقفوني في الساعة الثانية.
- لماذا؟
غارسيا لم يكن يعمل بالسياسة. فقال:
- لا أدري. أنهم يوقفون جميع من لا يفكرون على شاكلتهم.
وخفض صوته: "لقد قتلوا غري"
وبدأت أرتجف.
- متى؟
هذا الصباح. لو تدري ما فعل المغفل. لقد غادر بيت أبناء عمّه يوم الثلاثاء، لأنه صدر عنهم كلام. ولم يكن يفتقر لأناس يأوونه ولكنه لم يعد يريد إحسانًا من أحد. وقال: "كنت سأختبئ

عند إبياتا ولكن بما أنهم ألقوا القبض عليه فسأذهب واختبئ في المقبرة".

- في المقبرة؟

- نعم. كانت بلاهة منه. فبالطبع مرّوا بها هذا الصباح، وكان هذا مقررًا. فوجدوه في كوخ الحافرين. فأطلق النار عليهم، لكنهم أردوه.

- في المقبرة !

كل شيء بدأ بالدوران، ووجدتني جالسًا على الأرض؛ كنت أخجل بقوة، إلى حدّ أن الدموع بانت في عينيّ.....

opelkandl.com

الغرفة

-١-

كانت السيدة داربدا تحمل قطعة راحة الحلقوم بين أصابعها. وقرّبتها من شفتيها بعناية مخافة أن يطير عنها مسحوق السكر قائلة في نفسها: "أنها معطرة". وعضت تلك القطعة التي بلون الزجاج، فتصاعدت منها رائحة عفنة ملأت فمها. "غريب كم أن المرض يصفي الأحاسيس". وأخذت تفكر بالجوامع، وبالشرقيين من أصحاب المجاملة (فقد ذهبت إلى الجزائر في رحلة عرسها) ورسمت شفتاها ابتسامة، فرحة الحلقوم أيضًا متملقة.

وكان عليها أن تمر براحة يدها على صفحات كتابها ولعدة مرات لأن قشرة من المسحوق الأبيض كانت تغطي يدها رغم العناية. فيداها قد دحرجا حبيبات السكر وألصقها بالورق الأملس: "إن هذا ليذكرني بأركاشون عندما كنت أقرأ على الشاطئ ...) فقد أمضيت صيف ١٩٠٧ على شاطئ البحر. وكانت تعتمر وقتئذ قبعة من القش لها شريطة خضراء، كما تجلس على رصيف الحجارة وبيدها كتاب "لجيب" أو "لكوليت إيفير". والريح تمطر على ساقيها زوابع من الرمل، وهي تقلّب من وقت لآخر كتابها ممسكة بأطرافه. أنه الإحساس عينه، غير أن قطعات الرمل الصغيرة كانت جافة في حين أن قطعات السكر تلزق بيدها. فقد عاشت قطعة من السماء الغبراء

المتلألئة فوق بحر أسود. "لم تكن قد ولدت بعد". وأحست أنها وهي مثقلة بالذكريات ثمينة كصندوق من الصندل. وعاودها اسم القصة التي كانت تقرأها: واسمها السيدة الصغيرة، ولم يكن الاسم مزعجًا. لكن السيدة داربدا باتت تفضل المذكرات والمؤلفات التاريخية مُذ أرغمها بلاء مجهول على البقاء في غرفتها. كانت ترى أن الألم، والقراءات العديدة، والانتباه الدقيق لذكريات أيامها العذبة، من شأنها أن تجعلها ناضجة كثمرة عجّل نضجها.

وفكرت بأن زوجها سيطرق بابها قليل. ففي أيام الأسبوع الأخرى كان يأتي في المساء فقط، يقبلها في جبينها بصمت ويتابع قراءة كتاب "الوقت" قبالتها. لكن الخميس هو "يوم" السيد داربدا. إذ يملأ الغرفة الهادئة بوجوده. فهو لا يجلس، بل يذرع أرض الغرفة ويدور على نفسه. كانت حدته تجرح السيدة داربدا كشظية الزجاج. وهذا الخميس، أسوأ من العادة؛ حين تفكر بأن عليها في الحال أن تردد لزوجها اعترافات إيفا وترى ذلك الجسم الضخم المخيف يقفز من الهلع، ذلك يجعل العرق يتصب منها. ووضعت حلقومًا في الصحن وألقته بكآبة؛ لم تكن تريد أن يراها زوجها تأكل الحلقوم.

وارتعشت لما سمعت الباب يطرق. وقالت بصوت ضعيف: "ادخل".

دخل السيد داربدا على رؤوس أصابعه. فقال كما في كل خميس: "أريد أن أرى إيفا".

فابتسمت له السيدة داربدا: "ستقبلها من أجلي".

لم يجيب السيد داربدا وقطّب حاجبيه باهتمام! ففي كل خميس وفي نفس الساعة، يعتريه نوع من الإثارة التي تمتزج بجاذبية الهضم.

"سأمر لأرى فرانشو وهو خارج من بيتها، أريد أن يكلمها بجدية وأن يحاول إقناعها".

كان يقوم بزيارات متعددة للدكتور فرانشو. ولكن عبثًا. ورفعت السيدة داربدا حاجبيها. ففي الماضي زمن نشاطها كانت ترفع كتفيها دائمًا. ولكن منذ أثقل المرض جسدها، استبدلت الحركات التي أرهقتها بحركات من وجهها: فتقول نعم بعينها لا بطرف فمها، كما ترفع حاجبيها بدلًا من الكتفين. "من الواجب أن ننتزعها منه بالقوة".

- سبق وقلت إن هذا مستحيل، وذاك أن القانون قد أسيئت صياغته.

قال لي فرانشو قبل أيام إن لديهم متاعب لا تحصى مع العائلات. أشخاص لا يعتمدون شيئًا معينًا، يريدون إبقاء المرض عندهم. والأطباء مكلبو الأيدي فبإمكانهم أن يبدوا برأيهم، ليس إلا. وتابع كلامه بقوله: عليه أن يثير فضيحة عامة أو أن تطاب هي بنفسها وضعها في المستشفى.

فقالت السيدة داربدا:

- وهذا لن يكون في يوم غد.

- كلا.

واتجه نحو المرآة، وغرس أصابعه في لحيته وبدأ يسرحها. كانت السيدة داربدا تنظر بغير حنو إلى رقبة زوجها الحمراء القوة.

وقال السيد داربدا: إذا استمرت فستصبح أكثر اهتزازًا منه، وتلك حالة مخيفة. فهي لا تتركه خطوة ، ولا تخرج أبدًا إلا لتقابلك، ولا تستقبل أحدًا. فجو غرفتهم لا يمكن، بكل بساطة، تنشقه. وهي لا تفتح الباب إطلاقًا لأن بيار لا يقبل بفتحه. كما لو أنه يريد استشارة المريض. ويحرقون، على ما اظن عطورًا، بل قذارة في مجمرة، وكأنهم في كنيسة. انني اقسم بأني أتساءل أحيانًا لماذا لها هاتان العينان الغريبتان. فقالت السيدة داربدا:

- لم ألاحظ ذلك. راي هيئتها عادية. وهي كئيبة بالطبع.

- إن عليها ملامح من غادر القبر. فهل تنام؟ وهل تأكل؟ يجب ألا تسأل عن هذه الأمور. ولكنني أظن أنه لا يغمض لها جفن برفقة رجل ضخم كبيار. وهز كتفيه.

"وما أره أسطوريًا أننا نحن وأهلها، ليس لنا الحق بحمايتها من نفسها. ناهيك عن أن بيار يمكن الاعتناء به جيدًا عند فرانشو. فهناك حديقة كبيرة. وأضاف مبتسمًا: أن بإمكانه أن يتفق مع أناس من نوعيته. إن هؤلاء الأشخاص كالأولاد يجب تركهم معًا. فهم يؤلفون نوعًا من الماسونية. فهناك كان يجب وضعه منذ اليوم الأول وأقول: من أجل مصلحته بلا ريب.

وأضاف بعد لحظة: "سأقول لك لني لا أريد أن أعرف أنها وحيدة مع بيار، خاصة في الليل. فلو افترضنا أن شيئًا ما قد حصل. فإن بيار مراء بشكل خطير".

فقالت السيدة داربدا:

- لا أدري إذا كان من الواجب القلق إلى هذا الحدّ، لا سيما وأنها حالة رافقته دائمًا. كان يوصي بأنه يهزأ من العالم.

وتابعت متنهدة: يا له من صبي مسكين، حاز على شرفه ثم وصل إلى هذا الحد. كان يظن أنه أذكانا جميعًا وله أسلوب في قوله لك:

"الحق إلى جانبك". لإقفال النقاش ... أنها رحمة له أن لا يستطيع الاطلاع على حالته".

كانت تتذكر غير مسرورة ذلك الوجه الطويل الساخر، الدائم الانحناء. إلى جهة واحدة. ففي الأيام الأولى لزواج إيفا، لم تتمن السيدة داربدا أكثر من إقامة علاقات ودية مع صهرها. لكنه ثبط همتها؛ فلم يكن يتحدث، كما يوافق باستعجال وبغير اكتراث.

ويتابع السيد داربدا فكرته قائلًا:

"دعاني فرانشو لزيارة عيادته، أنه رائع. فالمرضى لهم غرف خاصة، فيها مقاعد جلدية، وأسرة مريحة وهل تعرفين أيضًا أن فيها معدات التنس، كما وسيصار لبناء المسبح".

كان قد انتصب أمام النافذة، ينظر من خلال الزجاج مائجًا ذات اليمين وذات اليسار من على رجليه المقوستين. فجأة استدار على طرفي حذائه بمرونة واطئ الكتفين واضعًا يده في جيوبه. وبدأت السيدة داربدا تشعر بأن العرق سيتصبب منها، ففي كل مرة يحصل الشيء ذاته. والآن سيزرع أرض الغرفة طولًا وعرضًا كدب في قفصه، وسيقرقع بحذائه عند كل خطوة فقالت له:

"يا صديقي، أرجوك، اجلس، أنت تتعبني".

وأضافت بتردد: "عندي شيء خطير أقوله لك".

جلس السيد داربدا على الكرسي الكبيرة ووضع يديه فوق ركبتيه. وسرت في ظهر السيدة داربدا قشعريرة خفيفة؛ فقد أزفت الساعة، كان عليها أن تتكلم. وقالت بصوت ملؤه الانزعاج:

- تدري أني رأيت إيفا يوم الثلاثاء.

- نعم.

- لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة، كانت لطيفة جدًا، فمنذ وقت طويل لم أجدها بتلك الثقة. عند ذلك طرحت عليها بعض الأسئلة، وجعلتها تتكلم عن بيار.

وأضافت وقد ازداد انزعاجها: حسنًا، أنها تتمسك "كثيرًا" به. فقال السيد داربدا:

- أقسم بأني أعرف هذا حق المعرفة. كان يزعج السيدة داربدا قليلًا. إذ أن عليها دائمًا أن تشرح له الأشياء بدقة واضعة النقاط فوق الحروف، كانت السيدة داربدا تحلم بأن تمضي حياتها مع أشخاص من ذوي اللباقة والحس المرهف، من يفهمونها بسرعة. وأردفت: "غير أني أريد أن أقول، أنها تتمسك به "بخلاف ما نتصوره".

وتطلع السيد داربدا بعينين غاضبتين مضطربتين، كعادته عندما لا يفهم معنى تلميح أو خبر ما:

- ما يعني هذا ؟

فقالت السيدة داربدا:

- شارل، لا تتعبني، عليك أن تفهم أن الأم تجد صعوبة في ذكر بعض الأمور.

فقال السيد داربدا بغضب:

- لم أفهم أية كلمة من الكلمات التي أتيت بها، ولا تريدين أن تقولي شيئًا رغم ذلك ؟

فقالت: حسنًا إذا!

- لديهم أيضًا .. أيضًا حتى الأن !

فأجابت بثلاث كلمات جافة:

- نعم ! نعم ! نعم !

فأزاح السيد داربدا زراعيه، وأخفض رأسه وسكت.

فقالت امرأته بقلق:

- شارل، كان علي أن لا أقول لك ذلك. لكني لم أعد أستطيع الاحتفاظ به لنفسي.

فقال بصوت وئيد:

- يا بنتنا ! مع هذا المجنون ! أنه لم يعد يعرفها فهو يسميها أغاتا. فطبيعي أن تكون فقدت معنى ما يجب أن تكون.

فرفع رأسه ونظر إلى زوجته بقساوة:

- أنت متأكدة من أنك فهمت جيدًا ؟ فأضافت بحدة:

- لم يكن هناك من شك ممكن. فأنا مثلك، لم يكن يسعني أن أصدق، وأنا لا أفهمها على كل حال. إلا لأنها متأثرة بهذا البائس المسكين... وتنهدت: وأخيرًا، اعتقد أنه يحتفظ بها بهذا.

فأجاب السيد داربدا:

- يا للأسف ! هل تذكرين ما قلت لك عندما جاء ليطلب يدها ؟ قلت لك: "أنه يروق لإيفا أكثر من اللزوم". ولم تريدي أن تصدقيني. وضرب فجأة على الطاولة واحمر بقوة:

- هذا فساد في الأخلاق! يأخذها بين زراعيه ويقبلها وهو يناديها بأغاتا ويفرغ جميع سخافاته حول التماثيل التي تطير

وغير ذلك! وهى تسمح بذلك! ولكن ما يجري في الحقيقة بينهما ؟ أن تلومه من كل قلبها. أن تضعه في مأوى للراحة، حيث يصبح بإمكانها أن تراه كل يوم في ساعة مبكرة، غير أني لم أفكر بشيء كهذا... كنت اعتبرها بمثابة أرملة. وقالت بصوت وقور:

- اصغي يا جانيت، أريد أن أكلمك بصراحة، فإذا بقي فيها إحساس عليها أن تتخذ لها عشيقًا!

فصاحت السيدة داربدا؛

- شارل، اخرس!

فأخذ السيد داربدا، بهيئة متعبة، القبعة والعصا اللتين وضعهما على الطاولة المستديرة، حين دخوله وختم حديثه قائلًا:

- بعد الذي قلته لي لم يبق لي أي أمل. وفي النهاية، سأحدثها رغم كل شيء لأن هذا من واجبي.

كانت السيدة داربدا تستعجل ذهابه. فقالت له بغية تشجيعه: "أتدرى أن إيفا تشكو من عنادها أكثر من أي.... شيء آخر. تعرف أنه غير قابل للشفاء ولكنها تصر على عنادها، وهي لا تريد أن ترضى بالتكذيب".

كان السيد داربدا يداعب لحيته حالمًا:

"عناد؟ نعم يمكن أن يكون الأمر كذلك. حسنًا، فإذا كان الحق معك لابد وأن تتعب في النهاية. فهو ليس مريضًا كل يوم ثم إن الحديث ينقصه، فعندما أقول له مرحبًا، يمد لي يدًا رخوة بدون أن يتكلم. وعندما ينفردان معًا، أظن أنه يعود إلى أفكاره

الثابتة. قالت لي: أنه يصرخ كالذبيح لأن عنده وسواس. تماثيل. تخيفه التماثيل لأنها تئز. يقول أنها تدور حوله بأعين بيضاء".

وأرداف وهو يضع كفيه: "ألا أقول لك، أنها ستمل في النهاية. ولكن إذا جنت قبل ذلك؟ أود أن تخرج قليلًا، أن ترى العالم: فإذا قابلت شابًا ظريفًا – شخصًا مثل شرويدر مثلًا وهو مهندس عند سامبلون، شخصًا له مستقبله، تراه تارة عند هؤلاء، وطورًا عند أولئك وتعتاد برفق على التفكير ببناء حياتها من جديد".

لم تجب السيدة داربدا بشيء مخافة أن يتطور الحديث. فانحنى زوجها نحوها قائلًا:

- هيا، عليّ أن أذهب.

فقالت السيدة داربدا وهي تقرب جبينها:

- وداعًا أيها ألاب. قبّلها جيدًا وقل لها نيابة عني أنها عزيزة تاعسة. وما إن ذهب زوجها حتى وقعت السيدة داربدا على كنبتها وأغمضت عينيها من فرط الإعياء. وفكرت بنوع من الملامة: "يالها من حيوية".

وما كادت تستعيد بعض قواها حتى مدت يدها الشاحبة ووضعت قطعة من الحلقوم في الصحن، بارتجاف وبدون أن تفتح عينيها.

كانت إيفا تسكن مع زوجها في الطابق الخامس من إحدى البنايات، في الشارع باك. تسلق السيد داربدا برشاقة درجات السلم المئتين واثنتي عشرة.

ولما ضغط على زر الجرس لم يكن على الآخر رمق. وتذكر بارتياح كلمة الآنسة دورموا: "بالنسبة لسنك يا شارل،

أنت، بكل بساطة، رائع". لم يكن يعرف أبدًا مثيلًا لقوته ونشاطه يوم الخميس، لا سيما بعد تسلق الدرج. وجاءت ايفا لتفتح له: "صحيح، ليس عندها خادمة. هؤلاء البنات لا يستطعن البقاء في خدمتها ووضعت نفسي في مكانهن". قبلها قائلًا: "مرحبًا بك يا عزيزتي المسكينة".

فقالت له مرحبًا ببعض البرود.

وقال السيد داربدا وهو يلامس خدها: "وجهك مائل إلى الشحوب، فأنت لا تتمرنين ما فيه الكفاية".

ومرت فترة صمت. وسألت إيفا:

- الماما صحتها جيدة؟

- لا رديئة ولا جيدة. هل رأيتها الثلاثاء؟

حسنًا أنها ككل يوم. جاءت خالتك لويزا لتراها أمس، فسرت لذلك.

تحب كثيرًا أن تتلقى الزيارات، شريطة ألا تطول كثيرًا. خالتك لويزا أتت إلى باريس مع الصغار من أجل قضية الحجز. حدثتك عنها على ما أظن أنها قضية مضحكة. ومرت إلى مكتبي لتأخذ استشارة. فقلت لها أن ليس هناك من طريقين: عليها أن تبيع. فقد وجدت بريتوفيل كمستأجر على كل حال. هل تتذكرين بريتوفيل؟ لقد انسحب من الأعمال في الوقت الحاضر.

وتوقف فجأة، فايقًا لا تكاد تصغي إليه. ففكر باكتئاب بأنها لم تعد تكثرت لشيء. "كقصة الكتب. في السابق كان علينا انتزاعها بالقوة. والآن لم تعد تقرأ أبدًا".

- كيف حال بيار؟ فقالت ايفا:

- بأحسن حال. هل تريد أن تراه؟
فقال السيد داربدا بسرور:
- بل بكل تأكيد، أريد أن أزوره زيارة قصيرة.
كان كثير الملاطفة لهذا الرجل التعيس، ولكنه لا يستطيع رؤيته بغير اشمئزاز. "أنا أخاف الأشخاص غير الأصحاء". لم تكن تلك غلطة بيار بلا شك: كانت سلالته مليئة. وتنهد السيد داربدا: "مهما أخذنا من احتياطات فإن كل الأمور المماثلة تأتي متأخرة جدًا". كلا، لم يكن بيار مسئولًا. ولكن على كل حال، فقد حمل هذه الآفة فيه، وهي تكون جوهر طبيعته. إذ لم تكن كمرض السرطان أو السل، بالإمكان التغاضي عنها عندما نكون بصدد الحكم على الإنسان كما هو بحد ذاته. فلطالما راق ايفا تلك الجاذبية العصبية وذاك الذكاء عندما كان يغازلها، أنها أزهار الجنون. "كان قد أصبح مجنونًا حين تزوجها، غير أن جنونه لم يظهر. وفكر السيد داربدا؛ نتساءل أين تبتدئ المسؤولية بلائه أم نتيجة. ولحق بابنته عبر ممر طويل معتم وقال:
- هذه الشقة كبيرة بالنسبة إليكما، عليكما أن تنتقلا منها.
فأجابت إيفا:
- تردد لي هذا في كل مرة يا أبت، لكني أجبتك بأن بيار يرفض مغادرة غرفته.
كانت إيفا مدهشة: وهذا ما يثير التساؤل فيما لو كانت تعلم بحالة زوجها كان مجنونًا، وهي تحترم قراراته وآراءه كما لو كان متمتعًا بحسه السليم.
فأردف السيد داربدا ببعض الانزعاج:

- ما أتحدث عنه هو من أجلك. إذ يبدو لي لو كنت امرأة أني سأخاف من هذه الحجرات القديمة شبه المضاءة، أتمنى لك أن تقيمي في شقة مضيئة، كتلك التي بنوا منها هذه السنين الأخيرة ناحية أوتويي، من ثلاث غرف يدخلها الهواء جيدًا. وقد خفضوا إيجار شقتهم لأنهم لم يجدوا المستأجرين، فالفرصة سانحة.

وأدارت إيفا مزلاج الباب برفق ودخلا الغرفة. كاد السيد داربدا يختنق من رائحة البخور الثقيلة. والستارات كانت مسدلة. فميز في الظل رقبة هزيلة فوق ظهر الكنبة؛ كان بيار يدير ظهره، أنه يأكل.

فقال السيد داربدا رافعًا صوته:

- مرحبًا يا بيار. كيف حالنا اليوم؟

واقترب السيد داربدا؛ كان المريض جالسًا إلى طاولة صغيرة؛ بهيئة متملقة. وقال السيد داربدا رافعًا صوته أكثر:

- أكلنا بيضًا نبرشت. أنه لذيذ، هذا البيض!

فأجاب بيار بصوت رقيق:

- أنا لست أصم.

والسيد داربدا الذي تأثر، أدار وجهه ناحية إيفا ليأخذها كشاهدة. لكن إيفا بادلته نظرة قاسية وسكتت. ففهم السيد داربيدا أنه جرحها. "حسنًا. فليكن ما تشاء". كان يستحيل إيجاد اللهجة الملائمة مع هذا الرجل: إذ أن عقله دون عقل طفل في الرابعة، وايفا تريد أن يعامله الناس كرجل. ولم يكن السيد داربدا ليستطيع أن يحول دون الانتظار بفارغ الصبر زوال تلك النواحي المضحكة. فالمرضى يزعجونه دائمًا – وخاصة

المجانين لأنهم على خطأ. فبيار المسكين مثلًا، دائم الوقوع في الخطأ، ليس بوسعه أن يتفوه بكلمة بدون أن يضيع صوابه، ومن العبث أن يطلب إليه أي تتواضع، أو حتى الاعتراف العرضي بالأخطاء.

وانتزعت إيفا قشرة البيض. ووضعت أمام بيار صحنًا مع شوكة وسكين.

فقال السيد داربدا مسرورًا:

- ماذا سيأكل في الوقت الحاضر!

- قطعة بفتاك.

كان بيار قد تناول الشوكة ووضعها على طرف أصابعه الطويلة الشاحبة فحصها بدقة ثم ضحك ضحكة خفيفة. وتمتم وهو يضعها من يده:

- لن تكون لهذه المرة. فقد نبهت.

واقتربت إيفا ونظرت إلى الشوكة باهتمام فائق. فقال بيار:

- آغاتا أعطيني شوكة أخرى.

وأطاعته إيفا، وبدأ بيار يأكل. فتناولت الشوكة المشبوهة وأمسكتها بكلتا يديها بدون أن تزيح نظرها عنها: يبدو أنها تقوم بمجهود عنيف.

ففكر السيد داربدا. " كم هي منحرفة جميع تصرفاتهم وحركاتهم!"

كان متضايقًا. وقال بيار: "انتبهي، أمسكيها من نصف الظهر بسبب الملاقط".

فتنهدت إيفا وألقت الشوكة مع فضلات الطعام. وضاق السيد داربدا ذراعًا بما رآه. ولم يفكر بأنه من الأفضل الموافقة

على ترهات هذا المسكين – حتى من وجهة نظر بيار، كان الأمر مؤذيًا. لقد قالها فرانشو بوضوح: "علينا ألا ندخل في هذر المريض". فبدلًا من إعطائه شوكة أخرى كان يجب تصويبه برفق وإفهامه أن الشوكة الأولى ككل الشوكات الأخرى. واقترب من فتات الطعام، وتناول الفرشاة علنًا وأخذ يحكمها على أسنانه بخفة. ثم اتجه نحو بيار. لكن هذا كان يقطع قطعة اللحم بسرور. فرفع نحو حميه نظرة عذبة لا تنم عن شيء. فقال السيد داربدا لإيفا: "أريد أن أتحدث قليلًا معك".

تبعته إيفا طائعة إلى غرفة الاستقبال. وانتبه السيد داربدا وهو يجلس، إلا أنه نسي الفرشاة في يده. فرماها، بانزعاج على المنضدة. وقال: "هنا أفضل".

- لن آتي أبدًا.

- بإمكاني أن أدخن.

فقالت إيفا بتلهف:

- طبعًا يا أبت. هل تريد سيجارًا؟

آثر السيد داربدا أن يلف سيكارة. كان يفكر بغير قلق بالمناقشة التي سيجريها. كان منزعجًا من عقله وهو يتحدث إلى بيار، انزعاج المارد من قوته عندما يلاعب ولدًا صغيرًا. فكل صفاته من وضوح وصفاء ودقة كانت تتحول ضده. "مع جانيت المسكينة، الأمر متشابه إلى حد ما، عليّ أن أعترف بذلك" وبالطبع، إن السيدة داربدا ليست مجنونة ولكن المرض أنهكها.

إيفا، بالعكس، كانت كأبيها، ذات طبيعة مستقيمة ومنطقية. "لهذا لا أريد أن يغرقوها". رفع السيد داربد عيبيه، كان يريد

أن يرى ملامح الذكاء والفطنة عند ابنته. خاب ظنه: ففي هذا الوجه الذي كان عاقلًا شديد الوضوح، يوجد الآن شيء مضطرب كثيف. كانت لا تزال جميلة جدًا. ولاحظ السيد داربدا أنها تزينت بعناية فائقة، وحتى بزهو. فقد لونت ريفها بالأزرق واكتحلت. تلك الزينة الكاملة والعنيفة أحدثت عند أبيها انطباعًا مضيئًا. فقال لها: "تبدين خضراء من تحت زينتك، أخشى أن تقعي فريسة المرض. ولكم تتبرجين في الوقت الحاضر! التي كنت".

ولم تجب ايفا، وتطلع السيد داربدا بانزعاج إلى هذا الوجه البارز المنهك، تحت كتلة الشعر الكثيف الأسود. وفكر بأن لها هيئة ممثلة الدراما "حتى أني أعرف لمن تشابه. لتلك المرأة متحفظة الرومانية، التي لعبت دور فيدرا باللغة الفرنسية في حائط الأورنج". وندم على إبدائه تلك الملاحظة غير المحببة.

- حصل هذا رغم إرادتي! من الأفضل ألا أثيرها لأشياء صغيرة.

فقال مبتسمًا:

- أعذريني، فأنت تعرفين أني متمسك بالطبيعة قديم. لا أحب كل هذه المراهم التي تطلي بها نساء اليوم وجوههن لكنني أنا المخطئ، فمن الواجب أن يماشي الإنسان عصره.

وابتسمت له إيفا بتحبب. أشعل السيد داربدا سيكارته وأخذ عدة أنفاس . وبدأ كلامه :

يا ابنتي الصغيرة كنت أريد أن أقول لك حقًا إننا نريد أن نثرثر نحن الاثنين، في السابق. هلمي، اجلسي واصغي إليَّ بلطف، فعليك أن تثقي بهذا الأب العجوز.

فقالت إيفا: أفضل أن أبقى واقفة. ثم أضافت: ما عندك لتقوله لي؟

فقال السيد داربدا بمزيد من الجفاف: أريد أن أسألك سؤالًا بسيطًا. إلام سيقودك كل هذا؟

فكررت إيفا مدهوشة: كل هذا؟

- أجل، كل هذا، كل هذه الحياة التي ارتضيتها.

وأردف قائلًا: صغي، لا تظني أني لا أفهمك (أصيب بضياع مفاجئ). لكن ما تريدين أن تقومي به هو فوق طاقة البشر. تريدين أن تعيشي بالخيال فقط أليس كذلك؟ لا تدرين أن ترضي بأنه مريض؟ لا تريدين أن تري بيار كما هو اليوم، أليس كذلك؟ ليس لك نظر لغير بيار كما كان في السابق. يا عزيزتي الصغيرة، يا ابنتي الصغيرة. وتابع داربدا: أنها مخاطرة لا يمكن الاستمرار فيها. خذي، أريد أن أقص عليك حكاية لم تسمعي بها من قبل: نحن عندما كنا في سابله – دولون، كان عمرك ثلاث سنوات، وتعرفت أمك على امرأة جذابة كان عندها صبي رائع. كنت تلعبين على الشاطئ مع هذا الصبي، كنت لا تزالين صغيرة جدًا، أنه خطيبك. وفي باريس شاءت أمك أن تعود للقاء تلك المرأة الشابة، إذ قيل لها أن حادثًا رهيبًا قد حصل لها. فولدها الجميل قتل بعد أن صدمته مقدمة إحدى السيارات وقيل لأمك: "اذهبي لمقابلتها ولكن لا تتناولي بأي حال موضوع ولدها فهي لا تريد أن تصدق أنه مات". وذهبت أمك لترى خلقة سبه مجنونة: كانت تعيش كما لو أن ولدها لا يزال على قيد الحياة، إذ أنها تكلمه، وتضع صحنه في الطاولة. لقد عاشت ستة أشهر على تلك الحال من التوتر

العصبي، ولم تمض هذه الأشهر الستة حتى اقتيدت بالقوة إلى مأوى احترازي بقيت فيه ثلاث سنين. وقال السيد داربدا وهو يهز رأسه: لا يا صغيرتي إن أمورًا كهذه مستحيلة. كان من الأفضل لها أن تعترف بالحقيقة بشجاعة، فتتألم لمرة واحدة ثم يمتص الزمن ألمها. فلا يمكن إلا التطلع إلى الأمور مواجهة، صدقيني.

فقالت إيفا بعناء:

- أنت مخطئ فأنا أعرف أن بيار ...

ولم تجر الكلمة على لسانها، فوقفت منتصبة القامة، ووضعت يديها على ظهر الكرسي. كان هناك شيء مجدب دميم في أسفل وجهها.

وسأل السيد داربدا مدهوشًا:

- حسنًا ... ماذا؟

- ماذا؟

- أنت ...؟

فأسرعت إيفا لتقول بهيئة منزعجة:

- أحبه كما هو.

فقال السيد داربدا بقوة:

- ليس هذا صحيحًا، ليس هذا صحيحًا: أنت لا تحبينه، ليس بإمكانك أن تحبيه. ليس بالإمكان الشعور بعاطفة إلا تجاه إنسان سليم وطبيعي.

"إن لديك بعض الممالأة لبيار، ولا أشك بذلك، كما لا بد وأنك تحافظين على ذكرى السنوات السعيدة الثلاث التي أمضيتها معه. ولكن لا أقول أنك تحبينه، فلن أصدقك".

ظلت أيضًا بكماء وحدجت السجادة بنظرة تائهة. فقال السيد داربدا ببرود:

- ولا تظني أن هذا الحديث لا يؤلمني بقدر ما يؤلمك:

- ولكنك لن تصدقني.

فقال وقد ضاق ذرعًا:

- حسنًا، إذا كنت تحبينه فإن هذا وبال عليك، وعلي وعلى أمك المسكينة وسأقول لك شيئًا كنت أفضل إخفاءه. لن تمر ثلاث سنوات حتى يصبح بيار مجنونًا كاملًا، وسيتحول إلى حيوان.

وحدج ابنته بنظرات قاسية، لقد كرهها لأنها أرغمته بعنادها على الاعتراف لها بهذا الأمر الخطير.

ولم تتحرك أيضًا وبدون أن ترفع ناظريها:

- أعرف ذلك.

فسأل مشدوهًا:

- ومن قاله لك؟

- فرانشو. فأنا أعرف ذلك منذ ستة أشهر..

فقال السيد داربدا بمرارة:

- وأنا الذي قلت له أن يسايرك.

"ولكن، لعل هذا أفضل. ففي مثل هذه الأحوال لا يمكن أن نغفر لك الاحتفاظ ببيار في بيتك. فالكفاح الذي كرست نفسك من أجله سيكتب له الفشل، فمرضه لا يغفر. فإذا كان عليك أن تفعلي شيئًا، وإذا كان بالإمكان إنقاذه بالعناية، فلا اعترض. ولكن انظري قليلًا: كنت جميلة ذكية مرحة، وأنت تدمرين حياتك مختارة وبغير فائدة. حسنًا، أفهم أنك مدعاة للإعجاب،

ولكن ها أنت قد قمت بواجبك على أكمل وجه بل أكثر من واجبك. ومن العار أن تصري على رأيك في الوقت الحاضر، فعلى المرء واجبات تجاه نفسه يا ابنتي. ثم ألا تفكرين بنا".

وأضاف وهو يشد على الكلمات:

- "يجب" عليك أن ترسلي بيار إلى عيادة فرانشو، ثم تتركي هذه الشقة التي لم تجلب لك سوى العذاب وتعودي إلى بيتنا. وإذا كنت راغبة بأن تكون مفيدة وأن تسلي عن آلام الغير، فعليك بأمك. إن المسكينة تحت عناية الممرضات وهي بحاجة لأن ترى بشرًا حولها. وأضاف:

- وهي - هي بإمكانها أن تقدر ما تقومين به من أجلها وتكون لك شاكرة.

ومضى وقت طويل. وسمع السيد داربدا بيار يغني في الغرفة المجاورة. بالكاد كان صوته غناء فهو نوع من السرد الحاد العصبي، ورفع السيد داربدا نظره نحو ابنته:

- إذا، لن تقبلي؟

فقالت برفق:

- سيظل بيار معي، فأنا على أشد ما تكون المفاهمة معه.

- شريطة القيام بأعمال حيوانية طيلة النهار.

فابتسمت إيفا وحدجت أباها بنظرة ساخرة شبه فرحة. وفكر السيد داربدا بغضب: "صحيح، فهما لا يعملان أكثر من هذا: ينامان في فراش واحد.

فقال وهو ينهض:

"أنت مجنونة كاملة".

فابتسمت بكآبة متمتمة وكأنها تحدث نفسها:

- ليس كثيرًا.
- ليس كثيرًا! لا أستطيع أن أقول لك سوى شيء واحد يا ابنتي، أنت تخيفينني.
وقبلها على عجل وانصرف. وفكر وهو ينزل الدرج:
"من الأجدر أن أرسل لها رجلين ضخمين يقتادان تلك القذارة المسكينة ويضعانها تحت مصب المياه دون أخذ رأيها".
كان يومًا هادئًا من أيام الخريف، ليس فيه من غرابة. والشمس تسطع في وجوه المارة. دهش السيد داربدا لبساطة تلك الوجوه فمنها الأسمر الخشن ومنها الناعم، لكنها كانت تعكس السعادة والهموم التي ألفها. وقال في نفسه وقد استلم جادة سان جرمان:
"أعرف بوضوح تام ما أخذه على إيفان لم يعد بيار كائنًا بشريًا: فبكل ما توليه من عناية وتهبه من حب أراها تحرم هؤلاء البشر الآخرين. فليس بإمكان المرء أن يتخلى عن بني الإنسان".
كان يراقب المارة بمحبة: يعشق نظراتهم الوقورة الصافية. ففي هذه الشوارع المشمسة وبين البشر بإمكان المرء أن يكون مطمئنًا، كما لو في عائلة كبيرة.
وتوقفت إحدى النسوة أمام الأشياء المعروضة في الهواء الطلق، كانت تمسك بيدها بنتًا صغيرة.
فسألت البنت وهي تدل على جهاز الراديو:
- ما هذا؟
فقالت أمها:
- لا تلمسي شيئًا بيدك، أنه جهاز، يحدث موسيقى.

وظلتا للحظة ساكتتين، وفي غمرة السعادة.

فانحنى السيد داربدا وقد رق قلبه - نحو البنت الصغيرة وابتسم.

"لقد ذهب". وكان باب المدخل قد أقفل بقرقعة جافة. وإيفا وحدها في غرفة الاستقبال. "أودّ أن يموت". وتشنجت يداها على ظهر الكرسي، إذ تذكرت عيني أبيها. كان السيد داربدا قد انحنى فوق بيار وقال له: "ألذيذ هذا!" وكأنه يتقن الحديث إلى المرضى. نظر إليه، فارتسم وجه بيار في قعر عينيه. "أنا أكرهه، عندما أفكر بأنه يراه".

وانزلقت يدا إيفا على طول الكنبة، واتجهت نحو النافذة. كانت مشدوهة، فالغرفة تسطع بالشمس، فالشمس في كل مكان فيها: على السجادة ذات الدوائر، وفي الهواء، كغبار يعمي الأبصار. لقد فقدت إيفا تعودها على الضوء القوي، الذي يصل إلى كل مكان ويخترق جميع الزوايا، يلامس الأثاث فيجعله يلمع. وتقدمت مع ذلك نحو النافذة ورفعت ستار القماش الذي يتدلى فوقها في نفس اللحظة، كان السيد داربدا يغادر البناية؛ فلمحت إيفا فجأة كتفيه العريضتين. ورفع رأسه ونظر إلى السماء مغمضًا عينيه ثم ابتعد بخطى واسعة وكأنه رجل شاب. وفكرت إيفا: "أنه يجهد نفسه". لم تكن لتكرهه أبدًا: لم يبق في هذا الرأس من أشياء كثيرة، إذ لا يكاد اهتمامه بالبقاء شابًا يظهر عليه. لكن الغضب عاد واستبد بها عندما شاهدته ينعطف نحو جادة سان جرمان ومن ثم يختفي. "أنه يفكر ببيار". فالقليل من حياتهما فرّ خارج الغرفة المقفلة ليتهالك في سيره عبر الشوارع، وفي الشمس، وبين الناس.

"أليس بالإمكان قط أن ينسونا؟".

كانت طريق باك شبه مقفرة. امرأة عجوز تعبر الشارع على مهل، وتمر ثلاث فتيات يتضاحكن. ثم رجال، رجال أقوياء وقورون يحملون حقائبهم ويتبادلون الحديث وفكرت إيفا: "البشر العاديون"، وقد أدهشها أن ترى في نفسها تلك المقدرة على الكره. وركضت امرأة جميلة سمينة أمام سيد أنيق. فأحاطها بذراعيه وقبلها في فمها. ضحكت إيفا ضحكة قاسية وأسدلت الستار.

كان بيار قد انقطع عن الغناء، لكن زوجة الثالث جلست إلى البيانو؛ تعزف قطعة لشوبان. وشعرت إيفا بأنها أكثر اطمئنانًا؛ وخطت خطوة نحو غرفة بيلر، لكنها توقفت فجأة وأسندت ظهرها إلى الحائط بشيء من القلق: إذ في كل مرة كانت تغادر فيها الغرفة، يدب في نفسها الذعر عند فكرة العودة إليها ثانية. إلا أنها تعرف أنه لم يكن بوسعها العيش في مكان آخر: كانت تحب الغرفة. وجابت ببصرها بفضول بارد تلك الغرفة التي لا ظلال لها ولا رائحة حيث كانت تنتظر عودة شجاعتها، وكأنها تريد أن تكسب قليلًا من الوقت. "ليقل أنها عيادة طبيب الأسنان": فكنبات الحرير الوردي، ولاديوان، والطاولات كانت صبورة متكتمة، على شيء من الأبوة فهي من الأصدقاء الطيبين للإنسان. وتصورت إيفا أن رجالًا وقورين عليهم أثواب فاتحة، يدخلون قاعة الاستقبال ويستأنفون حديثًا كانوا قد بدأوه. لم يسعهم الوقت لكي يتعرفوا على المكان، إذ تقدموا بخطى ثابتة إلى وسط الحجرة. وكان واحد مثلهم، يجر يده وراءه، يلامس عند مروره الطنافس والأغراض والطاولات،

فلا يرتعد لاحتكاكه بها. وإذا وقعت في طريقهم قطعة أثاث، كان يعمد هؤلاء الرجال الرزينون لإزاحتها من مكانها، بدون أن يأخذوا عناء الابتعاد عنها. وجلسوا أخيرًا، وهم لا يزالون غارقين في مباحثاتهم، حتى بدون أن يلقوا نظرة إلى الوراء. ففكرت إيفا: "أنها قاعة استقبال للبشر العاديين" وثبتت نظرها بالباب المقفل والقلق يضغط على حنجرتها: "عليّ أن أذهب. فلن أتركه وحده لهذه المدة الطويلة". كان عليها أن تفتح الباب، ثم تقف في العتبة، محاولة أن تعود عينيها على خيال الظل، فتدفعها الغرفة بكل قواها. وكان على غيفا أن تنتصر على تلك المقاومة وأن تدخل إلى قلب الغرفة. فجأة اعتراها ميل عنيف لمشاهدة بيار، وأرادت أن تشاطره الهزء من السيد داربدا. لكن بيار لم يكن بحاجة إليها؛ ولم تتصور إيفا نوع اللقاء الذي يعده لها. وفجأة فكرت بنوع من الفجر أنه لم يبق لها محل في أي مكان. غير أني لا أستطيع المكوث ساعة بصحبتهم. أنا بحاجة لأعيش هناك، من زاوية الجدار الثانية. ولكنهم لا يريدونني هناك.

وحصل تغير عميق فيما حولها. لقد شاخ الضوء، وأصبح لونه داكنًا: وتثاقلت إيفا، كالماء في أناء الزهور حين لا يتغير منذ البارحة. وعلى الأشياء وفي هذا الضوء العجوز، رأت إيفا من جديد تلك الكآبة التي كانتن قد نسيتها منذ وقت طويل، كآبة بعد ظهر يوم من أيام خريف مضى. كانت تنظر فيما حولها مترددة خجولة: كل هذا كان بعيدًا جدًا: ففي الغرفة ليس هناك نهار أو ليل، ولا فصل ولا كآبة. وتذكرت بغير وضوح فصول

الخريف السابقة، فصول خريف طفولتها، ثم جمدت في مكانها فجأة، كانت تخشى الذكريات.

وسمعت صور بيار.

فصاحت:

- هأنا آتية.

وفتحت الباب ودخلت الغرفة.

لقد ملأت رائحة البخور أنفها وفمها، بينما أغمضت عينيها ومدت يديها إلى الأمام - أصبحت الرائحة والظل بعينها عنصرًا واحدًا كالماء والنار - وتقدمت بحذر نحو لطخة يبدو أنها طافية في الغمام. كانت اللطخة وجه بيار: فثيابه (وبيار مذ مرض بات يرتدي لباسًا أسود) قد ذابت في العتمة. كان بيار قد قلب رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه. أنه جميل. نظرت إيفا إلى ريفه الطويل المقوس، ثم جلست إلى جانبه على الكرسي الواطئة. وفكرت في نفسها: "يبدو أنه يتألم". بدأت عيناها تألفان الظل شيئًا فشيئًا. فظهر المكتب أولًا، ثم السرير، ثم أشياء بيار الشخصية، والمقص، والكتب التي كانت على الأرض قرب الكنبة.

"أغاتا؟"

فتح بيار عينيه ونظر إليها باسمًا. وقال:

- أتدرين قصة الشوكة؟ قمت بذلك لأخيف الرجل. فلم يكن ينقصها شيء تقريبًا.

فتبددت مخاوف إيفا وضحكت ضحكة خفيفة وقالت:

- لقد نجحت نجاحًا هائلًا، فجعلته يخاف خوفًا شديدًا.

وابتسم بيار.

- أرأيت؟
داعبها هنية وأمسكها بكلتا يديه. وقال: إن ما هناك، أنهم لا يحسنون أخذ الأشياء فهم يضعونها في قبضتهم.
فقالت إيفا:
- هذا صحيح.
ونقر بيار قليلًا على باطن يده اليسرى بسبابة يده اليمنى.
"فبهذه يلتقطون. يقربون أصابعهم وما أن يلتقطوا الشيء حتى يضعوا راحة يدهم فوقه ليخنقوه".
كان يتحدث بصوت سريع وبطرف شفتيه:
يبدو أنه محتار. وقال في الختام:
- أتساءل عما يريدونه. لقد أتى هذا الرجل. لماذا أرسلوه إلي؟ فإذا أرادوا أن يعرفوا ما أعمل، فليس عليهم سوى أني قرأوه على الشاشة، فليسوا بحاجة حتى للتحرك من أماكنهم. أنهم يرتكبون الأخطاء. لديهم القوة ولكنهم يرتكبون الأخطاء. أما أنا فلا أخطئ أبدًا، وهذا هو رصيدي. ثم قال: - هوفكا هوفكا. كان يحرك يديه المديتين أمام جبهته:
- العاهر! هوفكا بافكا سوفكا. هل تريدين أكثر من هذا؟
فسألته إيفا:
- هل هذا هو الجرس؟
وأردف بصراحة:
- نعم. أنها ذهبت.
- هذا الرجل متخلف. أنت تعرفينه، وذهبت معه إلى قاعة الاستقبال- ولم تجب.
فسأل بيار:

- ما كان يريد؟ لا بد وأن يكون قد قاله لك.
فترددت لحظة ثم أجابت بعنف:
- كان يريد أن نقفل عليك.
عندما تقال الحقيقة على مسمع بيار بهدوء، كان شديد الحذر، إذ يجب أن يضرب بالحقيقة بعنف كي تنشل شكوكه. كانت إيفا فضل أن تعنفه على أن تكذب عليه. فإذا كذبت وصدقها، لم تكن لتتمالك نفسها دون شعور بسيط بالتفوق عليه، يجعله تشمئز من نفسها.
وكرر بيار بسخرية:
- أن يقفل علي. أنهم يفقدون جادة الصواب. وما يمكن لهذا أن يصنع بي، بين الجدران؟ لعلهم يعتقدون بأن هذا يوقفني. أتساءل أحيانًا هل هناك عصابتان؟ الحقيقة هي تلك التي تنتسب للزنجي. ومن ثم عصابة مسودات تسعى لحشر أنفها في القضية فترتكب السخافة تلو السخافة.
ورقص يده على ذراع الكنبة ونظر إليها باغتباط ثم سأل بعد أن استدار نحو إيفا بفضول:
- الجدران، بالإمكان اختراقها. فماذا أجبته؟
- أنه لن يصار إلى إدخالك المأوى.
فهز كتفيه.
- لم يكن ينبغي أن تقولي هذا. أنت أيضًا ارتكبت غلطة إذا لم تكوني قد تعمدتها. ينبغي أن يستنفدوا لعبتهم.
وسكت. فأخفضت إيفا رأسها بحزن: "يقبضون عليهم!" فبأي لهجة احتقار قال هذا، وكم كان صحيحًا. "وهل أقبض أنا

أيضًا على الأشياء؟ مهما راقبت نفسي، أظن أن غالبية حركاتي تئذيه. ولكنه لا يفصح بذلك".

شعرت عندئذ بأنها بائسة، كما كانت عليه في سن الرابعة عشرة وأن السيدة داربدا المبيئة بالحيوية والخفة تقول لها:

"سيظن بأنك لا تدرين ما تفعليه بيديك".

لم تكن تتجرأ على القيام بأية حركة وفي تلك اللحظة تمامًا شعرت برغبة لا ترد بتغيير وضعها. وأعادت رجليها بهدوء إلى تحت الكرسي، وبدون أن تلامس السجادة. كانت تنظر إلى المصباح على الطاولة - المصباح الذي طلى بيار ركيزته بالأسود - ورقعة الشطرنج. على الرقعة لم يترك بيار سوى القطع السوداء. كان ينهض أحيانًا ويذهب إلى قرب الطاولة فيأخذ الجنود واحدًا واحدًا بين يديه. يحدثهم، يطلق عليهم اسم الأشخاص الآليين، فيبدون وكأن الحياة قد أسبغت عليها بين أنامله. وعندما يضع الجنود من يده، كانت إيفا تذهب لتلامسهم بدورها (كان يتهيأ لها أنها مضحكة): فعادت الجنود قطعًا من الخشب الميت، ولكن شيئًا ما مبهمًا لا يمكن التقاطه ظل يكسوها، شيئًا يشابه المعنى. وفكرت في نفسها: "أنها أشياؤه. لم يبق لي شيء في الغرفة". كانت تملك بعض الأثاث في السابق. كالمرآة والمنضدة التي أتتها من جدتها والتي كان بيار يسميها ممازحًا: منضدتك. لقد جر بيار الأشياء وراءه: وله وحده تظهر الأشياء وجهها الحقيقي. كان بإمكان إيفا أن تنظر إلى الأشياء طيلة ساعات، والأشياء تأبى إلا أن تبدئ سوى مظاهرها - كما هي الحال بالنسبة للدكتور فرانشو والسيد

داربدا. وقالت بنفس مؤلها القلق: "غير أني لا أرى الأشياء بمنظار أبي. فليس ممكنًا أن أستطيع رؤيتها كما يراها هو".

وحركت ركبتها قليلًا، قد تخدرت ساقها. كان وجهها جامدًا متقلصًا فهو يؤذيها، إذ تراه شديد الحيوية، غير كتوم:

"أود أن أظل غير مرئية وأبقى هنا. أراه بدون أن يراني. فليس بحاجة إلي، فأنا متطفلة في الغرفة". وأدارت رأسها قليلًا ونظرت إلى الجدار فوق رأس بيار. على الحائط كتبت التهديدات. وإيفا تعرف ذلك ولكنها لم تكن تستطيع أن تقرأها. غالبًا ما هي تنظر إلى الورود الكبيرة الحمراء على سجادة الحائط، حتى تتراقص أمامها تلك الورود. وتلتهب الورود في الظل. ويكون التهديد أكثر ما يكون مسجلًا قرب السقف، إلى اليسار فوق السرير، لكنه يتنقل في بعض الأحيان. "ينبغي أن أنهض. لا أستطيع - لا أستطيع أن أظل جالسة لوقت أطول". وعلى الجدار أيضًا إطارات بيضاء تشابه قطع البصل. وتدور الإطارات على نفسها فتأخذ يدا إيفا بارتجاف وتفكر بمرارة.

"هناك لحظات أصبح فيها مجنونة. ولكن لا، ليس بإمكاني أن أصبح مجنونة. بل تثور ثائرتي فقط".

وفجأة شعرت بيد بيار فوق يدها. ويقول بيار بحنو:

- أغاتا.

كان يبتسم لها لكنه يأخذ يدها بطرف أصابعه بنوع من النفور، وكأنه يلتقط سرطانا من ظهره يريد أ يتجنب ملاقطه. ويقول:

- آغاتا، أريد أن أثق بك كثيرًا.

وأغمضت إيفا عينيها وارتفع صدرها: "ينبغي ألا تجيب وإلا سيشعر بالتحدث فيمسك عن الكلام".

وأرخى بيار يدها وقال لها:

- أحبك كثيرًا يا أغاتا ولكن ليس بوسعي أن أفهمك. لماذا تظلين في الغرفة طيلة الوقت؟

ولم تجب إيفا.

ولم تجب إيفا.

- قولي لي لماذا.

فقالت بجفاف:

- أنت تعرف جيدًا بأني أحبك.

فيجيبها بيار:

- أنا لا أصدقك. فلماذا تحبينني؟ ينبغي أن أخيفك: فأنا مجنون. يبتسم ولكن سرعان ما يعود إلى رصانته:

- هناك جدار بيني وبينك. أراك، أكلمك، ولكن في الجهة الأخرى ما يحول دون حبنا وأحدنا الآخر؟ يبدو لي أن هذا كان أسهل في الماضي. في هامبورغ.

فتقول إيفا بحزن:

- نعم.

هامبورغ دائمًا. لم يكن يتحدث قط عن ماضيها الحقيقي. فلم يكونا يومًا في هامبورغ لا هو ولا إيفا.

- كنا نتنزه على طول الأقنية، وكان هناك قارب، فهل تتذكرين؟ والقارب أسود، وعلى الجسر كلب.

كان يخترع بمقدار. كان غائبًا عن الواقع.

- وأخذك بيدي، جلدك كان مختلفًا. وصدقت كل ما كنت تقولينه لي.

وصاح: "اسكتوا".

وأصغى هنيهة ثم قال بصوت حزين:

"ها هم قادمون".

فارتعدت إيفا:

- أنهم قادمون؟ ظننت أنهم لن يأتوا بعد إطلاقًا.

ثلاثة أيام، وبيار أكثر هدوءً من الماضي. فلم تأت إليه التماثيل. كان بيار يخاف خوفًا شديدًا من التماثيل ولم يتفق معها. أما إيفا فلم تكن تخشاها. ولكن ما أن يبدأوا بالطيران في الغرفة مهمهمين حتى تفزع هي أيضًا من بيار. ويقول بيار:

- أعطيني المجموعة.

وتنهض إيفا وتأخذ المجموعة: كانت مجموعة من قطع الورق المقوى ألصقها بيار بنفسه، ويستخدمها في طرد التماثيل، والمجموعة تشبه العنكبوت.

وعلى إحدى الأوراق كتب بيار: "قدرة على المكيدة" وعلى ورقة أخرى: "أسود". وعلى ورقة ثالثة رسم رأسًا ضاحكًا بعينين مجعدتين: كانت صورة فولتير.

وتناول بيار المجموعة بيده ونظر إليها بوجه معتم. وقال:

- لم يعد بإمكانها أن تخدمني.

- لماذا؟

لقد قلبوها.

- ستصنع مجموعة أخرى.

ونظر إليها طويلًا وقال من بين أسنانه:

- تريدينه كل الإرادة.

وثارت إيفا ضد بيار. في كل مرة يأتون فيها، يتلقى هو خبرًا، فكيف يتصرف: أنه لا يخطئ أبدًا.

كانت المجموعة تتدلى من طرف إصبع بيار. "أنه يجد دائمًا أسبابًا حقيقية لعدم استعمالها. ففي يوم الأحد عندما جاؤوا، ادعى بأنه أضاع المجموعة لكنني كنت أراها بنفسي وراء علبة التلزيق وليس ممكنًا ألا يراها. فأتساءل إن لم يكن هو الذي يجتذبهم". لم يكن بالإمكان أن نعرف إذا كان مخلصًا حقًا. ففي بعض اللحظات، كان يتهيأ لإيفا أن سيلًا من الأفكار والرؤى تغزو بيار. ولكن في لحظات أخرى، كان يبدو لها أن بيار يخترع. "أنه يتألم. ولكن إلى أي حد هو يؤمن بالتماثيل وبالزنجي؟ التماثيل على كل حال، أنا متأكدة من أنه لا يراها، فهو يسمعها فقط: فحين تمر يحول رأسه عنها، ويدعي مع ذلك بأنه يراها ويصفها". وتذكرت وجه الدكتور فرانشو المائل إلى الاحمرار: "ولكن، يا سيدتي العزيزة، إن جميع المجانين كاذبون، فستضيعين وقتك إذا أردت أن تميزي بين ما يشعرون به حقًا وبين ما يدعون الشعور به". وارتعدت:

"لماذا أتى فرانشو، لا أريد أن أفكر على غراره".

كان بيار قد نهض وذهب ليضع المجموعة في سلة الأوراق، وتمتمت: "مثلك أريد أن أفكر" كان يمشي بخطى ضئيلة، على رؤوس أصابعه، لكي يحتل أقل مكان ممكن. وعاد إلى الجلوس ونظر إلى إيفا بوجه مطبق وقال:

- ينبغي وضع سجادات سوداء فوق الجدران، فليس في هذه الغرفة ما يكفي من السواد.

كان قد ارتاح في الكنبة ونظرت إيفا بحزن إلى هذا الجسد الشحيح، المستعد دائمًا للانسحاب والانكفاء على نفسه: فذراعاه، وساقاه، ورأسه كانت تبدو كأعضاء قابلة للانكماش. ودقت الساعة السادسة على الجدار، وسكت صوت البيانو. وتنهدت إيفا: لن تأتي التماثيل في الحال، كان ينبغي انتظارها.

"هل تريد أن أشعل النور".

كانت تفضل ألا تنتظر التماثيل في الظلام.

فقال بيار:

- افعلي ما شئت.

وأشعلت إيفا مصباح المكتب الصغير، فاجتاح الغرفة ضباب أحمر. كان بيار ينتظر أيضًا.

لم يكن يتحدث بل أن شفتيه بتحركهما ترسمان بقعتين مظلمتين في الضباب الأحمر. أنها تحب شفتي بيار. فقد كانتا في الماضي مثيرتين مغيرتين. لكنهما أضاعتا الإغراء. إذ تنفصل واحدتهما عن الأخرى بارتعاش قليل ثم تعود للالتحام مع رفيقتها، فتنسحق واحدتهما على الأخرى لتعودا فتنفصلان من جديد. فهما تعيشان وحيدتين في هذا الوجه المسور، وكأنهما حيوانان وجلان. كان بإمكان بيار أن يجعل شفتيه ترقصان طيلة ساعات بدون أن يخرج من فمه أي صوت، ولطالما انبهرت ايفا بتلك الحركة المستمرة. "أحب فمه". لم يعد يقبلها أبدًا. إذ بات يخشى الملامسة. في الليل كان يلامس؛ أيدي رجال قاسية جافة تلتقطه في أنحاء جسمه. وأيدي نساء ذات أظافر طويلة تقوم بدغدغته بقذارة. غالبًا ما ينام بثيابه، لكن يديه تنزلقان تحت ثيابه وتشدان على قميصه.

مرة، سمع ضحكة؛ شفتان منتفختان تلتصقان بشفتيه. منذ تلك الليلة انقطع عن تقبيل إيفا.

وقال بيار:

- أغاتا، لا تنظري إلى فمي!

وأخفضت إيفا عينيها.

وتابع بوقاحة:

- أنا لا أجهل أن بالإمكان تعلم القراءة على الشفتين.

كانت يده ترتجف على ذراع الكنبة. ومد سبابته ونقر على الإبهام ثلاث مرات وتشنجت الأصابع الأخرى: كانت عملية مطاردة. وفكرت في نفسها: "سيبتدئ الأمر". كان بودها أن تأخذ بيار بين ذراعيها.

بدأ بيار بالكلام بصوت عال وبلهجة لائقة:

- هل تذكرين سان بولي؟

لا إجابة. لعل هذا فخ.

وقال بوجه مسرور:

- هناك عرفتك. اختطفتك من بحار دانمركي. كدنا نتقاتل، لكنني دفعت ثمن الرحلة وتركني في صحبتك. كل ذلك لم يكن إلا مهزلة.

"أنه يكذب، أنه لا يعتقد بأية حكمة يقولها. يعرف أني لا أدعي أغاتا. أني أكره حين ذكب". لكنها رأت عينيه الجامدتين وتبدد غضبها. وفكرت في نفسها: "أنه لا يكذب، أنه متعب. يحس بأنهم يقتربون. ويتحدث كيلا يسمع". وتعلق بيار بكلتا يديه بذراع الكنبة. كان وجهه شاحبًا، ويبتسم. وقال:

- هـذه اللقـاءات غريبـة أكثـر الأحيـان، لكنـي لا أؤمـن بالصدفة. أنا لا أسألك عمن أرسلك، فأنا أعرف أنك لن تجيبي. لقد كنت على كل حال لبقة إلى حد أنك لطختني".

كان يتحدث بعياء، وبصوت حاد مضغوط. فهناك كلمات لم يستطع أن يلفظها فتخرج من فمه كمادة رخوة لا شكل لها.

"لقد جذبتني في غمرة العيد، في ميادين السيارات السوداء، ولكن رواء السيارات جيشًا من العيون الحمراء التي كانت تبرق عندما أدير ظهري. أظن أنك كنت تعطيهم الإشارات، وأنت تتعلقين بذراعي، لكنني لم أر شيئًا. كنت مأخوذًا جدًا باحتفالات التتويج الكبرى".

كان ينظر قبالته جاحظ العينين. ومر بيده على جنبيه بسرعة فائقة وبحركة رشيقة وبدون أن يكف عن الكلام: لم يكن يريد الكف عن الكلام. وقال بصوت حاد:

- كانت حفلة تتويج الجمهورية، مشهد مثير في نوعه بسبب الحيوانات المختلفة الأجناس التي أرسلتها المستعمرات من أجل الاحتفال. وخفت أن تضيعي بين القردة.

وتابع بصوت ملؤه الغطرسة وهو ينظر حوله:

- قلت بين القردة. وبإمكاني أن أقول بين الزنوج؟ فالحيوانات الجهيضة التي تزحف تحت الرمال وتظن أنها ستمضي بغير أن يراها أحد يكتشفها "نظري" ويقضي عليها في الحال. وصاح:

- الأمر هو السكوت. الجميع في مكانهم يتأهبون لدخول التماثيل، هذا أمر.

ترا لا لا - كان يعوي ويضع يديه معًا أمام فمه - ترا لا لا. ترا لا لا.

وسكت، وعلمت إيفا أن التماثيل قد دخلت الغرفة. فجلس جامدًا شاحبًا باحتقار. وجمدت إيفا هي الأخرى وانتظر الاثنان بصمت. كان أحد لأشخاص يمشي في الممر. أنها ماري، الخادمة، ها هي تصل بلا شك. وفكرت في نفسها: "ينبغي أن أعطيها دراهم للغاز". ومن ثم بدأت التماثيل تطير، فتمر ما بين إيفا وبيار.

وقال بيار: "هان"، وتكور في كنبته مخبئًا ساقيه تحته. وحول رأسه. كان يهذر من وقت لآخر لكن نقاطًا من العرق تتلألأ على جنبيه. لم تستطع إيفا أن تحتمل هذا الخد الشاحب، وهذا الفم الذي يشوهه تحريكه شذرًا. وأغمضت عينيها. بدأت خيوط مذهبة تتراقص في قعر جفنيها. وأحست بأنها عجوز كبيرة الوزن. وعلى مسافة غير بعيدة، كان بيار ينفخ بجلبة. "أنهم يطيرون، يهدرون، ينحنون فوقه ..." وشعرت بدغدغة خفيفة، وبانزعاج في الكتف والخاصرة اليمنى. وبحركة غريزية انحنى جسمها نحو اليسار كما لو أنها تتجنب ملامسة مزعجة، أو كأنها تفسح المجال لشيء ثقيل أخرق. وفجأة قرقع السقف، وأحست برغبة مجنونة لفتح عينيها، والنظر إلى يمينها وهي تكنس الهواء بيدها.

ولم تفعل شيئًا. بل أبقت على عينيها مغمضتين وارتعشت في سرور جاف. وفكرت في نفسها: "أنا أيضًا أخاف". وانحنت نحو بيار، بدون أن تفتح عينيها. إذ بكفيها مجهود بسيط حتى تدخل في هذا العالم الرهيب لأول مرة.

وفكرت في نفسها: "أنا أخشى التماثيل". كان تأكيدًا عنيفًا أعمى، أو سخرًا: أرادت بكل قواها أن تشعر بوجودهم. والقلق الذي يشل جهتها اليمنى، حاولت أن تجعل منه نوعًا من اللمس. وفي ذراعها، وفي خاصرتها، وفي كتفها، شعرت بمرورهم.

كانت التماثيل تطير على علو ضئيل، وتهدر. وإيفا تعلم أن تلك التماثيل خبيثة ولكنها أساءت تصورها. وتعلم أيضًا أنها لم تكن حية تمامًا، بل أن قطعًا من اللحم والقشر تظهر على أجسامها الضخمة. وعلى طرف أناملها كان الحجر يتقشر، وراحات أيديها تأكلها. لم تكن إيفا تستطيع أن ترى كل هذا: فهي تفكر فقط أن نساء شديدات الضخامة ينزلقن عليها بعين إنسانية "ها هي التماثيل تنحني فوق بيار" وبذلت إيفا مجهودًا عنيفًا إلى حد أن يديها أخذتا ترتعشان. "أنها (التماثيل) تنحني فوقي". وجمدها في النهاية صوت رهيب. "لقد لامسوه". وفتحت عينيها: كان بيار يضع رأسه بين يديهن وهو شديد الإعياء. وأحست إيفا بأنها منهكة، وفكرت بندم: "أنها لعبة. لم تكن سوى لعبة، لم اؤمن بها ولو لحظة واحدة. كانت تتألم طيلة هذا الوقت، كم لو أنها صحيحة".

وارتاح بيار وتنهد بقوة. ولكن حدقتيه ظلتا ممددتين بشكل غريب، كان العرق يتصبب منه. وسأل:

- هل رأيتها؟

- ليس بإمكاني أن أراها.

فقال:

- هذا أفضل بالنسبة إليك. أما أنا فقد تعودت.

كانت يدا إيفا لا تزالان ترتجفان، ودمها يتصاعد إلى الرأس. وتناول بيار سيكارة من جيبه ورفعها إلى فمه. لكنه لم يشعلها وقال:

- لا فرق عندي إذا رأيتها. ولكن لا أريد أن تلامسني: أخشى أن تنبت لي بثورًا.

وفكر لحظة ثم سأل:

- وهل سمعتها؟

فقالت إيفا:

- نعم، أنها كمحرك الطائرة (قالها لها بيار بنفس العبارة يوم الأحد الماضي).

وابتسم بيار بنوع من التنازل وقال:

- إنك تبالغين. لكنه ظل شاحب الوجه. وتطلع إلى يدي إيفا: "يداك ترتجفان. لقد أثر هذا في نفسك يا أغاتا المسكينة. ولكن لا حاجة لك لإفساد دمك: فلن تعود قبل الغد (التماثيل)".

لم تككن تستطيع الكلام، أن أسنانها تصطك وتخشى أن يلاحظ بيار ذلك. ونظر إليها بيار طويلًا. وقال وهو يومئ برأسه:

"أنت جميلة بقوة، يا للخسارة. يا للخسارة حقًا."

ومد يده ولامس أذنها بسرعة.

- يا شيطانتي الجميلة! إنك تزعجينني قليلًا، أنت جميلة جدًا: وهذا ما يسليني. إذا لم يكن الأمر استعادة..."

وتوقف ثم نظر إلى إيفا بدهشة وقال بوجه غامض:

- ليس بهذه الكلمة ... ها قد أتت .. ها قد أتت. كانت عندي الكلمة الأخرى على رأس لساني ... وتلك ... حلت في مكانها. ونسيت ما كنت أقوله لك.

وفكر لحظة ثم هز رأسه وقال:

- هلمي، أريد أن أنام، وأجاب بصوت كصوت الطفل: "هل تعرفين يا أغاتا، أنا متعب. لم أعد أجد أفكاري".

ورمى سيكارته ونظر إلى السجادة بوجه مضطرب. ووضعت أيضًا له مخدة تحت رأسه.

فقال لها وهو يغمض عينيه:

- بإمكانك أن تنامي أيضًا، فلن تعود.

"استعادة". كان بيار نائمًا، على وجهه نصف ابتسامة ساذجة. يحني رأسه: يقال أنه يريد أن يجعل خده يلامس كتفه. لم تكن أيفا راغبة في النوم، كانت تفكر: "استعادة". واتخذ بيار فجأة شكلًا حيوانيًا وسالت الكلمة خارج فمه طويلة مائلة للبياض. كان قد تطلع أمامه بدهشة كما لو أنه يرى الكلمة ولا يتعرف عليها. فمه مفتوح رخو فكأن شيئًا قد تحطم فيه. "لقد دندن بسرعة. هي المرة الأولى التي يحصل له فيها أمر كهذا وقد انتبه لذلك على كل حال. قال أنه لم يعد يجد أفكارًا". أرسل بيار زفرة شهوانية، وقامت يده بحركة خفيفة. نظرت إليه إيفا بقساوة: "كيف سيستيقظ؟" كان هذا يعذبها. فما أن ينام بيار حتى تضطر للتفكير به، وليس بإمكانها أن تحول دون ذلك. أنها تخشى أن يستيقظ بعينين مضطربتين وأن يدندن. وفكرت في نفسها: "أنا بلهاء، لن يبدأ الأمر قبل سنة هكذا قال فرانشو". لكن القلق لم يغادرها؛ عام؛ فشتاء، فربيع، فصيف فبداية

خريف آخر. ذات يوم، ستتشوه هذه الملامح، سيتهدل فكه، وسيفتح عينيه الدامعتين قليلًا. وانحنت إيفا على يد بيار ووضعت شفتيها فوقها: "سأقتلك قبل أن يتم ذلك".

obeikandl.com

البشر ينبغي أن نراهم من فوق. كنت أطفئ النور واجلس في النافذة: لم يكونوا ليشتبهوا بأن أحدًا ينظر إليهم من فوق. هم يعتنون أحيانًا بالجهة، وبالجهات الخلفية، ولكن جميع تأثراتهم كانت محسوبة بعين المشاهدين من قياس مائة وسبعين. فمن فكر إذا بشكل القبعة الصفراء، كما تبدو من الطابق العاشر؟ أنهم يهملون الدفاع عن أكتافهم وجماجمهم تحت الألوان الفاقعة والأقمشة البارزة اللون، ليس بإمكانهم أن يقضوا على كل هذا العدد الكبير للإنسانية: التطلع من فوق. وانحنيت وأخذت أضحك: أين هي تلك "المحطة الواقفة" التي فخروا بها: كانوا ينسحقون على الرصيف وتخرج من بين أرجلهم سيقان طويلة تزحف تحت أكتافهم.

في شرفة الطابق السادس: هناك كان ينبغي أن أقضي كل حياتي. كما ينبغي أن نسند مجالات التفوق المعنوي بشعارات رمزية، لأنها ستسقط بدون ذلك. إذا، ما هي بالضبط مجالات تفوقي على البشر؟ تفوق في الوضعية ليس إلا: وضعت نفسي فوق الإنسان، الذي هو في داخلي وأصبحت أتفرج عليه. لهذا كنت أحب أبراج نوتر دام، وسطحيات برج إيفل، والقلب الأقدس، وطابقي السادس في شارع دلامبر. أنها رموز رائعة.

كان ينبغي في بعض الأحيان النزول إلى الشوارع. للذهاب إلى المكتب مثلًا. كنت أختنق. عندما نمضي مع البشر، فمن الصعب كثيرًا أن نعتبرهم كالنمل: أنهم "مؤثرون". مرة، شاهدت شخصًا ميتًا في الشارع. سقط على أنفه. قلبوهن فرأوا

الدماء تنزف منه. ورأيت عينيه المفتوحتين ووجهه الدميم، وكل هذا الدم، وقلت في نفسي: "ليس هذا بذي شأن، فليس أكثر تأثيرًا من الدهان الجديد. لطخوا أنفه بالأحمر، هذا كل شيء". لكنني أحسست بعذوبة قذرة تتسرب إلى رجلي ورقبتي، فأغمي علي. اقتادوني إلى صيدلية، ووضعوا لزقات على كتفي وسقوني كحولًا. كنت سأقتلهم. أعرف أنهم أعدائي، ولكنهم لا يعرفون ذلك. كانوا يحبون بعضهم، ويشدون على مرافق بعضهم البعض. لعلهم ضربوني بقبضة يد من هنا وهناك لأنهم ظنوا بأني شبيه لهم. غير أنهم لو أدركوا أقل جزء من الحقيقة، لقضوا علي. ولقد قضوا علي فيما بعد على كل حال. عندما ألقوا القبض علي وعرفوا من أنا، ضربوني لمدة ساعتين في دائرة الشرطة، وصفعوني ولكموني، وجعلوا ذراعي تلتوي، وانتزعوا سروالي، ومن ثم ولكي ينتهوا رموا بنظارتي على الأرض، ولما هممت بتناولها على أربع، أمعنوا بركلي من الخلف ضاحكين. توقعت دائمًا أنهم سينتهون إلى القضاء علي: أنا لست قويًا وليس بإمكاني أن أدافع عن نفسي. كثيرون كانوا يتربصون بي منذ وقت طويل: الكبار. يدفعونني في الشوارع ليضحكوا أو ليروا ما سأقوم به، لم أقل شيئًا. وتظاهرت بعدم الفهم. ومع ذلك نالوا مني. كنت أخشاهم: وهذا شعور مسبق. وكلكم تعتقدون تمام الاعتقاد أن لدي أسبابًا أخرى تدفعني إلى أن أكرههم.

من هذه الجهة، سار كل شيء على ما يرام بعد أن اشتريت مسدسًا. يحس المرء بقوته عندما يحمل باستمرار شيئًا من تلك الأشياء التي تنفجر أو تحدث ضجة. كنت أخذه يوم الأحد،

وأضعه في جيب سروالي ثم أذهب لأتنزه - عادة في الشوارع العريضة. فأحس به ينطلق من جيب سروالي كالسرطان، وأشعر به يضغط على فخذي، ببرود كلي. لكنه يسخن شيئًا فشيئًا باحتكاكه بجسدي. ومشيت بنوع من الجمود، مشية الشخص الذي يشد سرواله دائمًا. ومددت يدي إلى جيبي وتحسست "الغرض". كنت أدخل من وقت لآخر إلى المرحاض - وحتى في المرحاض كنت أتنبه فغالبًا ما يكون بجواري أحد من الناس. كنت أخرج مسدسي وأروزه، وأتطلع إلى قبضته ذات المربعات السوداء وزناده الأسود الذي يشبه جفنًا شبه مغمض. والآخرون، أولئك الذين يرون من الخارج، رجلي المتباعدتين وقعر سروالي، كانوا يظنون أني أبول. ولكنني لا أبول أبدًا في المراحيض العامة.

ذات مساء أتتني فكرة إطلاق النار على البشر. كان ذلك في يوم السبت مساء، خرجت لكي أبحث عن ليا، وهي شقراء تداوم على الوقوف أمام أحد الفنادق في مونبارناس. لم أكن قد أقمت علاقات وثيقة بامرأة قط: فأحسست بأنني سرقت. صحيح أننا نعتليهن، ولكنهن يفترسن أسفل بطنك بفمهم الواسع المكسو بالشعر. فهن إذا على ما سمعت، اللائي يربحن من هذه المبادلة. أنا لا أطلب شيئًا إلى أي إنسان، غير أني لا أريد أن أعطي شيئًا. أو أنه ينبغي أن تكون لي امرأة باردة تقية تتقبلني باشمئزاز. في أول سبت من كل شهر كنت أصعد مع ليا إلى غرفة في فندق دوكان. كانت تخلع ثيابها، فأنظر إليها بدون أن ألامسها. في بعض الأحيان كنت أبلغ ذروة اللذة في سروالي، وأحيانًا أخرى كان لدي الوقت الكافي للعودة إلى منزلي حتى

أنتهي هذا المساء، لم أجدها في مكتبها. وانتظرت لحظة، ولما لم تأت، افترضت أنها مصابة بالزكام. كان الوقت في بداية كانون الثاني والطقس شديد البرودة، حزنت كثيرًا: فأنا خيالي، وتمثلت اللذة التي توقعت أن اجتلبها في تلك الأمسية. في شارع أوديسا تقف إحدى السمراوات، وكنت قد لاحظت وجودها في أكثر الأحيان، إنها شديدة النضوج، لكنها صلبة وثمينة. أنا لا أكره النساء الناضجات: لكنهن عاريات، أو أنهم يبدين كذلك فوق اللزوم. غير أنها لم تكن تدري شيئًا عني، وهذا ما كان يجعلني أخجل منها. ثم أني أحذر المعلومات الجديدة: إذ إن بإمكان أولئك النسوة أن يخبئن لصًا وراء الباب، لا يلبث أن يستولي على دراهمك. هذا إذا لم يرسل لك اللكمات. غير أن شيئًا ما كان يأخذني في تلك الأمسية فقررت أن أمر بمنزلي لأخذ المسدس وأقوم بالمغامرة.

لما دخلت على المرأة، وبعدها بربع ساعة، كان مسدسي لا يزال في جيبي، ولم أخش شيئًا. والناظر إليها من قريب يدرك أنها أقرب إلى البؤس. أنها تشبه جارتي في البيت المقابل، أي زوجة نائب الضابط، سررت لذلك لأني تمنيت منذ وقت طويل أن أراها عارية. كانت ترتدي ثيابها والنافذة مفتوحة في غياب نائب الضابط، وكنت أبقى وراء الستار كي أباغتها. لكنها تقوم بزينتها في قعر الغرفة.

في فندق ستيلا لم يبق سوى غرفة فارغة. وصعدنا. كانت الامرأة ثقيلة تتوقف عند كل درجة، لتتنفس وكنت مرتاحًا جدًا: لأن جسمي جاف رغم بطني الدافق، إذ يلزمني أربعة طوابق لأتعب كثيرًا. على درج الطابق الرابع توقفت ووضعت يدها

اليمنى على قلبها وتنهدت بقوة. بيدها اليسرى كانت تحمل مفتاح غرفتها. وقالت محاولة أن تبتسم لي: "المكان شاهق". أخذت المفتاح من يدها بدون أن أجيب وفتحت الباب. كنت أحمل مسدسي بيسراي، مصوبًا إلى الأمام في جيبي، ولم أتركه إلا بعد أن أضأت النور. الغرفة خاوية. وعلى المغسلة وضعوا مربعًا صغيرًا من الصابون الأخضر. وابتسمت: لم تكن قطعة الصابون مفيدة بالنسبة إلي. لا تزال المرأة تلهث ورائي وهذا ما يهيجني. واستدرت، فمدت لي شفتيها. فدفعتها عني وقلت لها:

- اخلعي ثيابك.

كانت هناك كنبة عليها طنافس فجلست عليها مرتاحًا.

في مثل تلك الأحوال لا أقدم على التدخين. وخلعت الامرأة فستانها ثم توقفت وهي تنظر إلي نظرة حذرة.

وسألتها وأنا أرتمي إلى الوراء:

- ما اسمك؟

- رينيه.

- حسنًا، عجلي يا رينه، أني أنتظر.

- ألا تتعرى؟

فقلت لها:

- اذهبي، اذهبي، لا تهتمي بي.

وأنزلت سروالها حتى رجليها ثم التقطته ووضعته بعناية فوق فستانها إلى جانب صدريتها.

وسألتني:

- إنك مذنب صغير، يا عزيزي، وكسول صغير. هل تريد أن تقوم امرأتك الصغيرة بالعمل كله؟

وفي نفس الوقت، اقتربت مني خطوة، وحاولت، وهي تسند يديها على جانبي الكنبة، أن تركع بين فخذي. غير أني رفعتها بقساوة. وقلت:

- لا أريد شيئًا من هذا، لا أريد شيئًا من هذا.

فنظرت إليّ بدهشة:

- ماذا تريد أن أفعل لك؟

- لا شيء، أمشي، تنقلي، لا أطلب منك أكثر من ذلك.

وبدأت تسير عرضًا وطولًا، بوجه العاجز. لا شيء يزعج النساء قدر مسيرهن عاريات. فلم يألفن إهمال الكعب العالي. وقوست البغي ظهرها وجعلت ذراعيها يتهدلان. أما أنا، فكنت مع الملائكة: أجلس بهدوء، مرتديًا ملابسي حتى العنق، ولا أزال واضعًا قفازي، بينما راحت تلك المرأة الناضجة تدور قبالتي، عارية.

وأدارت رأسها نحوي، وابتسمت لي بغنج لإنقاذ المظاهر.

- هل تجدني جميلة؟ هل تفرك عينك؟

- لا تهتمي بهذا.

فسألتني بغضب مباغت:

- قل، أتريد أن تجعلني أمشي كثيرًا هكذا؟

- اجلسي.

جلست على السرير، وبدأنا نتبادل النظر بصمت. أقشعر بدنها. وسمعنا صوت الساعة الكبيرة من جانب الجدار الآخر، وفجأة قلت لها:

- باعدي بين فخذيك.
فتـرددت لربـع ثانيـة ثـم انصـاعت. فنظـرت بـين فخـذيها وشخرت. ثم بدأت أضحك بقوة حتى سالت الدموع من عيني. وقلت لها ببساطة.
- هل لاحظت؟
وتابعت الضحك.
فنظرت إليّ مشدوهة ثم احمرت كثيرًا وضمت فخذيها.
وقالت من بين أسنانها.
- يا للقذر.
لكننـي استرسـلت بالضـحك، عنـدها قفـزت وراحـت تأخـذ صدريتها عن الكرسي.
فقلت لها:
- هه، لم أنته بعد. سأنقدك خمسين فرنكًا في الحال، لكني أريد مقابل دراهمي.
وتناولت سروالها بعصبية.
- ضـقت ذرعًـا، هل تفهم. لا أعـرف مـاذا تريـد. وإذا كنـت جعلتني أصعد لتهزأ مني ...
عندها أخرجت مسدسي وأبديته لها.
فتطلعت إلي بوجه رصين وأنزلت سروالها بدون أن تنبس بشفة.
فقلت لها:
- امشي، تنقلي.

وتمشت خمس دقائق. ثم أعطيتها عصاي وجعلتها تقوم بالتمرين. ولما شعرت بأن سروالي تبلل، نهضت وناولتها ورقة الخمسين فرنكًا فأخذتها.

وأضفت:

- إلى اللقاء، عساي لم أتعبك مقابل هذا الثمن.

وذهبت، وتركتها عارية وسط الغرفة، صدريتها بيد، وورقة الخمسين فرنكًا في اليد الأخرى. لم آسف على دراهمي: لقد أفزعتها وهذا ليس عجيبًا أنها بغي. وفكرت وأنا أنزل الدرج:

- هذا كل ما أردته، أن أدهشهم جميعًا. كنت جذلًا كالطفل. وحملت الصابون وعدت إلى بيتي وفركته كثيرًا تحت الماء الساخن حتى تحول إلى قطعة رقيقة بين أصابعي تشبه حبة الملبس بالنعناع إذا وقعت في الفم وقتًا طويلًا.

ولكن في الليل، استيقظت مذعورًا، ورأيت عينيها، تينك النظرتين اللتين رسمتهما لما شهرت سلاحي، وكذلك بطنها السمين الذي كان يقفز عند كل خطوة.

وقلت في نفسي: "كم كنت متوحشًا". وأحسست بندم أليم: كان علي أن أطلق النار عندئذ، أن أبقر هذا البطن. في تلك الليلة، ولثلاث ليال متتابعة حلمت بستة ثقوب حمراء بشكل دائرة.

بعد ذلك لم أعد أخرج بدون مسدسي. كنت أنظر إلى ظهور الناس وأتصور كيف سيسقطون فيما لو أطلقت النار. يوم الأحد، تعودت على الذهاب إلى أمام الشاتليه، عند انتهاء حفلات الموسيقى الكلاسيكية. وفي الساعة السادسة، كنت أسمع

رنين جرس فتأتي الحاجبات لإقفال الأبواب المزججة بإحكام. أنها البداية: الجمهور يخرج على مهل، والناس يسيرون بخطى متهدجة، أعينهم لا تزال الأحلام تغمرها، وقلوبهم مفعمة بالعواطف. كثيرون منهم كانوا يتطلعون حولهم بوجه مدهوش. لقد بدا لهم الشارع كلي الزرقة. عندها، كانوا يبتسمون بغرابة: إذ ينتقلون من عالم إلى آخر. وفي العالم الآخر كنت أنا بانتظارهم. وضعت يدي اليمنى في جيبي وضغطت بكل قواي على قبضة مسدسي. وما هي إلا هنيهة، حتى رأيتني أطلق النار فوق رؤوسهم. جندلتهم كمجموعة من الغلايين، فأخذوا يتساقطون بعضهم فوق بعض، والذين ظلوا على قيد الحياة استبد بهم الذعر، ففروا إلى المسرح يحطمون الزجاج والأبواب. كانت لعبة شديدة الإزعاج: فيداي كانتا ترتجفان، كما ألفيتني مرغمًا على احتساء الكونياك عند دراهير لأعود إلى صوابي.

النساء لم أقتلهن، بل أطلقت النار على كلياتهن وفي مؤخراتهن لأدفعهن إلى الرقص.

لم أكن قد صممت على شيء ولكنني ارتأيت أن أفعل كل شيء، كما لو أن قراري توقف. وذهبت لأتمرن في معرض (دانفر روشرو). كانت الأهداف واسعة. وأخيرًا بت أهتم بدعايتي. اخترت يومًا كان فيه جميع أقرأني مجتمعين في المكتب. صباح يوم اثنين. كنت لطيفًا جدًا معهم رغم أني أجد رهبة في مصافحتهم.

كانوا ينزعون قفازاتهم ليصافحوا الناس، ولهم طريقة خاصة في تعرية أيديهم. أما أنا فكنت أحتفظ بقفازي.

صباح الاثنين، ليس هناك من شيء مهم يجب عمله. فقد أتت الضاربة على الآلة الكاتبة بالأوراق. ومازحها لومارسييه بلطف وما إن خرجت حتى تحدثوا عن صفاتها بلباقة. ثم تحدثوا عن لندبرغ. كانوا يحبون لندبروغ كثيرًا. فقلت لهم:

- أنا أحب الأبطال السود.

فسأل ماسيه:

- الزنوج؟

- كلا. الزنوج، كما يقال السحر الأسود. ولندبرغ هو بطل أبيض. فهو لا يهمني.

وقال بوكسان بخشونة:

- اذهبوا وانظروا إذا كان عبور الأطلسي ممكنًا.

وعرضت لهم مفهومي عن البطل الأسود.

وقال لومارسييه مختصرًا:

- أنه فوضوي.

فقلت بهدوء:

- كلا، إن الفوضويين يحبون الرجال على طريقتهم الخاصة.

- إذا فهو مجنون.

ولكن ماسيه الذي كانت بين يديه رسائل، تدخل في تلك اللحظة وقال لي:

- أني أعرفه صاحبك، واسمه اروسترات. كان يريد أن يصبح عظيمًا ولم يجد شيئًا أفضل من إحراق هيكل إيفاز، إحدى عجائب الدنيا السبع.

- وما كان اسم مهندس الهيكل؟

فاعترف قائلًا:
- لم أعد أتذكر، بل أعتقد بأن لا أحد يعرف اسمه.
- حقًا؟ وتتذكر اسم اروسترات؟ هل ترى أنه لم يجر حسابًا خاطئًا.

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات، لكنني كنت مطمئنًا، فسيذكرونها في اللحظة المناسبة. أما بالنسبة لي، ولم أكن حتى ذلك الحين، قد سمعت بإروسترات، فشجعتني تلك الحادثة. ها قد مضى ألفا سنة على وفاته، وفعلته لا تزال تشع، كالماسة السوداء. وبدأت أعتقد بأن مصيري سيكون قصيرًا مؤلمًا. وهذا ما جعلني أخاف في البداية، ثم ألفت ذلك. فإذا اعتبر هذا الأمر من زاوية معينة، فهو شديد العنف، لكنه، من جهة ثانية، يعطي قوة وجمالًا لا يستهان بهما. وعندما نزلت إلى الشارع، أحسست أن في جسمي قوة غريبة. كنت أحمل مسدسي، ذلك الشيء الذي ينفجر ويحدث ضجيجًا. لكنني لم أعد أخذ ضمانتي منه، بل من نفسي! فأنا كائن من نوع المسدسات والمفرقعات والقنابل. ذات يوم وفي نهاية حياتي القاتمة، سأنفجر وأضئ العالم بلهيب ساطع قصير، كبريق المانييزيوم. وحدث لي في نفس الحقبة أن رأيت نفس الحلم في عدة ليال. كنت فوضويًا، وألقيت بنفسي في طريق القيصر وحملت معي آلة خبيثة. وفي الساعة المحددة، مر الموكب وانفجرت القنبلة في الهواء، أنا والقيصر والضباط الثلاثة الموشون بالذهب، تحت أعين الجمهور.

بقيت أسابيع كاملة أداوم في المكتب. كنت أتنزه في الشوارع الكبيرة، وسط ضحاياي في المستقبل، أو كنت أنعزل

في غرفتي وأعد الخطط. طردوني في بداية تشرين الأول. فملأت فراغي إذ سجلت الرسالة الآتية، وجعلتها في مائة ونسختين.

أيها السيد

أنت شهير، تطبع مؤلفاتك على ثلاثين ألف نسخة. سأقول لك لماذا: لأنك تحب البشر. إنك تتفتح عندما تكون بصحبة أحد: الإنسانية تجري في دمك. فما أن ترى واحدًا من أشباهك وحتى بدون أن تعرفه تشعر بعطف نحوه. وأنت تميل لمشاهدة جسمه، من أجل الشكل الذي يتحرك فيه، ومن أجل رجليه اللتين تنفرجان وتنضمان تبعًا لأرادته، ولا سيما ليديه: إذ يعجبك أن تكون له خمس أصابع، وأن يستطيع مقابلة الإبهام بسائر أصابعه. تسر كثيرًا عندما يتناول جارك كأسًا عن الطاولة، لأن هناك طريقة وصفتها لي أكثر الأحيان في مؤلفاتك، وهي أقل مرونة وسرعة من طريقة القرد. ولكن أليس أنها أكثر ذكاء؟ أنت تحب أيضًا لحم الإنسان، وهيئته في مشيته، ونظرته التي لا تستطيع الوحوش احتمالها. يسهل عليك إذا أن تجد اللهجة الملائمة لتحدث الإنسان عن نفسه: لهجة محتشمة لكنها مشتتة. ويرتمي الناس على كتبك بنهم، يقرؤونها على مقاعد وثيرة، ويفكرون بالحب التعيس والخفي الذي تخبئه لهم، وهذا ما يعزيهم عن البشاعة والجبن أو عدم تلقي زيادة في أول كانون الثاني. ويقولون مختارين عن روايتك الأخيرة: أنها عمل جيد.

كما افترض بأنه يهمك أن تعرف ما يمكن أن يكون الإنسان الذي لا يحب البشر. أنه أنا، أحبهم حبًا ضئيلًا جدًا حتى أنني

أريد أن أقتل منهم نصف دزينة فقط؟ لأن في مسدسي ست رصاصات فقط. أنه لعمل إجرامي أليس كذلك؟ وهو بالأخص عمل غير سياسي إطلاقًا؟ ولكنني أقول لك أن ليس بإمكاني أن أحبهم. أنا أفهم تمامًا ما تشعر به. لكن ما يجذبك إليهم يثير اشمئزازي رأيت مثلك البشر يمضغون العلكة بمقدار، محافظين على نظرتهم الوقحة، وهم يقلبون باليد اليسرى مجلة اقتصادية. هل هي غلطتي إذا كنت أفضل حضور وليمة الحيوانات القطبية؟ ليس بإمكان الإنسان أن يفعل شيئًا لوجهه بدون أن يتحول هذا إلى تلاعب في ملامحه. وعندما يمضغ وهو مطبق فمه، فترتفع زوايا فمه وتنخفض، يبدو أنه يريد الانتقال بلا تأخر من الصفاء إلى المفاجأة المبكية. أنت تحب هذا، وأنا أعرف ذلك، فأنت تسميه نباهة الروح. لكن هذا يقتلني. ولا أدري لماذا خلقت هكذا.

فإذا لم يكن بيننا سوى فارق في الذوق، فلن أتعبك. لكن كل شيء يجري كما لو أن لك الرحمة، وأنا لا ألوي على شيء. أنا حر في أن أحب الطبق الأميركي أو ألا أحبه، ولكنني لا أحب البشر، أنا بائس وليس بإمكاني أن أجد مكانا تحت الشمس. لقد أرهقوا معنى الحياة. آمل أن تفهم ما أريد أن أقوله. ها قد مرت ثلاثون سنة وأنا اصطدم بأبواب مغلقة كتب فوقها: "لا يدخل أحد ما لم يكن إنساني النزعة". وكل ما فعلته هو أنني هجرت المكان. كان ينبغي أن أختار: إما أنها كانت محاولة مجنونة، أو أنها ينبغي أن تنقلب لمصلحتهم. والأفكار التي لم أكرسها لهم، ليس بإمكاني أن أنتزعها من نفسي، وأن أصوغها: فستظل في كحركات عضوية خفيفة. والأدوات التي كنت أستعملها، أحس

بأنها لهم. الكلمات مثلًا: وددت لو أن لي كلمات. لكن هذه الكلمات التي استعملها، لا أدري عبر أي من العقول انتقلت. فهي تترتب في رأسي من تلقاء ذاتها بفضل عادات اكتسبتها عند الآخرين، وليس استعمالي لها خلوًا من الاشمئزاز. لكنني أقول لك، ولآخر مرة: يجب أن نحب البشر. أو إذا ما كانوا يسمحون لك بعمل أية صنعة، فأنا لا أريد أن أقوم بأية صنعة. سأتناول مسدسي في الحال، سأنزل إلى الشارع وسأرى إذا كان بإمكانهم أن يفعلوا شيئًا ضدهم. وداعًا يا سيدي قد تكون أنت الذي سأصادفك. لن تعرف عندئذ بأي سرور سأطير دماغك. وإلا - وهذا مرجح - فاقرأ صحف الغد. فسترى أن شخصًا يدعى بول هلبير صرع في سورة غضبه خمسة من المارة في جادة ادغار كينيه. وأنت تعرف أفضل من أي شخص آخر ما قيمة النثر الذي تكتبه الصحف اليومية الكبرى. ستعرف عندئذ بأني لم أكن في "سورة غضب". بل أنا هادئ، وأرجوك أن تقبل يا سيدي أفضل عواطفي.

"بول هربير".

وضعت الرسائل في مائة ومظروفين، وكتبت على المظروفات عنوان مائة واثنين من الكتاب الفرنسيين. ثم وضعت الكل في درج الطاولة مع ثمانية دفاتر من ورق البول.

طيلة الأيام الخمسة عشر التالية، نادرًا ما كنت أغادر البيت، إذ كنت أتلهى بجريمتي. وفي المرآة التي اتطلع من خلالها إلى نفسي، لاحظت بسرور التعديل الذي طرأ على

وجهي، لقد اتسعت عيناي، حتى كادتا تقضيان على معظم وجهي، بسوادهما الرقيق البادي من تحت النظارة، كنت أديرهما كالكواكب. غير أني رغبت في التبدل كثيرًا بعد المجزرة. رأيت صورة تينك الفتاتين الجميلتين، صورة الخادمتين اللتين قتلتا مخدوميهما. رأيت صورهما من قبل ومن بعد. من قبل، كان وجهاهما يتأرجحان كالزهور العاقلة فوق العنف، كما كانتا ترفلان بالصحة والشرف. لست أدري أية آلة جعدت شعريهما. وكانتا لشدة الشبه بينهما تبدوان كالأختين عند المصور، الأمر الذي يضع صلات الدم والجذور الطبيعية والعائلية في المكان الأول. ومن بعد، كان وجهاهما يشتعلان كالحريق. وتعرت عنقاهما وكأنهما سائرتان إلى الشنق، وغزتهما التجاعيد، تجاعيد مخيفة من الرهبة والكراهية، تجاعيد، وثقوب في اللحم كما لو أن وحشًا من الوحوش قد دار بأظافره فوق وجهيهما. وهاتان العينان، هاتان العينان الواسعتان السوداوان اللتان لا قرار لهما - هما كعيني. على أنهما لم تعودا تتشابهان. إذ باتت كل منهما تحمل ذكرى الجريمة على طريقتها الخاصة. وقلت في نفسي: "إذا كانت الجريمة التي ارتكبت بالصدفة من شأنها أن تشوه الوجه هكذا، فكيف لجريمة عن سابق تصور وتصميم قمت بها؟ ستستولى علي، وتشوه دمامتي الإنسانية... الجريمة تقطع حياة مرتكبها إلى شطرين. تمر لحظات نتمنى فيها العودة إلى الوراء فإذا بالجريمة تقف في الطريق تسده. لم أكن أطلب سوى ساعة واحدة لأعيش جريمتي، وأحس بعبئها القاتل. في هذه الساعة، سأرتب كل شيء لأخذها لنفسي: قررت أن أقوم بالتنفيذ في

شارع أوديسا. سأفيد من الجنون لأفر تاركًا إياهم ورائي يجمعون الأموات. سأركض، سأعبر جادة إدغار - كينيه وأدور سريعًا في شارع دولامبر. لن أحتاج لأكثر من ثلاثين ثانية كي أبلغ باب البناية التي أسكن فيها، وفي هذه اللحظة، يكون من يطاردني لا يزال في جادة إدغار كينيه، فيضيعون أثري، إذ تلزمهم ساعة على الأقل حتى يجدوه. سأنتظرهم في بيتي، وعندما أسمعهم يطرقون الباب، سأحشو مسدسي وأطلق النار في فمي.

كانت حياتي أوسع مما هي عليه. تفاهمت مع صاحب مطعم في شارع فافان كان يأتي لي بأطباق جميلة كل صباح ومساء. ويطرق العميل الباب، فلا أفتح له، بل أنتظر عدة دقائق ثم أفتح الباب لأرى في سلة كبيرة على الأرض، صحونًا ملأى يتصاعد منها الدخان.

في ٢٧ تشرين الأول، وفي السادسة مساء، كان قد بقي معي سبعة عشر فرنكًا ونصف. فأخذت مسدسي ورزمة الرسائل، ونزلت. تعمدت عدم إقفال الباب، كي أتمكن من العودة بسرعة بعد أن أقوم بضربتي.

لم أكن على أحسن حال، إذ إن يدي باردتان والدم صعد إلى رأسي، وكنت بحاجة لأفرك عيني. نظرت إلى المخازن. إلى فندق المدارس، وإلى دكان الورق حيث أشتري أقلام الرصاص فلم أعرفهما. وقلت في نفسي: "ما هذا الشارع!" كانت جادة مونبارناس تعج بالبشر؛ يدفعونني إلى الأمام والوراء، ويلطمونني بمرافقهم أو بأكتافهم. كنت أتهادى ذات اليمين وذات اليسار، إذ لم تكن لدي قوة الانزلاق بينهم.

رأيتني فجأة وسط ذلك الجمهور، شديد الوحشة والصغر. كم كان بإمكانهم أن يؤذوني لو شاءوا! كنت خائفًا بسبب السلاح الذي في جيبي. فقد تهيأ لي أنهم سيكتشفون مكانه. سيتطلعون إلي بأعينهم القاسية وسيقولون: "ولكن ... ولكن ..." بغضب يصحبه الفرح، وهم يدوسون علي بأرجلهم البشرية. ما أن يقضوا علي كليًا، حتى يلقوا بي من فوق رؤوسهم، فأقع فوق أيديهم كاللعبة الصغيرة فارتأيت تأجيل مشروعي حتى الغد. وذهبت لأتناول العشاء في الكوبول بستة عشر فرنكًا وثمانين. كان قد بقي لي سبعون سنتيمًا ألقيت بها في الساقية.

بقيت ثلاثة أيام في غرفتي، بدون طعام أو نوم. وأغلقت المنافذ ولم أعد أجرؤ على الاقتراب من النافذة أو على إضاءة المصباح. يوم الاثنين طرق بابي أحدهم. فهدأت من روعي وانتظرت. وما هي سوى دقيقة حتى عادوا إلى رن الجرس. رحت إلى رؤوس أصابعي لأنظر من ثقب الباب، فلم أر سوى قطعة قماش أسود وزر. رن الشخص الجرس ثانية ثم نزل. ولا أدري من هو. في الليل، رأيت أحلامًا عذبة وسعفًا، ودمًا جاريًا، وسماء بنفسجية فوق قبة. لم أكن ظمئًا لأني كنت أشرب ساعة بعد ساعة من حنفية المغسلة لكنني كنت جائعًا. ورأيت البغي السمراء مرة ثانية. كان ذلك في قصر بنيته فوق الهضبة السوداء على بعد عشرين ميلًا من كل قرية. كانت السمراء عادية، ووحيدة معي. أرغمتها على الركوع بقوة مسدسي، وعلى الركض على أربع. ثم ربطتها بعمود، وبعد أن شرحت لها مطولًا ما سأقوم به، أمطرتها وابلًا من الرصاص، أثرت في هذه الصور فاكتفيت بها. وبعدها، بقيت جامدًا في الظلام،

فارع الرأس تمامًا. بدأت قطع الأثاث تفرقع. كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحًا. كنت أعطي أي شيء مقابل الخروج من غرفتي، ولكن لم يكن بوسعي أن أنزل بسبب الناس الذين يسيرون في الشارع.

وجاء النهار. لم أعد أحس بالجوع، بل أن العرق صار يتصبب مني: فتبلل قميصي. في الخارج كانت الشمس عندها فكرت: "في الغرفة المقفلة، في الظلام يختبئ. فمنذ ثلاثة أيام لم يذق الطعام أو النوم، دق بابه ولم يفتح. والآن، سينزل إلى الشارع وسيقتل". كنت أخيف نفسي. في السادسة مساء عاودني الجوع. كنت غاضبًا حتى الجنون. تعثرت لحظة في الغرف، ثم أضأت الكهرباء في الغرف والمطبخ والمراحيض. وبدأت أغني بأعلى صوتي، وغسلت يدي وخرجت. كان يلزمني دقيقتان لأضع جميع رسائلي في علبة البريد. كنت أرميها عشرة فعشرة. فجعدت بعض المظروفات.

ثم سرت في جادة المونبارناس وحتى شارع أوديسا. وتوقفت أمام المرآة في إحدى محلات بيع القمصان، ولما لمحت وجهي فيها فكرت في نفسي: "هذا من أجل المساء".

تمركزت في أعلى شارع أوديسا، ليس بعيدًا عن قناة الغاز، وانتظرت. ومرت امرأتان. كل منهما تمسك بذراع الأخرى، وتقول الشقراء:

- لقد وضعوا السجادات في كل النوافذ، وكان نبلاء البلاد هم الذين يقومون بالتصوير.

فسألت الأخرى:

- هل هم مفلسون؟

- ليس ضروريًا أن يكون المرء مفلسًا حتى يقبل بعمل يدر عليه خمس ليرات ذهبية في اليوم.

فقالت السمراء مبهورة:

خمس ليرات!

وأضافت وهي تمر من أمامي:

- ثم أتصور أنهم يتسلون بارتداء ثياب أجدادهم.

وابتعدت الامرأتان. كنت أشعر بالبرد لكن العرق يتصبب مني بغزارة. وما هي إلا لحظة، حتى أتى ثلاثة رجال، فتركتهم يعبرون: إذ كان يلزمني ستة. ونظر إلي من كان على اليسار وقرقع بلسانه. فحولت نظري عنه.

في السابعة وخمس دقائق، دخلت امرأتان تتبع واحدتهما الأخرى جادة ادغار كينيه. كان رجل وامرأة بصحبة ولدين في إحدى الفرقتين. ووراءهم تأتي ثلاث عجائز. خطوت خطوة إلى الأمام. كانت المرأة غاضبة تهز الصبي بذراعه. ويقول الرجل بصوت متهدج:

- أنه لا يطاق، هذا الولد.

كان قلبي يخفق بقوة مما سبب لي ألمًا في ذراعي. وتقدمت ووقفت قبالتهم لا حراك بي. وأصابعي في جيبي، كانت رخوة حول الزناد. وقال الرجل إذ دفعني:

"عفوًا".

تذكرت أنني أغلقت باب غرفتي وهذا ما جعلني متناقضًا: إذ يلزمني وقت ثمين لفتحه. وابتعد الأشخاص. فهجمت عليهم اتبعهم بصورة آلية. لكنني لم أعد أرغب في إطلاق النار عليهم. لقد ضاعوا في زحمة الجمهور في الشارع. أما أنا،

فاستندت إلى الجدار. فسمعت الساعة الثامنة تدق ومن ثم التاسعة. وكررت قائلًا في نفسي:

"لماذا ينبغي قتل هؤلاء الأشخاص الموتى" واعترتني رغبة بالضحك. فجاء كلب وشم قدمي.

ولما تجاوزني الرجل السمين، ارتعدت. كنت أرى تجاعيد عنقه الحمراء. كان يروح ذات اليمين وذات اليسار ويتنفس بقوة، فهو يبدو قويًا. أخرجت مسدسي؛ كان لماعًا باردًا، يثير اشمئزازي، لم أتذكر تمامًا ما كان يجب أن أفعل به. فتارة ما كنت أنظر إليه، وطورًا إلى عنقه. تجاعيد عنقه كانت تضحك لي، كفم باسم مرير. وتساءلت في نفسي إذا كنت سأهم بإلقاء مسدسي في أحد المجارير.

فجأة اتجه الرجل نحوي ونظر إلي بحنق. فتراجعت خطوة إلى الوراء. "ذلك كي .. أسألك...".

لم يبد عليه أنه يريد الاستماع. كان ينظر إلى يدي. وانتهيت بصعوبة:

- هل بإمكانك أن ترشدني إلى شارع "السرور"؟

كان وجهه ضخمًا، وشفتاه ترتجفان. لم يقل شيئًا بل مد يده. فتراجعت أكثر وقلت له:

- أريد ..

في تلك اللحظة عرفت أني سأبدأ بالصياح. ولما لم أرغب في ذلك، أفرغت له ثلاث رصاصات في بطنه. فسقط بهيئة مضحكة على ركبتيه، وتدحرج رأسه على كتفه اليسرى. وقلت له:

- يا للقذر، يا للقذر اللعين!

وهربت. وسمعته يسعل. وسمعت أيضًا صياحًا ووقع خطي تتبعني. وسأل أحدهم: "ما هذا، أنهما يقتتلان؟ ثم صاحوا بعد ذلك: "إلى القاتل! إلى القاتل!" لم أفكر بأن هذه الأصوات تتعلق بي. لكنها بدت مشؤومة، كصفارة رجال الإطفاء كما كنت أسمعها في طفولتي. مشؤومة ومضحكة نوعًا. وركضت بكل ما أوتيت ساقاي من قوة.

إلا أني ارتكبت خطيئة لا تغتفر: فبدلًا من أن أصعد نحو جادة ادغار كينيه، نزلت نحو جادة المونبارناس. وعندما أدركت ذلك، كان الوقت متأخرًا: كنت وقتئذ في وسط الجمهور، تتجه نحوي الوجوه المدهوشة، (أتذكر من بين تلك الوجوه وجه امرأة شديدة التبرج تعتمر قبعة خضراء) وأسمع أصوات السخفاء في شارع أوديسا يصيحون: إلى القاتل وراء ظهري. وأحسست بيد تمتد إلى كتفي. عندها أضعت رشدي: لم أكن أريد أن أموت خنقًا على يد هذا الجمهور. أطلقت أيضًا عيارين ناريين. فبدأ الأشخاص يهربون ويتفرقون. فدخلت راكضًا إلى أحد المقاهي. فوقف المستهلكون عند مروي ولكنهم لم يحاولوا إيقافي، وعبرت المقهى بطوله واعتصمت في المغاسل. بقيت رصاصة واحدة في مسدسي.

ومرت لحظة. كنت منهوك القوى، لاهثًا. كل شيء صامت صمتًا عجيبًا، كما لو أن الناس تعمدوا السكوت. ورفعت سلاحي حتى عيني ورأيت ثقبه الأسود المستدير: ستنطلق الرصاصة من هنا: وسيحرق البارود وجهي. أرخيت ذراعي وانتظرت. ما هي إلا لحظة حتى وصلوا بخطى الذئاب، لا بد وأن يكونوا قطيعًا كاملًا، على ما يتبادر إلى الذهن من وقع

خطاهم. وتمتعوا لحظة ثم سكتوا. أما أنا فكنت لا أزال ألهث وفكرت بأنهم سيسمعونني وأنا ألهث، من جهة الحاجز الأخرى. اقترب أحدهم بهدوء وشد على قبضة الباب. لعله أسند ظهره للجدار جانبيًا ليتقي رصاصاتي. ورغبت مع ذلك في إطلاق النار - لكن الرصاصة الأخيرة كانت لي. وسألت في نفسي: "ماذا ينتظرون؟" فإذا انقضوا على الباب وخلعوه "حالًا فلن يتركوا لي الوقت الكافي لقتل نفسي، فيقبضون علي حيًا". لكنهم لم يستعجلوا، فقد تركوا لي فرصة كي أموت. القذرون، كانوا خائفين.

وما هي إلا لحظة حتى ارتفع صوت "هيا افتح فلن نؤذيك". وما هي إلا لحظة صمت حتى تابع لاصوت: "أنت تعرف أنه ليس بإمكانك الفرار".

لم أجب ولكنني كنت لا أزال ألهث. وحتى أتشجع على إطلاق النار، قلت في نفسي: "إذا قبضوا علي فيضربونني، سيحطمون أسناني، سيفقأون إحدى عيني". وودت أن أعرف إذا كان الرجل السمين قد مات. لعلي جرحته فقط... والرصاصتان التاليتان لعلهما لم تصيبا أحدًا... كانوا يعدون أمرًا ما، فهم يجرون شيئًا ثقيلًا على الأرض.

أسرعت بوضع فوهة مسدسي في فمي وعضضت عليها بقوة. غير أني لم أستطع إطلاق النار، ولا حتى وضع اصبعي على الزناد. كل شيء عاد للصمت.

عندها رميت المسدس وفتحت لهم الباب.

كانت لولو تنام عارية لأنها تحب أن تداعب نفسها بالغطاء، ولأن الغطاء كان ثمينًا، اعترض هنري في البداية: فلا يجوز أن تنام عارية في السرير، فهذا لا يمكن، بل أنه قذر. لكنه انتهى مع ذلك إلى النزول عند رأي زوجته لكن هذا كان نوعًا من المسايرة بالنسبة إليه، كان جافًا تمام الجفاف عندما يكون بين الناس. وبالنسبة للأصناف (كان معجبًا بأهل سويسرا لا سيما سكان جنيف، أنه يعجب بهم لأنهم من خشب) غير أنه كان يهمل نفسه في الأشياء البسيطة، فليس شديد النظافة مثلًا، إذ لم يكن بغير سرواله كثيرًا. فحين تضع لولو سراويله للتنظيف، كانت تلاحظ عليها البقع الصفراء: لم تكن لولو شخصيًا تكره القذارة: فهي تجعل الشخص أقرب إلى القلب، وهي تضفي ظلالًا عذبة بين المرافق مثلًا. فلم تكن تحب أولئك الانكليز، تلك الأجساد غير البشرية التي ليس لها رائحة. لكنها كانت تخشى إهمال زوجها، لأنه سبيل للميوعة في الصباح، حين يستيقظ، يكون شديد الرقة أمام نفسه، فرأسه ملئ بالأحلام. كان الماء البارد وشعيرات الفرشاة تحدث له انعكاسات سيئة.

كانت لولو نائمة على ظهرها، كما أدخلت اصبع رجلها اليسرى الكبيرة في شق الغطاء. لم يكن هذا شقًا، بل أن الغطاء ممزق. أنه يزعجها. وعليها أن تخيطه غدًا، كانت مع ذلك تشد على الخيطان لتنقطع. لم يكن هنري قد نام، لكنه انفك عن الازعاج. لطالما قال هذا للولو: ما أن يغمض عينيه حتى يشعر بأنه قد ربط تمامًا بحيث لا يستطيع أن يحرك حتى اصبعه. الذبابة عالقة في خيوط العنكبوت. ولولو تحب أن تشم هذا

الجسد السجين. فلو أن بإمكانه أن يظل هكذا مشلولًا لاعتنيت به أنا، ولنظفته كولد ولقلبته أحيانًا على ظهره وضربته على مؤخرته وأزحت الغطاء حتى إذا أتت أمه ورأته عاريًا، أظن أنها ستجمد في مكانها منذ خمسة عشر عامًا لم تشاهده على هذه الحال. مرت لولو بيدها الخفيفة على خاصرة زوجها وقرصته قليلًا. فهمهم هنري لكنه لم يقم بأية حركة. أصبح "عاجزًا". وابتسمت لولو: كلمة "العجز" كانت تضحكها دائمًا. ففي الوقت الذي كانت لا تزال فيه تحب هنري، تخيلته وكأنه "جلفر"، وهنري يحب ذلك فهذا اسم انكليزي ولولو تبدو مثقفة، لكنه كان يفضل أن تلفظه لولو باللهجة الانكليزية. كم كانوا قادرين على ازعاجي: فلو رغب في الثقافة لم يكن عليه سوى الاقتران بجان بدير، فهي وإن حملت نهدين بارزين، تتقن خمس لغات وعندما كنا نذهب إلى "سو" يوم الأحد، كنت شديد الانزعاج بين أسرتها حتى أني كنت أخذ أي كتاب لأقرأ فيه. وغالبًا ما كان هناك من يأتي لينظر إلى ما اقرأ وتسألني أختها الصغيرة: "هل تفهم لوسيا؟" أنها لا تجدني مميزًا. السويسريون نعم هم الأشخاص المميزون، لأن أختها البكر قد تزوجت من رجل سويسري أنجبت منه خمسة أولاد. أما أنا فلا يمكن أن يكون لي أولاد. أنه أمر مشروع، غير أني لم أر أن ما يقوم به، من زيارة المراحيض عدة مرات عندما يكون برفقتي، شيئًا مميزًا. إذ أصبح مرغمة على النظر في الواجهات وأنا بانتظاره. ويخرج وهو يشد سرواله ويقوس ساقيه كالعجوز.

وسحبت لولو اصبعها من شق الغطاء وحركت رجلها قليلًا، حتى تشعر بلذة تنبهها. إلى جانب تلك الكتلة الرخوة من اللحم. وسمعت غرغرة؛ أنها بطن تغني، وهذا يزعجني، فليس بإمكاني أن أعرف هل كانت بطني أم بطنه.

وأغمضت عينيها: أنها سوائل يسمع خريرها في الاقنية الرخوة، فالجميع عندهم منها، عند ريرات وعندي (لا أحب أن أفكر بذلك، فهذا ما يسبب لي ألمًا في بطني) أنه يحبني ولا يحب أمعائي، فلو قدمت له زائدتي الدودية فلن يعرفها، سيظل طيلة الوقت يقلبني ولكن إذا وضعنا الأناء في يديه فلن يشعر بشئ. فلن يفكر بأن هذا الذي في الداخل "هولها". من الواجب أن نحب كل شيء في الشخص، بلعومه وكبده وامعاءه. لعلنا لا نحب هذه الأعضاء بحكم عدم التعود عليها، فلو رياناها كما نرى أيدينا وأذرعنا لأحببناها على ما أعتقد. فنجوم البحر إذا تفوقنا في محبة بعضها. فهي تتمدد على الشاطئ في الشمس وتخرج معدتها لتتنشق الهواء، والجميع يرون هذه المعدة. أتساءل كيف بإمكاننا أن نخرج معدتنا؟ كانت قد أغمضت عينيها، أخذت الصحون السوداء بالدوران، كما كنت أمس في المعرض، أطلق النار على الصحون بأسهم من المطاط. كانت هناك حروف تشع، يشع الحرف عند إطلاق النار، فتؤلف الحروف اسم مدينة، لقد حرمني من رؤية حروف ديجون كاملة لفرط ما كان يلتصق بي من الخلف، أكره كثيرًا أن يلامسني أحد، أود لو لم يكن لي ظهر، لا أريد أن يفعل لي الناس شيئًا عندما لا أكون منتبهة. فبإمكانهم أن يحركوا أيديهم فوق ظهرك فلا تدري إلى أية جهة ستنتقل الأيدي، وهم

يتطلعون إليك بكل أعينهم بدون أن تراهم، وهنري يحب هذا حتى العبادة. لم يفكر هنري قط بذلك، لكنه يفكر بالوقوف ورائي، وأنا متأكدة من أنه يفعل هذا عمدًا، ويلامسني من خلف، فأنا أخجل من مؤخرتي، وزهو يعرف ذلك، لكن هذا يهيجه. لكنني لا أريد أن أفكر فيه (كانت خائفة). أريد أن أفكر بريرات. كانت تفكر بريرات في جميع الأمسيات وفي نفس الساعة. في نفس اللحظة التي يبدأ فيها هنري بالشخير. لكن المقاومة موجودة، فالآخر أراد أن يظهر نفسه، ورأى للحظة الشعر الأسود، وارتعش لأن المرء لا يدري ماذا سيحصل له، فلو أنه الوجه لكانت الحال على ما يرام، لكن هناك ليالي قضاها بدون أن يغمض عينيه بسبب الذكريات القذرة التي طغت عليه، فمن الأمور الرهيبة أن نعرف كل شيء عن إنسان ما وخاصة هذا. وهنري لا يمثل الشيء ذاته، فبإمكاني أن أتصوره من الرأس حتى الرجلين، فهو يجعل قلبي رفيقًا، لأنه رخو، ولحمه رمادي إلا بطنه فهي وردية ويقول أن الرجل الحسن القوام هو الذي إذا جلس تتجعد بطنه ثلاث تجعدات، بينما هو فتتجعد بطنه ست تجعدات. إلا أنه يعدها اثنتين بعد اثنتين ولا يريد أن يرى الآخرين. وأبدت امتعاضها وهي تفكر بريرات: "لولو، أنت لا تدركين كيف يكون جسم الرجل الجميل" هذا مضحك بالطبع، نعم أنا أعرف ما الجسم الجميل، تريد أن تقول أنه جسم قاس كالحجر، جسم ذو عضلات، أنا لا أحب هذا الجسم، باترسون كان له جسم مشابه، وأنا كنت احسني رخوة كالدودة عندما كان يضمني إليه. وتزوجت من هنري لأنه رخو، ولأنه يشبه الكاهن. والكهنة كالنساء على

جانب من العذوبة بقلنسواهم، كما يبدو أن لهم جوارب. في الخامسة عشرة، كنت أحب أن أرفع فساتينهم برفق لأرى سيقان الرجال عندهم وكذلك سراويلهم، كان يضحكني أن يكون لهم شيء بين الساقين. كنت أريد أن أمسك الفستان بيد وأزحلق الأخرى على طول سيقانهم، صاعدة إلى حيث أفكر، وليس مرد ذلك إلى أني أحب النساء إلى هذا الحد، لكن عضو الرجل عندما يكون تحت الفستان، طرئ كالوردة الكبيرة. إن ما هنالك أنه ليس بالإمكان أن يمسك هذا باليد فيظل ساكنًا، بل هو يبدأ بالتحرك كالحيوان، ويصبح قاسيًا عنيفًا. الحب، كم هو قذر. أنا كنت أحب هنري لأن غرضه الصغير لا ينتصب أبدًا ولا يرفع رأسه، كنت أضحك، وأقبله أحيانًا، لم أعد أخشاه كثيرًا. في المساء، أخذ شيئه العذب الصغير بين أصابعي، فكان يحمر ويدير رأسه جانبًا وهو يتنهد، ولكن الشيء لم يتحرك، بل يظل عاقلًا في يدي، لم أكن أضغط عليه، فتظل طويلًا على هذه الحال، وكان ينام. عندها استلقي على ظهري وأفكر بالكهنة، والأشياء الطاهرة والنساء، وأدغدغ بطني أولًا، بطني الجميلة المسطحة، وأنزل يدي؛ أنزلها، وها هي اللذة. اللذة التي لا يستطيع أحد غيري أن يجتلبها لنفسه.

الشعر مجعد كشعر الزنجي. والقلق في الحجرة ككتلة مستديرة. لكنها ضغطت على جفنيها بقوة، وأخيرًا ظهرت إذن ريرات، وهي أذن صغيرة محمرة ومذهبة كالسكر المذاب. وإذا رأيت لولو لن تجدها مثل سرورها المعتاد لأنها تسمع صوت ريرات، وهو صوت حاد دقيق لا تحبه لولو. "عليك أن تذهبي مع بيار يا لولو العزيزة، فهذا هو العمل الذكي الوحيد

الذي بإمكانك أن تقومي به. أشعر بكثير من العاطفة تجاه ريرات، لكنها تزعجني قليلًا عندما تتظاهر بالأهمية وتفتخر بما تقوله. انحنت ريرات عند العشية في الكوبول، وكانت عليها ملامح التعقل المصحوب بالخوف: "ليس بإمكانك أن تظلي مع هنري، لأنك لا تحبينه، فهذا عمل إجرامي". أنها لا تضيع أية فرصة دون أن تتناوله بسوء؛ أرى أن هذا ليس من اللياقة بشيء، فهو شديد المحبة لها أن أكون لا أحبه، أمر ممكن، ولكن ليس من واجب ريرات أن تقوله لي. إذ أنه يبدو معها كل شيء بسيطًا سهلًا: فالمرء إما أن يحب، وإما ألا يستمر في هذا الحب. أما أنا فلست بسيطة. أولًا، إن لي عاداتي الخاصة، ومن ثم أني أحبه، فهو زوجي. كنت أود أن أضربها، ولا زلت أرغب في إيذائها لأنها وقحة. "أنه لعمل إجرامي". لقد رفعت ذراعها، فرأيت ما تحت إبطها. لا أزال أحبها حين تكون ذراعاها عاريتين. تحت الإبط، ينفتح نصف فتحة، فقد يتبادر إلى الذهن أنه فم، وترى لولو لحمًا بنفسجيًا، قليل التجاعيد، تحت شعيرات مجعدة كأنها الشعر. يطلق بيار عليها اسم "مينرفا السمينة" وهي لا تحب هذا الاسم إطلاقًا. وابتسمت لولو لأنها فكرت بأخيها روبير الذي قال لقها ذات يوم وكانت بالغلالة الريقية: "لماذا لكشعر تحت الذراع؟" وأجابته: "أنه مرض". كانت تحب كثيرًا أن ترتدي ثيابها أمام أخيها الصغير، لأنه كان لديه دائمًا ملاحظات طريفة، ويتساءل المرء أين تريد أن تبحث عن هذا. كان يلامس جميع أغراض لولو، فيطوي الفساتين بعناية بيدين حاذقتين؛ سيصبح يومًا "خياطًا". أنها مهنة مغرية، وأنا، سأرسم له على قطع القماش. أنه لغريب

أن يحلم الصبي بأن يصبح خياطًا. يتهيأ لي لو كنت صبيًا، أنني أتمنى عندئذ أن أصبح مغامرًا أو ممثلًا، وليس خياطًا. لكنه حالم طيلة الوقت، فهو لا يتكلم كثيرًا، ويتابع فكرته. وأنا كنت أريد أن أصبح أختًا صالحة للاستجداء، في البنايات الكبرى. أحس بعذوبة عيني وكأنهما اللحم البشري، أريد أن مئات من الردهات المعتمة. غير أن الخادمة أضاءت النور في الحال، عندها أبصرت لوحات العائلة، وتماثيل البرونز على المنضدات. وكذلك المشاجب. وتأتي السيدة بدفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكًا:

"خذي يا أختي – شكرًا يا سيدتي وليبارك" الله والى المرة القادمة" لكنني لم أكن أختًا حقيقية. في السيارة، أومأت بعيني لأحد الأشخاص ففزع أولًا، ثم تبعني وهو يحدثني عن أشياء فسلمته للشرطي. دراهم الاستجداء كنت احتفظ لها لنفسي. ماذا أشتري لنفسي أأشتري سمًا. يا للبلاهة. وارتخت عيناي، فهذا يعجبني، إذ يقال أنهما قد تبللتا بالماء، فجسمي مريح بمجمله. والتاج الميل المرصع بالزمرد. ودار التاج، ثم دار، فتحول لرأس ثور مخيف، لكن لولو لم تكن خائفة، وقالت: "يا لعصافير الكانتال". وجرى نهر أحمر عبر الحقول المجدية. وفكرت لولو بفأسها الآلية.

"أنها لجريمة". وارتعدت فرائصها واستيقظت في ذلك الليل، بعينين قاسيتين! أنهم يعذبونني، أفلا يشعرون بذلك؟ أنا أعرف أن ريرات تتحدث عن نية حسنة، لكنه وهي العاقلة بالنسبة للآخرين، ينبغي أن تفهم أنني بحاجة للتفكير. قال لي: "ستأتين!" وقد احمرت عيناه أشد الاحمرار. "ستأتين إلى بيتي

أنا، أريدك أن تكوني لي". أني أخشى عينيه حين يريد أن يلعب دور المنوم المغناطيسي، كان يخدر ذراعي. فلا أرى عينيه على تلك الحال حتى أفكر بالشعر الذي على صدره. ستأتين، أريدك. أن تكوني لي: كيف للمرء أن يقول أشياء كهذه؟ أنا لست كلبًا.

عندها جلست وابتسمت له، وغيرت المسحوق من أجله وكحلت عيني لأنه يحب ذلك، لكنه لم ير شيئًا، فهو لا ينظر إلى وجهي، كان يتطلع إلى نهدي، فوددت لو أنهما يجفان فوق صدري لأزعجه، على كل حال فلست غنية بالنهود، فهما صغيران جدًا. ستأتين إلى دارتي في نيس. قال أنها بيضاء، درجها من المرمر، وهي مشرفة على البحر، وأننا سنعيش عاريين طيلة اليوم، سيكون الأمر طريفًا عندما يصعد الإنسان الدرج بغير ثياب. سأرغمه على الصعود قبلي، حتى لا ينظر إلي. وإلا فلن استطيع أن أحرك رجلي، بل سأظل مستمرة فيم مكاني متمنية من كل قلبي أن يصبح أعمى، لكن هذا لن يبدلني. إذ أنه عندما يكن موجودًا أحس دائمًا بعربي. أخذني بذراعي، يبدو أنه خبيث وقال لي: "أنت في جلدي!" وأنا كنت خائفة فقلت: "نعم". أريد أن أصنع سعادتك، ستذهب للنزهة في السيارة، وفي المركب، سنذهب إلى إيطاليا وسأعطيك كل ما تريدين. لكن دارته ليست غنية بالإناث فستنام على الأرض في فراش. يريدني أن أنام بين ذراعيه، سأشم رائحته؛ حب صدره كثيرًا لأنه صدر أسمر عريض، لكن هناك كثيرًا من الشعر فوقه، أريد أن يكون الرجال بدون شعر، شعره هو أسود ناعم كالزبد، فلطالما دغدغتها ولطالما فزعت منها، أتراجع قدر

الإمكان لكنه يشدني إليه. يريد أن أنام بين ذراعيه وأشم رائحته. وعندما يأتي الليل، نسمع ضجيج البحر، وبإمكانه أن يوقظني في منتصف الليل إذا أراد أن يفعل هذا: لن أستطيع أن أنام مطمئنة ما لم تكن حوائجي لدي، إذ يتركني وشأني وقتئذ، ثم أن هناك رجالًا يقومون بهذا مع نسوة في دروتهن، فتتلطخ بطونهم بالدم، بدم ليس لهم، سيلطخ الدم أيضًا الأغطية، وكل مكان، هذا شيء يدعو للاشمئزاز، لماذا ينبغي أن يكون لنا أجسام؟

وفتحت لولو عينيها، كانت الستائر ملونة بالأحمر، يلونها النور الآتي من الشارع، وفي المرآة كان خيال أحمر، والكنبة انشطرت إلى ظل على الحائط. على ذراع الكنبة، كان هنري قد ألقي سرواله، وقميصه كان يتدلى في الفراغ. علي أن أشتري له حزامًا للقميص. أوّه لا أريد. لا أريد أن أذهب. سيقبلني طيلة اليوم، "وسأكون له"، اصنع لذته، وسينظر إلي. سينكر "أنها لذتي"، لامستها هنا وهناك، وبإمكاني أن أعيد الكرة عندما يروق الأمر لي". في بور رويال، رفست لولو الأغطية برجلها، كانت تمقت بيار عندما تتذكر ما جري لها في بورروايال. كانت وراء السياج، تظن أن بيار لا يزال في السيارة، يتفحص الخريطة، وفجأة أبصرته، ركض وراءها بخطى الذئاب، كان ينظر غليها. رفست لولو هنري، سيستيقظ. لكن هنري شخر "هوم ف. ف. ف". ولم يستيقظ. أ ريد أن أتعرف على شاب وسيم، طاهر كالفتاة، فلا يلامس أحدنا الآخر، وتتنزه على شاطئ البحر، أمسكت بيده ويمسك بيدي. وفي المساء ننام كل في سرير منفصل، نظل كأخ وأخت

غارقين في حديث حتى الصباح. أو إنني أحب أن أضحك مع ريرات، فما أحلى النساء فيما بينهن. كتفاها عريضتان وسمينتان. كنت سعيدة جدًا عندما كانت تحب فرسنيل، لكن فكرة دغدغته لها كان تهزني، وكذلك يهزني أن يمر بيديه على كتفيها وعلى خاصرتيها وأن تتهد. أتساءل كيف يمكن لوجهها أن يكون عندما تكون ممددة على هذا الشكل، عارية، تحت رجل، تحس بيدين تتنقلان على لحمها. لن ألامسها مقابل ذهب العالم كله، فلن أعرف ما أفعله بها، حتى ولو رغبت في ذلك وقالت لي:

"حقًا أنني أريد". فلن أعرف، لكنني لو كنت غير منظورة، لأحببت أن أراه يفعل هكذا معها، ينظر إلى وجهها (يدهشني أن تكون كمينرفا)، ويدغدغ بيد رشيقة ساقيها المنفرجتين، وركبتيها الموردتين، ويسمعها تتنهد. وضحكت مينرفا ضحكة جافة: إذ يعتري المرء أحيانًا مثل هذه الأفكار.

مرة أدعت بأن بيار يريد أن يغتصب ريرات. وساعدتها، أخذت ريرات بين ذراعي. أمس. كان خداها شديدي الاحمرار، كنا جالستين على ديوان، الواحدة قبالة الأخرى، كانت ساقاها مضمومتين، لكننا لم نقل شيئان ولن نقول شيئًا. بدأ هنري بالشخير وصفرت لولو. أنا هنا، ليس بإمكاني أن أنام، سأفسد دمي، وهو كان يشخر، ذاك السمج. فلو أخذني بين ذراعيه ولو رجاني، ولو قال لي: "أنت لي بأكملك. لولو، أنا أحبك، لا تذهبي!" سأقدم له هذه التضحية، سأبقى نعم، سأظل طيلة حياتي معه، طلبًا لرضاه.

جلست ريرات على شرفة القبة وطلبت كأسًا من البورتو. كانت متعبة غاضبة من لولو.

"... البورتو الذي قدموه فيه طعم الفلين، ولولا لا يهمها الأمر فهي تشرب القهوة، لكنه ليس من المناسب أن تشرب القهوة في رقت المقبلات، أنهم يشربون القهوة هنا طيلة اليوم أو القهوة مع الكريما لأنهم مفلسون، كم يزعجهم هذا الأمر، أما أنا فلا أستطيع، بل أضرب جميع الحوانيت برؤوس الزبائن، فهم أناس لا يريدون الاستمرار. لا أدري لماذا تحدد لي المواعيد في المونبارناس دائمًا، لا سيما وأنها لو حددت لي مواعيدها في مقهى السلام أو البامبامن لكان أقرب إليها، وأبعد عن مكان عملي. لا أستطيع أن أقول كم يحزنني أن أرى دائمًا هذه الرؤوس، ففي كل دقيقة لدي، علي أن آتي إلى هذا المكان. لو كنت في الشرفة فلا بأس، ولكن في الداخل تفوح رائحة الثياب القذرة. وحتى على الشرفة أحس بأني غريبة بين رجال لا يحلقون ذقونهم ونساء لست أدري كيف هن. قد يقول أحدهم: "ما تراها تفعل هنا؟" أعرف أن الأمير كيات المثريات يؤمن المكان في الصيف، ولكن يبدو أنهن قد توقفن الآن في انكلترا مع حكومتنا، لهذا فإن تجارة الكماليات ليست على ما يرام، فقد بعت حتى الآن نصف ما بعته في السنة الماضية. "وأتساءل ماذا يفعل الآخرون، لأنني أنا البائعة الفضلى، والسيدة دوباش هي التي قالت لي هذا".

فهي لم تكسب درهمًا واحدًا،

فهي لم تكسب درهمًا واحدًا.

يقضي المرء نهاره واقفًا على رج.

يسمع فيه الموسيقى، وليس الذ
لكن الخدم وقحون، فهم يعا
فهو لطيف. أظن أن لولو تسر عند
الذهاب إلى مكان راق، فهي ليست شديدة الثقة
كل رجل ذي عادات جميلة، ولم تكن تحب لويس.

والرجال هنا فقراء يضعون غلابينهم في أفواههم، ولا الشرهة، وإن كان يبدو عليهم أنهم لا يستطيعون دفع أجرة النسـ

أنهم يتطلعون بشراهة، وليسوا قادرين على أن يقولوا للمرأة بأسلوب لطيف بأنهم يرغبون فيها".

واقترب الخادم:

– تريدين البورتو والصرف يا آنستي؟

– نعم. شكرًا.

– يا له من وقت جميل.

فقالت ريرات:

– ليس الوقت مبكرًا!

– حقًا، حتى أنه بإمكاننا أن نقول أن الشتاء لن ينتهي أبدًا.

وذهب، فتبعته ريرات بعينيها، وقالت في نفسها "أحب هذا الصبي كثيرًا، أنه يحسن الوقوف في مكانه، ولا يتعدى حدوده، لكن له دائمًا كلمة يقولها لي، ليعيرني انتباهًا خاصًا".

كان رجل نحيل مقوس الظهر ينظر إليها بإمعان. فهزت ريرات كتفيها وأدارت ظهرها: "إذا أراد الرجل أن يغازل

المرأة، فعليه على الأقل أن ينظف ثيابه. سأجيبه بهذا إذا وجه لي الكلام. وأتساءل لماذا لا تذهب. أنها لا تريد أن تؤذي هنري، هذا جميل جدًا: فليس للمرأة الحق بأن تفسد حياتها من أجل رجل عاجز". كانت ريرات تحتقر الرجال العاجزين. وقررت في نفسها: "عليها أن تذهب، فإن مسألة سعادتها في الميدان، سأقول لها بأنه لا يجب أن تضع سعادتها على كف عفريت. لولو، ليس لديك الحق بأن تتلاعبي بسعادتك. سوف لا أقول لها شيئًا، لقد انتهت القضية، وقلت لها مائة مرة أنه ليس بالإمكان إسعاد الآخرين رغمًا عن أرادتهم". وأحست ريرات بفراغ كبير في رأسها، كانت شديدة الاعياء، تنظر إلى شراب البورتو المائع في كِأسها، وكأنه نوع من الحلوى السائلة، ويتردد في ذهنها صوت يقول: "السعادة، السعادة" لقد كانت كلمة عذبة رصينة وفكرت بأنه لو طلب إليها رأيها في مباراة باريس سوار، لقالت أن تلهك الكلمة هي أجمل ما في اللغة الفرنسيةز "هفل فكر فيها أحد؟" ذكروا: الطاقة، والشجاعة، ذلك لأنهم رجال، أما لو كانت هناك امرأة، فهي التي تستطيع أن تأتي بتلك الكلمة. كان من الواجب تخصيص جائزتين، واحدة للرجال فتكون كلمة "شرف"، وأخرى للنساء فأربح إذ أقول: "سعادة". فالشرف والسعادة يتلاءمان؛ واسم كهذا ممتع. سأقول لها: "لولو لا يمكنك أن تتخلى عن سعادتك. سعادتك يا لولو. "سعادتك". أنا شخصيًا أجد بيار ممتازًا، فهو إنسان طيب أولًا ثم أنه ذكي، وهذا لا يفسدشيئا، ولديه دراهم، وسيظل دائم الاهتمام بها. أنه من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يذللون صعوبات الحياة، وهذا ما يلائم المرأة. أحب حسن القيادة

كثيرًا؛ لكنه يحسن الكلام مع الخدم وموظفي الفنادق، فهم يطيعونه ولعل هذا ما ينقص هنري. ثم إن هناك اعتبارات صحية، فأولو عليها أن تلتبه، فإن كان جميلًا أن تظل المرأة دقيقة شفافة وألا تشعر بالجوع أو النعاس. لكن هذا أمر لا واع، إذا أنها بحاجة لاتباع نظام غذائي، فلا بأس إذا أكلت قليلًا في المرة الواحدة ولكن عليها أن تقوم بهذا عدة مرات. ستتحسن صحتها لو أرسلت إلى المصح طيلة عشر سنوات".

وثبتت نظرها حائرة على ساعة جادة مونبارناس الكبيرة، التي تشير عقاربها إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة.

"أنا لا أفهم لولو، فهي ذات مزاج غريب، لم أستطع أبدًا أن أعرف ما إذا كانت تحب الرجال، أو أنهم يثيرون اشمئزازها: ومن الواجب مع ذلك، أن تكون على وفاق مع بيار، وهذا ما يغيرها قليلًا عما كانت عليه في السنة الماضية".

لقد تمتعت بهذه الذكرى، لكنها كتمت ابتسامتها لأن الشاب النحيل كان لا يزال ينظر إليها، إذ أنها فاجأته وهو ينظر إليها وهي تدير رأسها.

كانت رابو ذات وجه مثقوب بنقط سوداء، وكانت لولو تعبث بهذه البثور إذ تضغط على جلدها بالأظافر. "هذا مؤلم،

ولكن ليست هذه غلطتها، فأولو لا تعرف ما هو الرجل الجميل، أما أنا فأعبد الرجال المتحذلقين، وقضاياهم تبعث في النفس السرور، قمصانهم، أحذيتهم، ربطات أعناقهم. أنه شيء قاس، لكنه لذيذ، وقوي، له قوة عذبة. كرائحة التبغ الانكليزي الذي يدخنونه، وكرائحة المطر، ورائحة جلدهم عندما يحلقون ذقونهم. ليس ... ليس جلدهم كجلد المرأة، فكأنه جلد من قرطبة.

وتنقض عليك أذرعهم القويةن نضع الرأس على صدورهم، فنحس برائحتها، رائحة الرجولة. ويتمتمون لك كلمات عذبة. لديهم أشياء جميلة، أحذية قاسية من جلد البقر، ويهمسون في أذنك: "يا عزيزتي، يا عزيزتي الرقيقة". فنحسب بأجسامنا تنهد؛ وفكرت ريرات بلويس الذي هجرها في العام الماضي فانعصر قلبها: "رجل يحب نفسه ولديه الكثير من العادات الصغيرة. وأفضل من ذلك رجل في الربعين، رجل يعتني بنفسه، رد إلى الوراء، شعره الذي غزاه الشيب في الصدغين، يكون عريض المنكبين، رياضيًا، لكنه يعرف الحياة حق المعرفة، وله قلب طيب لأنه اجرى تجربة الألم. ليست لولو سوى صبية صغيرة، حالفها الحظ فكانت لها صديقة مثلي، لأن بيار بدأ يمل. فلو أن واحدة كانت في مكانها لعرفت كيف تستفيد. وعندما يكون رقيقًا معي أتظاهر بعدم الانتباه، وأبدأ بالحديث عن لولو، فأجد دائمًا كلامًا يرفع من شأنها، غير أنها لا تستحق ما لها من حظ، أنها لا تعي، أتمنى لها أن تعيش قليلًا بمفردها كما عشت منذ أن ذهب لويس، فسترى ما تعني عودتها وحيدة إلى البيت في المساء، بعد عناء اليوم، لترى الغرفة خاوية، فتموت من شدة رغبتها في الارتماء على ذراع رجل. ولعلنا نتساءل أين نجد الشجاعة على النهوض صبيحة اليوم التالي، بغية العودة إلى العمل، مع المحافظة على الاغراء والفرح. في الوقت الذي نفضل فيه الموت على حياة كهذه..."

ودقت الساعة الحادية عشرة والنصف. كانت ريرات تفكر بالسعادة، بالعصفور الأزرق، بعصفور السعادة، بعصفور الحب الثائر. وقفزت من مكانها: "تأخرت لولو ثلاثين دقيقة،

وهذا أمر عادي. فهي لن تهجر زوجها قط، وهي لا تملك أرادة الإقدام على عمل كهذا. في الواقع أنها تبقى مع هنري بدافع الاحترام: أنها تخوفه ولكن ذلك لا يهم طالما أن الناس ينادونها بقولهم "سيدتي"ز لقد فعلت كل شيء من أجلها، وقلت لها كل ما يجب أن أقوله، فتبًا بها".

وتوقفت سيارة أمام القبة، وترجلت لولو منها. كانت تحمل حقيبة ضخمة، على وجهها مسحة الوقار. وصاحت من بعيد:

– لقد هجرت هنري.

واقتربت، مقوسة الظهر تحت عبء حقيبتها. وكانت تبتسم. فقالت ريرات مدهوشة:

– كيف يا لولو؟ ألا تريدين أن تقولي...؟

فقالت لولو:

– نعم، انتهى كل شيء، لقد رميته.

فقالت ريرات وهي لا تزال على سذاجتها:

– وهل عرف هذا؟ هل قلت له؟

فبدا الغضب في عيني لولو وقالت:

– وكيف!

– حسنًا. يا لولو الصغيرة!

وافترضت ريرات أن لولو كانت بحاجة للتشجيع فقالت لها:

– يا له من فعل حسن لقد كنت في غاية الشجاعة.

وأرادت أن تضيف قائلة: أرأيت أن هذا لم يكن صعبًا. لكنها تمالكت نفسها. بينما كانت لولو تتلقى الأعجاب: كان خداها محمرين، وعيناها متأججتين. جلست ووضعت حقيبتها إلى جانبها، كانت ترتدي معطفًا من الصوف الرمادي يشده قشاط جلدي وكنزة صفراء فاتحة ذات عنق مبروم وكانت مكشوفة الرأس: لقد أدركت في الحال هذا المزيج من الملامة والتسلية، هذا المزيج الذي عرفت به. كانت لولو توحي لها دائمًا بهذا الأثر. وصممت ريرات على القول: "أن ما أحبه فيها هي حيويتها".

وقالت لولو: لقد قلت له كل ما شعرت به.

فقالت ريرات:

– لن أعود عنه، ولكن ما هو الذي حدا بك إلى هذا يا عزيزتي لولو؟ هل أكلت من لحم الأسد، مساء أمس. كنت مستعدة لأن اقطع رأسي لو لم تتركيه.

– ذلك بسبب أخي الصغير. أريد أن يكون علي رئيسًا، ولكنني لا أقبل بأن يمس عائلتي أبدًا.

– ولكن كيف تم ذلك؟

فقالت لولو وهي ترتعد فوق كرسيها:

– أين يالصبي. إن صبيان مقهي القبة ليسوا دائمًا حاضرين عندما ينادونهم أنه الأسمر الصغير الذي يخدمنا؟

فقالت ريرات:

– نعم؟ هل تعرفين أنني سيطرت عليه.

– كيف؟ عليك أن تحذري من امرأة المغاسل، فهو يعيش دائما إلى جانبها. يغازلها، ولكن هذا إن هو إلا ادعاء ليرى النساء تدخل الغرف الصغيرة. وعندما يخرجن، ينظر إلى أعينهن حتى تحمر وجوههن. وبالمناسبة، إنني أعطيكم مهلة دقيقة ينبغي أن أنزل واتصل ببيار، لأنه سيغضب! وإذا رأيت الصبي، اطلبي لي فنجانا من القهوة مع الكريما. سأغيب دقيقة ثم أعود وأخبركم بكل شيء.

ونهضت ثم خطت عدة خطوات وعادت إلى ريرات.

– أنا سعيدة جدًا يا عزيزتي ريرات.

فقالت ريرات وهي تمسك بيدها:

– يا لولو العزيزة.

وافلتت لولو يدها واجتازت الشرفة بخطى وئيدة ونظرت إليها ريرات وهي تبتعد. "لم أكن لأظن أنها قادرة على مثل هذه الأمور. وفكرت في نفسها: كم هي سعيدة. وإن كانت تؤأخذ نفسها قليلًا. ولو سمعت مني لأقدمت على ذلك منذ مدة طويلة. على كل حال فإن لي فضلًا في ذلك. في الواقع، أنني أؤثر عليها أشد التأثير.

وعادت لولو بعد لحظات وقالت:

بيار كان جالسًا. يريد تفاصيل حسنة، وسأعطيه هذه التفاصيل في الحال، سأتناول طعام الغداء معه. قال أنه بالإمكان أن نذهب غدًا مساء.

فقالت ريرات:

– كم أنا سعيدة يا لولو. أخبريني بسرعة. هل قررت ذلك هذه الليلة بالذات؟

فقالت لولو بتواضع:

– أنا لم أقرر شيئًا، فالأمر تقرير تلقائيًا. ونقرت على الطاولة بعصيبة: "يا صبي! يا صبي! أنه ليزعجني هذا الصبي، أريد فنجان قهوة مع الكريما".

دهشت ريرات: فلو كانت في مكانها، تواجه أشياء خطيرة لما أضاعت وقتها في الركض وراء القهوة مع الكريما. لولو امرأة جذابة، ولكن كم هي تافهة في بعض الأحيان. أنها عصفور.

وضحكت لولو:

– لو رأيت هيئة هنري!

فقالت ريرات برصانة:

– أتساءل ما يمكن أن تقول والدتك.

فقالت لولو باطمئنان:

– أمي؟ ستكون سعيدًا جدًا. كان سييء الخلق معها، وقد ضاقت ذرعًا به حتى الآن. كانت تتهمه بأنه أساء تهذيبي، وأنني كنت كذا وكذا، وأنني تعلمت ثقافة من الدرجة الأخيرة. هل تدرين أن كل ما فعلته هو بسببها؟

– ولكن ماذا جري بالفعل؟

– لقد صفع روبير.

– إذا فروبير أتى إلى بيتك.

– نعم. عندما مرّ بنا هذا الصباح، إذ إن والدتي تريد أن تعلمه عند غومبيز. أظن إنني أخبرتك بذلك. لذا من ببيتنا وكنا نتناول طعام الفطور، فصفعه هنري.

وسألت ريرات بانزعاج، لأنها كانت تكره الشكل الذي كانت لولو تسرد به قصتها:

– ولكن لماذا؟

فقالت لولو بغموض:

– تبادلا بعض الكلمات، ولم يسكت الصغير عنها لقد. قابله بعناد. وقال له في وجهه "أيها الوسخ العجوز. وذلك لأن هنري قد نعته بقلة الأدب طبعًا، فهو لا يعرف سوى التفوه بهذه الكلمات. عندها نهض هنري، وكنا نتناول طعام الفطور في الستوديو، وصفعه صفعة واحدة، فوددت لو أقتله.

– عندها، ذهبت؟

فقالت لولو مدهوشة:

– ذهبت ؟ إلى أين؟

– ظننت بأنك تركته في تلك اللحظة بالذات. اصغي، يا لولو الصغيرة، عليك أن تخبريني القصة بالتسلسل، وإلا فلن أفهم منها شيئًا.

وأضافت وقد ساورها الشك:

– قولي، هل هجرته فعلًا، هل هذا صحيح؟

– أجل، وها أنا أشرح لك القصة منذ ساعة.

– حسنًا. صفع هنري روبير؟ وبعدها؟

فقالت لولو:

– وبعدها: احتجزته:

يرتدي ثياب النوم، وهو ينقر كالقملة. أما، أنا فلو كنت موجود بالدم. وتخاصمنا. وابتسم لي ويمر الصبي، فتمسكه لولو

– إذًا، ها أنك أتيت أخيرًا أيها الصبي؟ هلا فنجانا من القهوة مع الكريما!

كانت ريرات مزعوجة لكنها ابتسمت للصبي ابتسامة مسايرة الصبي فظل مكفهر الوجه وانحنى انحناءة ملؤها اللوم، ريرات كرهت بعض الكره. لم تكن لتستطيع أبدًا أن تحسن لهجتها مع من هو دونها، فتارة ما تكون شديدة المسايرة، وطورًا جافة جدًا.

وبدأت لولو بالضحك.

"أضحك لأني أرى هنري بثياب النوم على الشرفة" كان يرتجف من البرد. هل تدرين ماذا فعلت حتى أطبقت عليه؟ كان في طريق الستوديو، وروبير يبكي، ويقسم. وفتحت النافذة وقلت: "انظر يا هنري! هناك سيارة صدمت بائعة الزهور". فجاء بالقرب مني: أنه يحب بائعة الزهور كثيرًا لأنها قالت له أنها سويسرية ويظن أنها تعشقه. "أين حدث هذا؟ أين؟: وانسحبت على مهل، وعدت إلى الغرفة وأقفلت النافذة. وحصت فيه من وراء الزجاج:

"ستتعلم ألا تكون متوحشًا مع أخي". تركته أكثر من ساعة على الشرفة، كان ينظر إلينا بعينين مدورتين، وقد أزرق لونه من الغضب. أما أنا فممدت له لساني وأعطيت روبير ملبسًا، وبعدها، حملت أشيائي إلى الستوديو وارتديت ثيابي أمام روبير لأني أعلم أن هنري يكره هذا: كان "روبير يقبل ذراعي وعنقي وكأنه رجل، أنه جاب. تصرفنا كما لو أن هنري كان غائبًا. ونسيت أن أغتسل.

فقالت ريرات وقد انفجرت ضاحكة:

– هذا مضحك جدًا.

وانقطعت لولو عن الضحك وقالت بجدية:

– أخشى أن يكون قد برد كثيرًا، فالمرء لا ينتبه في حالات غضبه. وتابعت بسرور: كان يمد لنا قبضة يده ويتكلم طيلة الوقت، لكنني لم أفهم نصف ما كان يقوله. ثم ذهب روبير وجاء من يراه على تلك الحال فقلت لهم: انظروا إلى زوجي، زوجي العزيز الكبير، إذا كان يشبه سمكة في مسبح؟ فحياه هؤلاء من خلال الزجاج مدهوشين.

فقالت ريرات ضاحكة:

زوجك في الشرفة والناس في الستوديو. أرادت أن تبحث عن كلمات مضحكة وملونة لكي تشرح المشهد للولو، وفكرت بأن لولو لا تعرف معنى الضحك. ولكن الكلمات لم تأتها.

فقالت لولو:

– وفتحت النافذة فدخل هنري. وقبلني على مرأى منهم. وأخذ يمازحني، أنه يريد أن يمثل معي دورًا

وابتسمت. وابتسم الجميع. لكنهم عندما ذهبوا، لطمني بقبضة يده على أذني. عندها أتيت بفرشاة وألقيت بها على زاوية فمه. فانشقت شفتاه.

فقالت ريرات بحنو:

– يا لولو المسكينة.

لكن لولو دفعت بحركتها كل مسايرة. وانتصبت وعلى سيمائها الغضب، بينما راحت عيناها تشعان كالبرق:

– عندما أفصحتا عن كل شيء. غسلت شفتيه بمنشفة، وقلت له أنني ضقت به ذرعًا وبأنني لا أحبه، وأريد الذهاب. فأجهش بالبكاء وقال أنه سيقتل نفسه. لكن أحابيله لم تعد تنطلي علي: هل تذكرين يا ريرات، في السنة الماضية أثناء المناوشات مع الريناني، كان يقول لي في كل يوم: ستقع الحرب. لولو، سأذهب وأموت، وستأسفين علي، وستندمين على كل ما أقدمت عليه تجاهي. ما "يهم لو قلت له أنك عاجز". ومع ذلك، هدأت من روعه، لأنه فكر بأن يقفل عليّ الباب في الستوديو، فأقسمت له بأنيي لن أذهب قبل شهر. بعدها، حضر إلى مكتبه، وكانت عيناه حمراوين، ولم يكن جميلًا. أما أنا، فقمت بأعمال البيت، وضعت العدس على النار وأحضرت حقيبتي. وتركت له خطابًا على طاولة المطبخ:

– ماذا كنت تكتبين له؟

فقالت لولو بفخر:

– كنت قائلة: العدس على النار. تناول طعامك وأطفئ الغاز. لحم الخنزير المجفف في البراد. أما أنا فضقت ذرعًا. الوداع.

– وضحكت الاثنتان معًا بقوة حتى التفت صوبهما المارة. وفكرت ريرات بأن منظرهما سيكون جذابًا وندمت على عدم جلوسها في شرفي الفيال أو في مقهى السلام. ولما فرغتا من الضحك، سكنتا، ورأت ريرات أنه لم يبق شيء يستحق الذكر. فأحست ببعض الخيبة.

فقالت لولو وهي تنهض:

– علي أن أنقذ نفسي. سألاقي بيار ظهرًا. ماذا ينبغي أن أفعله بحقيبتي؟

فقالت ريرات:

– اتركيها لي، سأسلمها في الحال إلى امرأة المغاسل. متى أراك ثانية؟

– سآتي لأخذك من بيتك في الساعة الثانية، فلدي الكثير من الأعمال بصحبتك: فأنا لم أخذ سوى نصف أغراضي، يجب على بيار أن يعطيني نقودًا.

– وذهبت لولو، فنادت ريرات الخادم. أحست بأنها شديدة الوقار والحزن. وأسرع الصبي: لاحظت ريرات بأنه يأتي مسرعًا عندما تناديه هي. وقال لها:

– خمسة فرنكات. وأضاف بهيئة جافة:

كنتما مسرورتين معًا، فقد سمع ضحكما إلى تحت.
وفكرت ريرات بتأنّ:
"لعل لولو مست شعوره".
وقالت بعد أن احمر وجهها:

– صديقتي عصبية المزاج هذا الصباح فقال الصبي:

– أنها جذابة. اشكرك يا آنستي.

ووضع في جيبه الفرنكات الستة وذهب. ودهشت ريرات بعض الدهشة وفكرت بأن هنري سيعود إلى بيته ويعثر على خطاب لولو: كانت لحظة مفعمة بالسعادة بالنسبة إليها.
قالت لولو لأمينة الصندوق:

– أريد أن يرسل كل هذا قبل مساء الغد إلى فندق المسرح في شارع فاندام. ثم اتجهت نحو ريرات:

– كفى يا ريرات فسنضعها هنا.

فقالت أمينة الصندوق:

– ما هو الاسم؟

– مدام لوسيان كرسبان.

وألقت لولو معطفها على ذراعها وراحت تركض. ونزلت راكضة درج السامارتان. كانت ريرات تتبعها. كادت تقع عدة مرات لأنها لم تكن تنظر إلى رجليها. لم تكن تنظر لسوى الطيف الأزرق والأصفر الهادئ الذي كان يرقص أمامها! "صحيح أن لها جسمًا بعيدًا عن الحشمة". في كل مرة كانت ريرات ترى فيها لولو من الخلف أو جانبيًا، تقف مشدوهة أمام

جسمها غير المحتشم بدون أن تشرح لنفسها السبب. أنه انطباع. "أنها رقيقة لينة" لكن فيها شيئًا بعيدًا عن الحشمة، فلن أتخلى عن هذه الفكرة. تقول أنها تخجل من مؤخرتها وهي ترتدي "التنورة" الضيقة التي تبرز تلك المؤخرة. إن مؤخرتها صغيرة، أصغر من مؤخرتي بكثير، لكنها بارزة أكثر. فهي مستديرة من تحت كليتيها الهزيلتين، وهي تملأ التنورة تمامًا. ثم أنها تحسن الرقص.

واستدارت لولو، وتبادلتا الابتسام. فكرت ريرات بجسم صديقتها الفاضح بنوع من عدم الرضى: نهدان ناهضان، ولحم مصقول أحمر – حين يلامس يظن أنه صنع من المطاط وساقان طويلتان، وقامة مديدة، وأطراف طويلة. وفكرت ريرات في نفسها: "أنه جسم زنجية، فهي تشبه زنجية ترقص الرمبا". قرب الباب لاحظت ريرات صورتها تنعكس، وفكرت في نفسها، وهي تمسك بذراع لولو: "أنا رياضية أكثر من لولو، لكنها أبلغ أثرًا مني عندما نكون لابستين ثيابنا، ولكنني أجمل منها عارية".

وظلتا للحظة صامتتين، ثم قالت لولو:

– بيار كان جذابًا. أنت أيضًا كنت جذابة يا ريرات، فأنا أشكركما أنتما الاثنتين.

قالت هذا بلهجة المتضايقة، لكن ريرات لم تنتبه لها، لم تعرف لولو قط.

أن تشكر، فقد كانت شديدة الخجل.

وأضافت لولو فجأة: "هذا يزعجني، ولكن علي أن أشتري صدرية".

فقالت ريرات: - من هنا؟ فقد كانتا تمران أمام دكان لبيع الثياب.

– كلا، تذكرت لأنني رأيت. وبالنسبة للصداري فأنا أقصد محل فيشر. وهتفت ريرات:

– من جادة مونبارناس؟ وتابعت كلامها بجدية:

– اصغي يا لولو، عليك ألا تترددي كثيرًا على جادة المونبارناس خصوصًا في هذه الساعة: سيقع نظري على هنري، وهذا أمر مزعج.

وقالت لولو وهي تهز كتفيها.

– على هنري. كلا. لماذا؟

واستبد الغضب بريرات فاحمر خداها وصدغاها:

– أنت لا تزالين على حالك يا لولو الصغيرة، فحين لا يروق الأمر لك، تعمدين إلى نفيه، لكل سهولة. أنت ترغبين في الذهاب إلى محل فيشر، فتؤكدين لي أن هنري لا يمر في جادة المونبارناس. وأنت تعرفين حق المعرفة أنه يمر من هناك، كل يوم في السادسة، فهذا هو طريقه. وأنت التيت قلت لي ذلك بنفسك: فهو يصعد في شارع الرين وينتظر في زاوية جادة رسباي.

فقالت لولو:

– أولًا: ليست الساعة الخامسة الآن ثم أنه، قد يكون غائبًا عن مكتبه: فبعد الكلمة التي وجهتها إليه لابد وأن يعمد للراحة.

فقالت ريرات فجأة:

– ولكن يا لولو، هناك محل آخر لفيشر، ليس بعيدًا عن الأوبرا في شارع الرابع من أيلول.
فقالت لولو بوجه عديم الإرادة:
– نعم يا لولو، ولكن علينا أن نذهب إلى المحل الأول.
– آه! كم أنني أحبك يا صغيرتي لولو؟ ينبغي أن نذهب إلى المحل الأول؟ لكن هذا المحل على بعد خطوتين، فهو أقرب بكثير من جادة المونبارناس.
– لا أحب ما يبيعونه هنا.
وفكرت ريرات في نفسها بأن جميع محلات فيشر تبيع الأصناف نفسها. لكن لولو كانت تصر إصرارا لا يفهم. فهنري هو آخر من ترغب في رؤيته في الدنيا في هذا الوقت، ومع ذلك فهي تتصرف وكأنها تريد أن ترتمي عند رجليه.
وقالت بإصرار:
– حسنًا فلنذهب إلى مونبارناس، وعلى كل حال فإن هنري فارع الطول وسنراه قبل أن يرانا.
وتابعت لولو:
– ثم ماذا؟ إذا صادقناه، نكون قد صادقناه وكفى، فلن يأكلنا.
– أصرت لولو على بلوغ مونبارناس مشيًا. قالت أنها بحاجة لتنشق الهواء. أخذنا طريق السين، ثم شارع الأوديون وشارع فوجيرار. وامتدحت ريرات

صفات بيار وبينت للولو كيف أنه كان رائعًا في هذه الفرصة.
فقالت لولو:

– كم أحب باريس، سأسف عليها كثيرًا.

– اسكتي يا لولو، سنحت لك الفرصة بالذهاب إلى نيس وتندمين على أيام باريس.

لم تجب لولو بشيء، بل أخذت تنظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة حزينة تائهة.

وعندما خرجتا من محل فيشر كانت الساعة تشير إلى السادسة.

أخذت ريرات لولو بكتفها وأرادت أن تسير بها بأقصى سرعة. لكن لولو توقفت أمام محل بومان بائع الورود.

– انظري إلى هذه النباتات الصحراوية يا صغيرتي ريرات. فلو كانت عندي قاعة استقبال كبيرة، لوضعت هذه النباتات في كل مكان فيها.

فقالت ريرات:

– أنا لا أحب الورود في الخزف. كانت ساخطة.

وأدارت وجهها ناحية شارع الرين، فرأت بالطبع، طيف هنري الطويل. مكان مكشوف الرأس يرتدي سترة عادية بلون كستنائي. وريرات تكره هذا اللون.

وقالت على عجل:

– ها هو يا لولو. ها هو.

– فقالت لولو:

– أين؟ أين هو؟

لم تكن أكثر هدوءً من ريرات.

– أنه وراءنا على الرصيف الآخر. فلنذهب ولا تتطلعي إلى الوراء. واستدارت لولو رغم ذلك إلى الوراء وقالت:

– ها أنني أراه.

حاولت ريرات أن تجرها لكنها تجمدت، وأخذت تنظر بإمعان نحو هنري. وقالت أخيرًا:

– أظن أنه رآنا.

وظهر عليها الخوف فأطاعت ريرات وتابعت طريقها. فقالت ريرات لاهثة:

– والآن بحق السماء يا لولو، لا تنظري إلى الوراء. سندور في الشارع التالي نحو اليمين، أنه شارع دلامبر.

كانتا تسيران على عجل وتدفعان المارة. كانت لولو تتباطأ حينًا، وتجر ريرات حينًا آخر. وقبل أن تصلا إلى زاوية شارع دلامبر حتى أبصرت ريرات ظلًا اسمر وراء لولو. ففهمت أنه هنري كان وبدأت وتجف من الغضب. أما لولو فظل جفناها منخفضين، وعليها سيماء الممالأة. "أنها تأسف لقلة درايتها لكن الوقت متأخر، فلتحسن النتائج".

وحثتا الخطى. فتبعهما هنري بدرن أن يقول كلمة واحدة. وقطعتا شارع دلامبر وتابعتا المسير في اتجاه المرصد. كانت ريرات تسمع قرقعة و حذاء هنري، كما تسمع نوعًا من

الحشرجة المتقطعة. كان لهاث هنري. (هنري لهاثه قوي منذ البداية ولكن ليس إلى هذا الحد: إذ أنه ركض حتى لحق بهما أو أنه أثر الانفعال).

وفكرت ريرات. ينبغي أن نتصرف كما لو أنه ليس هنا. وأن نتجاهل وجوده. لكنها لم تستطع عدم النظر إليه بطرف بصرها. كان أبيض كقطعة القماش البيضاء، يخفض حاجبيه إلى الأرض وكأنه يغمض عينيه. وفكرت ريرات في نفسها بنوع من الخوف: "لعله مروبص" كانت شفتا هنري ترتجفان، وعلى شفته اليمنى قطعة من القماش الناعم ترتجف معه أيضًا. ولهاثه، لهاثه الذي ظل على حاله مبحوحًا، بات ينتهي الآن بنوع من الموسيقى التي تنبعث من المنخرين. أحست ريرات بالضيق: لم تكن لتخشى هنري لكن المرض والعاطفة يخفيانها إلى حد ما. وما هي إلا لحظة، حتى قرب هنري يده برفق وبدون أن يتطلع وأمسك بذراع لولو. فقلبت لولو فمها وكأنها تهم بالبكاء وافلتت منه مرتعشة فقال هنري:

- بوف هـ . ه . ه .

واعترت ريرات رغبة جامحة في التوقف. لكن لولو كانت تركض. فهي أيضًا تبدو وكأنها مروبصة. وفكرت ريرات أنها لو أفلتت ذراع لولو وتوقفت لاستمرار في مسيرهما جنبًا إلى جنب، أبكمين، شاحبي اللون كأموات مغمضي الأعين.

بدأ هنري بالكلام،

قالت بصوت مضحك مبحوح:

– عودي معي.

لم ترد لولو عليه. فتابع هنري بنفس الصوت المبحوح:

– أنت زوجتي. عودي معي.

فقالت ريرات من بين أسنانها:

– أنت ترى تمامًا أنها لا تريد العودة. فدعها وشأنها.

ولم يبد أنه سمعها. بل أخذ يكرر:

– أنا زوجك وأريد أن تعودي معي.

فقالت ريرات بصوت حاد:

– أرجوك أن تتركها وشأنها، فلن تكسب شيئًا بإزعاجها على هذه الصورة. اذهب من هنا.

فأدار نحو ريرات وجهًا مدهوشًا وقال:

– أنها زوجتي، أنها لي. وأريد أن تعود معي.

تمسك بذراع لولو، ولولو لم تفلت هذه المرة. فقالت ريرات:

– اذهب من هنا.

– لن أذهب. سأتبعها إلى أي مكان، أريد أن تعود إلى المنزل.

كان يتكلم بعناء. وفجأة كشر عن أسنانه وصرخ بكل قواه:

– إنك لي!

فاستدار بعض الناس نحوه ضاحكين. بينما كان هنري يهز ذراع لولو مهمهمًا كحيوان وهو يزم شفتيه. ومن حسن الحظ، مرت سيارة فارغة. أشارت قلها ريرات بالوقوف. فوقف

هنري أيضًا. وأرادت لولو أن تتابع مشيتها فشدها كل مهما بذراع.

فقالت ريرات وهي تجر لولو نحو الطريق:

– ينبغي أن تفهم أنه ليس بالإمكان أن تعود إليك بوسائل العنف هذه فقال هنري وهو يجرها باتجاه معاكس:

– اتركيها! اتركي زوجتي.

كانت لولو رخوة كحزمة القماش.

وصاح السائق:

– هل تريدون الصعود أم لا؟

وتركت ريرات ذراع لولو وامطرت يد هنري بوابل من الضربات. غير أنه لم يكن يحس بها. وما هي إلا هنيهة حتى تركها وراح ينظر نحو ريرات كالمعتوه. نظرت إليه ريرات أيضًا. كانت تجد صعوبة في استجماع افكارها، كما اجتاحها ألم عميق، بقيا على هذه الحال لعدة ثوان. كان كلاهما يلهث. ثم عادت ريرات لتتمالك نفسها، فامسكت لولو وجرتها إلى السيارة.

فسأل السائق:

– إلى أين نذهب؟

وتبعهما هنري. كان يبغي أن يستقل السيارة معهما.

لكن ريرات دفعته عنها بكل قواها وأغلقت الباب بعنف.

وقالت للسائق:

– هيا اذهب، سندلك على العنوان فيما بعد.

وسارت السيارة، فتراخت ريرات في وسطها، وفكرت في نفسها:

"يا للدناءة! كانت تكره لولو".

وسألت بعذوبة:

– إلى أين تريدين الذهاب، يا صغيرتي لولو؟

ولم تجب لولو. فأحاطتها ريرات بذراعها وقالت بلهجة مقنعة:

– عليك أن تجيبيني. أتريدين أن أضعك عند بيار؟

وقامت لولو بحركة اعتبرتها ريرات دالة على الإذعان. وانحنت إلى الأمام:

– ١١ شارع الماسين.

ولما عادت ريرات إلى وضعها السابق، كانت لولو تنظر إليها بوجه غريب.

وبدأت ريرات.

– ما الذي ...

فصاحت لولو:

– إنني أكرهك. وأكره بيار، وأكره هنري. ماذا تريدون مني جميعًا؟ أنكم تعذبونني.

– وتوقفت على عجل واضطربت جميع ملامحها. فقالت ريرات بوقار هادئ:

– ابكي، ابكي، فسينفعك البكاء.

وانطوت لولو على نفسها وأخذت تبكي. فأخذتها ريرات بذراعيها وضمتها إلى صدرها. كانت تداعب شعرها من وقت لآخر. لكنها كانت تحس في داخلها بالبرود والاحتقار. ولما توقفت السيارة، كانت لولو هادئة. فمسحت عينيها ووضعت المسحوق على وجهها. وقالت بلطف:

– اعذريني، كنت متوترة الأعصاب. لم أكن أطبق رؤيته على تلك الحال، لقد كان يؤذيني.

فقالت ريرات وقد عاودتها البشاشة:

– كان يشبه الأوراج أوتانج.

وابتسمت لولو.

وسألتها ربرات:

– متى أراك ثانية؟

– أوه، ليس قبل الغد. أنت تعرفين أن بيار لا يستطيع إيوائي بسبب أمه؟ فأنا في فندق المسرح. بإمكانك أن تأتي في وقت مبكر، نحو الساعة التاسعة، إذا كان هذا لا يزعجك، لأنني ذاهبة لمقابلة أمي بعد ذلك.

كانت بيضاء شاحبة، وفكرت ريرات بكآبة بالسهولة التي تتفكك بها ريرات وقالت:

– لا تشغلي بالك كثيرًا هذا المساء.

فقالت لولو:

– أنا متعبة جدًا، وأتمنى أن يتركني بيار لأعود في ساعة مبكرة، لكنه لا يفهم هذه الأمور.

وأبقت ريرات السيارة بانتظارها لتقتادها إلى بيتها. وفكرت للحظة بأنها ستذهب إلى السينما لكنها لم تعد تتحمل ذلك. فألقت قبعتها على كرسي ومشت خطوة نحو النافذة. لكن السرير كان يجتذبها، ببياضه، وعذوبته، وليونته. فهل تقفز فوقه لتستمتع بمداعبة الوسادة على خديها المحترفين. "أنا قوية، فأنا التي فعلت كل شيء من أجل لولو والآن أراني وحيدة ليس بوسع أحد أن يفعل شيئا من أجلي". كانت تشفق إلى نيس وسوف لا أراهما بعد الآن. فأنا الذي صنعت سعادتهما، لكنهما لن يفكرا بي. وأنا أظل هنا أعمل ثماني ساعات في اليوم، في بيع اللآليء المزيفة عند بورما". ولما انحدرت أوائل الدموع على خديها، ارتمت برفق فوق سريرها، وكررت وهي تبكي بمرارة:

– إلى نيس ... إلى نيس ... إلى الشمس ... على الريفييرا.

-٣-

"بواه!"

ليل أسود. فكأن أحدًا كان يمشي في الغرفة: أنه رجل يضع في رجليه خفين. كان يقدم بعناية قدمه الأولى ويتبعها بالثانية، بدون أن يتمكن من تجنب القرقعة على الأرض. يتوقف، فيعم الصمت، ثم لا يلبث أن يطير إلى جانب الغرفة الآخر متابعًا مشيته كالمعتوه. وكانت لولو تشعر بالبرد، إذ إن الأغطية خفيفة جدًا. وقالت "بواه!" بصوت عال فخافت من صدى صوتها.

بواه! أنا متأكدة من أنه يتطلع إلى السماء والنجوم، ويشعل سيكارة، وهو في الخارج. وقال أنه يحب اللون البنفسجي في سماء باريس. ويعود إلى بيته بخطى وئيدة، ويحس بأنه شاعري عندما يقوم بهذا العمل، كما قال لي وبأنه رشيق كبقرة يحلبونها؛ لم يعد يفكر بهذا وأنا أشعر أنني تلطخت. ولا يهمني أن يكون طاهرًا في هذه اللحظة، فقد ترك قذارته هنا في الظلام، وهذه منشقة اتسخت، والغطاء رطب وسط السرير، فليس بإمكاني أن أمد رجلي لأنني سأشعر بالرطوبة تحت جلدي، يا للقذارة، لكنه جاف هو، سمعته يصفر تحت نافذتي عندما خرج. كان تحت النافذة، جافًا ونشيطًا في ثيابه الزاهية، بسترته نصف الفصلية، وينبغي أن نعترف أنه يحسن هندامه، ويمكن للمرأة أن تفخر بالخروج معه. كان تحت نافذتي، وأنا عارية في الظلام، أشعر بالبرد، وأفرك بطني بيدي لأنني كنت

أحس بالرطوبة. "سأصعد دقيقة لأرى غرفتك". ظل ساعتين، والسرير يحدث صريرًا. يا له من سرير حديدي قذر. أتساءل في نفسي ما الذي جعله يعثر على هذا الفندق، قال لي أنه أمضى فيه خمسة عشر يومًا في الماضي، وبأنني سأرتاح فيه، أنها غرف مضحكة، رأيت منها اثنتين، لم أر قط غرفًا بهذا الصغر، تعج بالإناث، فيها طنافس وكنبات وطاولات صغيرة، هذا يحمل الحب منتنا، لا أدري إذا أمضى فيه خمسة عشر يومًا؛ لكنه لم يمض هذه الأيام بمفرده. ينبغي ألا يفرط في احترامي لأنه التصق بي في الداخل. كان صبي الفندق يهذر عندما صعدنا، أنه جزائري، أنني أكره هذا الشخص وأمثاله، لقد نظر إلى ساقي، وبعدها عاد إلى المكتب، وقال في نفسه: "حصل الأمر، أنهم يقومون بهذا" وتخيل أشياء قذرة، يبدو أن ما يفعلونه هناك مع النساء، مخيف. فإذا وقعت امرأة تحت أيديهم لابد وأن تظل عرجاء طيلة حياتها. وفي الوقت الذي كان بيار يزعجني فيه فكرت بهذا الجزائري الذي فكر بما أقوم به، وتصور قذارات تفوق القذارات التي حصلت فعلًا. هناك شخص ما في الغرفة!

وضبطت لولو تنفسها، لكن القرقعة انقطعت فجأة، أشعر بألم بين فخذي، يتآكلني ويحرقني، لدي رغبة بالبكاء، هكذا طيلة ليالي إلا في الليلة القادمة لأننا نكون آنئذ على متن القطار. وعضت لولو على شفتها لأنها تذكرت أنها تنهدت. ليس صحيحًا، أنا لم أتنهد، بل تنفست بقوة، ولأنه ضعيف السمع بحيث أنه حين يكون فوقي يقطع لي نفسي. قال لي: "تتنهدين، تلتذين!"، أكره الكلام كثيرًا عند القيام بهذا العمل،

أريد أن أنسي نفسي، لكنه لا ينفك عن سرد سفاهاته. أنا لم أتنهد في البدء، وإن كنت لا أستطيع أن أخذ اللذة، وهذا أمر واقع، فالطبيب هو الذي قال لي ذلك، إلا إذا اجتلبتها لنفسي. أنه لا يريد أن يصدق، وهم جميعًا لا يريدون أن يصدقوا، كانوا يقولون لي: "ذلك لأن البداية سيئة، أنا سأعلمك اللذة". وكنت أسمح لهم بذلك، فأنا أعرف القصة حق المعرفة، وهذا سبب طبي؛ لكن هذا يثير أعصابهم.

كان أحدهم يصعد الدرج. ذاك الذي يهم بالدخول. إلا إذ كان هو نفسه قد عاد. فهو مستعد لذلك إذا دفعته الرغبة. ليس هو، إذ ليست هذه خطي ثقيلة – أو لعله – وهنا قفز قلب لولو في صدرها – الجزائري، فهو يعلم أنني وحدي، سيأتي ويدفع الباب، أنا لا أستطيع احتمال هذا. أنه في الطابق الأسفل، أنه شخص يعود إلى غرفته، يضع مفتاحه في ثقب الباب، يلزمه بعض الوقت، أنه ثمل، أتساءل من يسكن هذا الفندق، فيه شيء خاص. صادفت بعد الظهر شقراء على الدرج، عيناها كعيني المدمن على المخدرات. لم أتنهد! إلا أنه جعلني اضطرب بأشيائه تلك، أنه يحسن العمل. وأنا أخاف الأشخاص الذين يحسنون العمل فأنا أفضل أن أنام مع رجل طاهر. فاليدان اللتان تذهبان توًا إلى المكان المطلوب، اليدان اللتان تلامسان وتشدان قليلًا، وليس كثيرًا جدًا... يدان تعتبرانك آلة يفخرون بأنهم يحسنون اللعب بها. أنا أكره أن يهزني أحد، إن بلعومي قد جف، كما أنني خائفة وفي فمي طعم، وأشعر بالذل لأنهم يعتقدون بأنهم يسيطرون علي. بيار، سأصفعه عندما يقول مفاخرًا: "عندي أسلوب فني". رباء، أن نقول أن هذه هي

الحياة، ومن أجل هذا نغتسل ونتجمل. وكل الروايات كتبت من أجل هذا، ويفكر الناس بهذا طيلة الوقت، وأخيرًا ليس هذا سوى أمر بسيط، أن نذهب مع شخص إلى غرفة، شخص يخنقك نصف اختناق ويبلل جوفك في النهاية. أريد أن أنام، أوه لو أستطيع فقط أن أنام قليلًا، وغدًا سأسافر الليل بطوله، سأكون محطمة. أود مع ذلك أن أحافظ على بعض نشاطي لا تجول في نيس. يبدو أنها جميلة، فيها شوارع إيطالية صغيرة وغسيل ملون يجف في الشمس، سأقيم مع الركيزة وأرسم، وستأتي الفتيات الصغيرات ليرين ما أصنعه. يا للقذارة! (كانت قد تقدمت قليلًا فلامست خاصرتها بقعة الغطاء المبللة). من أجل هذا هو يصطحبني. لا، لا أحد يحبني. كان يسير بجواري، وكانت قواي خائرة انتظر كلمة من كلمات المحبة، فلو قال: "أحبك". لما عدت بالطبع إليه، غير أنني أقول له آنئذ قولًا لطيفًا، وهكذا نفترق كأصدقاء طيبين، وانتظرت؛ انتظرت، فأخذ ذراعي فتركتها له. فغضبت ريرات، إذ ليس صحيحًا أنه يشبه الأورانج أوتانج، لكنني كنت أعرف أنها تفكر بشيء كهذا، إذ تنظر إليه شذرًا بعينين قذرتين، أنه لمدهش جدًا أن تكون قادرة على الشر إلى هذا الحد؛ ورغم هذا، حين أخذ ذراعي لم أقاوم ولكن لست "أنا" التي كنت أريد، فهو يريد "امرأته" لأنه اقترن بي وهو زوجي؛ كان ينقص دائمًا من قدري ويقول أنه أكثر مني ذكاء، وكل ما حصل إنما حصل بسببه، فلو عاملني من غير تكبر لبقيت معه حتى الآن. أنا متأكدة من أنه لا يأسف علي في هذه اللحظة فهو لا يبكي بل يشخر، وهذا كل ما يعمله؛ لأنه مسرور لأن السرير أصبح له

وحده؛ وبإمكانه أن يمد عليه ساقيه الضخمتين. أريد أن أموت. لم يكن بوسعي أن أشرح له شيئًا لأن ريرات كانت بيننا، تتحدث وتتحدث، وكأنها هستيرية. أنها مسرورة في الوقت الحاضر، راضية عن نفسها لما أبدته من شجاعة، يا للخبث، تجاه هنري الوديع كالحمل. سأذهب. فليس بإمكانهم أن يرغموني على هجره كالكلب. وقفزت خارج السرير وأدارت الزر. جورباي وغلالتي تكفي. ولم تكلف نفسها عناء تسريح شعرها، فهي مستعجلة من جهة؛ والناس الذين سيرونها لن يدركوا أنها تحت معطفها الرمادي، الذي ينزل حتى القدمين. والجزائري - وهنا توقفت وقلبها تخفق بشدة - علي أن أوقظه ليفتح لي الباب. ونزلت بخطى حثيثة لكن الدرجات أخذت تقرقع واحدة واحدة، ونقرت على زجاج المكتب. فقال الجزائري: "ما هذا؟" كانت عيناه مائلتين للاحمرار وشعره مبعثرًا، ولم يكن يبدو عليه سيماء الرهبة.

فقالت لواو بجفاف: "افتح لي الباب".

وما هي إلا ربع ساعة حتى طرفت باب هنري. فسأل هنري من وراء الباب:

- من هنا؟

- أنا.

لم يجب بشيء، فهو لا يريد أن يسمح لي بالدخول إلى بيتي. لكنني سأضرب على الباب حتى يفتحه، سيعود عن إصراره بسبب الجيران. وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب قليلًا وبدا فيه هنري، شاحب اللون على أنفه نقطة احمرار بسيط، كان بلباس النوم.

وفكرت لولو بحنو: "أنه لم ينم".

"لم أكن أريد الذهاب على هذا الشكل، أردت أن أقابلك".

لم يقل هنري شيئًا. فدخلت لولو بعد أن دفعته قليلًا. ونظر إلى بعينين مدورتين وذراعين خائرتين وهو لا يدري ما عليه أن يفعل بجسمه. اسكت، اذهب، اسكت، أرى تمامًا أنك متأثر وبأنك لا تستطيع الكلام. وأجهد نفسه ليبلع، وأقفلت لولو الباب. وقالت:

- أريد أن نهجر بعضنا ونظل أصدقاء.

وفتح فمه وكأنه يريد الكلام، ودار فجأة حول نفسه وهرب. ماذا يصنع؟ لم تجرؤ على اللحاق به. هل أنه يبكي؟ سمعته فجأة يسعل: أنه في المرحاض. وحين عاد، تعلقت بعنقه وألصقت فمها بفمه: كانت تفوح منه رائحة القيء. وأجهشت لولو بالبكاء. وقال هنري:

- أني أشعر بالبرد.

فاقترحت عليه باكية:

- فلننم، بإمكاني أن أبقى إلى صبيحة الغد.

وناما، وهزت لولو الدموع المنهمرة لأنها عادت إلى غرفتها وإلى سريرها الجميل النظيف والضوء الأحمر في الزجاج. وفكرت بأن هنري سيأخذها بين ذراعيه. لكنه لم يفعل شيئًا من هذا، كان ينام على طول السرير وكأن فيه وتدًا. كما أنه جامد وكأنه يتحدث إلى سويسري. أمسكته برأسه بكلتا يديها ونظرت إليه بإمعان. "أنت طاهر أنت، أنت طاهر". فأخذ يبكي. وقال:

- كم أنا بائس، لم أكن قط بائسًا إلى هذا الحد.

فقالت لولو:

- وأنا كذلك.

وبكيا طويلًا. وما هي إلا هنيهة حتى أطفأت النور ووضعت رأسها على كتفه. لو كان باستطاعتنا البقاء على هذه الحال إلى الأبد طاهرين كئيبين كالأيتام. لكن هذا مستحيل، لأنه لا يجري في الحياة. كانت الحياة، كانت الحياة كموجة ضخمة تذوب فوق لولو وتنتزعها من بين ذراعي هنري. يدك. يدك الكبيرة. أنه فخور بيديه لأنهما كبيرتان، يقول أن المتحدرين من الأسر العريقة لهم دائما أطراف كبيرة. لم يأخذ قامتي بين يديه - كان يدغدغني قليلًا لكنني فخورة لأنه أصبح بإمكانه أن يضم أصابعه إلى بعضها. وليس صحيحًا أنه عاجز، أنه طاهر، طاهر - وخامل نوعًا ما. وابتسمت من خلال دموعها وقبلته على ذقنه. وقال هنري:

- ما ينبغي أن أقوله لأهلي. ستموت والدتي من هول الخبر.

لن تموت مدام كرسبان من الخبر، بل بالعكس ستنتصر. سيتحدثان عني عندما يجلسان إلى المائدة في الخامسة، وعليهما سيماء الملامة، كالناس الذين يريدون أن يقولوا أشياء كثيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك، بسبب وجود تلك الفتاة الصغيرة، وهي في السادسة عشرة، وليس بالإمكان أن يتحدثوا أمامها عن بعض الأمور. ستضحك لأنها ستعرف كل شيء، وهي تعرف دائمًا كل شيء وتمقتني. كل هذا الوحل! والظواهر ليست إلى جانبي. ورجته لولو:

- لا تخبرهم في الحال، تدلهم أنني ذهبت إلى نيس من أجل صحتي.

- لن يصدقوني.
وقبلت هنري قبلات صغيرة على طول وجهه.
- هنري لم تكن لطيفا ما فيه الكفاية معي .. فقال هنري:
- هذا صحيح، لم أكن لطيفًا ما فيه الكفاية.
فقالت لولو:
- وأنا كذلك ! هوه ؟ يا لنا من تعيين !
وبكت بقوة إلى حد أنها كادت تختنق: سويعات ويطلع النهار، وستذهب، ليس بالإمكان أن يفعل المرء ما يريد، بل أنه مساق.
وقال هنري:
- لم يكن ينبغي أن تذهبي على هذه الصورة.
وتنهدت لولو:
- كنت أحبك كثيرا يا هنري.
- والآن، أقلعت عن حبك لي.
- ليس كما في السابق.
- وبصحبة من ستذهبين.
- مع أشخاص لا تعرفهم.
فقال هنري بغضب:
- كيف أنك تعرفين أشخاصًا لا أعرفهم، فأين قابلتهم؟
- دع عنك هذا يا عزيزي، يا جلفر الصغير، فما عليك أن تقوم بدور الزوج في هذه اللحظة!
فقال هنري باكيًا:
- تذهبين مع رجل!

- اصغ يا هنري، اقسم لك، إنني لا أذهب، اقسم لك على رأس أمي، فالرجال يثيرون اشمئزازي كثيرًا هذه الأيام. فأنا أذهب مع أصدقاء ريرات، وهم متقدمون في السن. أريد أن أعيش وحيدة، سيجدون لي عملًا. أوه يا هنري؟ لو تدري كم أنا بحاجة للعيش بمفردي، ولكم يثير اشمئزازي كل هذا.

فقال هنري:

- ماذا؟ ما هو الذي يثير اشمئزازك؟

كل شيء!

وقبلته:

- أنت وحدك الذي لا تثير اشمئزازي يا عزيزي.

وأنزلت يدها تحت بيجاما هنري وداعبت جسمه بجميع أنحائه. فارتعش تحت يديها الباردتين لكنه قبل بذلك، إلا أنه قال:

- سأصاب بأذى.

- كان فيك ولا شك شيء منكر.

في الساعة السابعة، نهضت لولو، وقد تورمت عيناها من شدة البكاء، وقالت بإعياء:

- عليّ أن أعود إلى هناك.

- أين هناك؟

- أنا في فندق المسرح في شارع فاندام. أنه فندق قذر.

- ابقي معي.

- كلا يا هنري أرجوك، لا تلح عليّ، قلت لك أن هذا مستحيل.

- إن الأمواج هي التي تحملك، أنها الحياة. وليس بإمكاننا أن نطلق الأحكام، ولا أن نفهم الأمور، وما علينا إلا أن ندع الأمور تجري. وغدا سأذهب إلى نيس.

ودخلت إلى المغسلة لتغسل عينيها بالماء الساخن. وارتدت معطفها وهي ترتجف. "لكأنه مصير محتوم. شريطة أن أتمكن من النوم في القطار هذه الليلة، وإلا فستخور قواي حال وصولي إلى نيس. آمل أن يكون قد حجز في الدرجة الأولى. أنها المرة الأولى التي أسافر فيها بالدرجة الأولى. هكذا دائمًا تكون الأمور: ها قد مرت سنوات وأنا أرغب في القيام برحلة طويلة بالدرجة الأولى وما أن تحقق هذا الحلم حتى لم أعد أجد لذة فيه".

كانت تستعجل ذهابها، في الوقت الحاضر، لأن هذه اللحظات الأخيرة كانت من الأمور التي لا تطاق. وسألته:

ماذا ستفعله مع غالوا؟

كان غالوا قد طلب إعلانا من هنري، ولما قام هنري بتنفيذ الطلب في الوقت الحاضر، رفضه غالوا.

وقال هنري:

- لا أدري.

كان قد انطوى على نفسه تحت الأغطية، ولم يعد سوى شعره وطرف أذنه. وقال بصوت بطيء رخو:

- أريد أن أنام طيلة ثمانية أيام.

فقالت لولو:

- وداعًا يا عزيزي.

- وداعًا.

وانحنت قليلًا فوقه، وأزاحت الأغطية عنه وقبلته في جبينه. مكثت طويلًا على الدرج، بدون أن تصمم على إغلاق باب الشقة. وما هي إلا لحظة، حتى أدارت عينيها وجرت القبضة بقوة. وسمعت ضجة جافة وكاد أن يغمى عليها: لقد اعتراها نفس الانطباع الذي أحست به عندما ألقوا برفش من التراب فوق نعش أبيها.

"لم يكن هنري لطيفًا. كان ينبغي أن يقف ويرافقني حتى الباب. يبدو لي أن حزني كان أقل لو أنه أغلق الباب بنفسه".

obeikandl.com

قالت ريرات وهي تنظر إلى البعيد:

- لقد أقدمت على هذا العمل! أقدمت على هذا!

الوقت مساء. نحو الساعة السادسة كان بيار قد اتصل هاتفيًا يريرات فجاءت لمقابلته في مقهى القبة.

وقال بيار:

- ولكن أنت، أما كان ينبغي ألا تذهبي لمقابلتها في الساعة التاسعة؟

- لقد قابلتها.

- لم تكن هيئتها غريبة؟

فقالت ريرات:

- كلا. لم ألاحظ شيئًا. كانت متعبة نوعًا ما، لكنها قالت لي أنها نامت نومًا سيئًا بعد ذهابك لأنها كانت شديدة التأثر أمام فكرة السفر إلى نيس ولأنها كانت تخشى الصبي الجزائري.. كما أنها سألتني إذا كنت أعرف هل أنك اخترت المكان في الدرجة الأولى، إذ إن هذا حلم حياتها.

وأضافت ريرات بتصميم:

- كلا أنا متأكدة من أن شيئًا من هذا القبيل لم يبد على وجهها، طيلة وجودي معها على الأقل. لقد مكثت ساعتين معها، وأنني شديدة الملاحظة لأشياء كهذه، ويدهشني أن يفوتني منها أمر ما. ستقول لي أنها كتومة جدًا، لكنني أعرفها

منذ أربع سنوات ورأيتها في زحمة المناسبات، إنني أضع لولو على طرف اصبعي.

- إذا أن هناك من دفعها إلى ذلك.

- فيا له من أمر مضحك...

وحلم لبضع ثوان وأضاف فجأة:

- أود أن أعرف من الذي أعطاهم عنوان لولو: فأنا الذي اخترت الفندق ولم تكن قد سمعت به مسبقًا.

كان يعبث برسالة لولو، وريرات يبدو عليها الانزعاج لأنها تريد قراءة الرسالة، لكن بيار لم يقترح عليها ذلك. وسألت أخيرًا:

- متى تلقيتها؟

- الرسالة؟

فأعطاها إياها ببساطة:

- خذي، بإمكانك قراءتها. لعلهم وضعوها عند الحاجب نحو الساعة الواحدة.

كانت ورقة بنفسجية رقيقة، كالأوراق التي تباع في مخازن التبغ:

"عزيزي الكبير.

"جاء آل تكزيي (لست أدري من أرشدهم إلى العنوان). سأسبب لك متعبة، لن أذهب يا حبيبي، يا عزيزي بيار. سأظل مع هنري لأنه تعيس جدًا. جاؤوا لزيارته هذا الصباح، لم يكن يريد أن يفتح، وقالت السيدة تكزيي أن صورته لم تعد كصورة الإنسان. كانوا لطفاء جدا فهموا جميع مبرراتي، وقالت أنه مصدر الأخطاء كلها، وأنه دب، ولكنه ليس شريرًا في جوهره.

وقالت أنه يستحق هذا التصرف ليدرك إلى أي حد يتمسك بي. لا أدري من الذي سلمهم عنواني، لم يقولوا ذلك لي، لعلهم شاهدوني صدفة حين خرجت من الفندق بصحبة ريرات. وقالت لي السيدة تكزيي أنها تدرك تماما قيمة التضحية التي تطلب إليّ القيام بها، لكنها تدرك أنني لن أتخلف عن القيام بالتضحية. أنني آسف كثيرًا على رحلتنا الجميلة إلى نيس، يا حبيبي. أنا لك من كل قلبي وبكل جسمي، وسنتقابل أكثر مما كنا نتقابل في الماضي. لكن هنري سينتحر بدوني، فأنا بالنسبة إليه لا يمكن الاستغناء عني وأؤكد لك بأنني لا أجد متعة في تحمل مسؤولية كهذه. وآمل ألا تغضب كثيرًا كعادتك فتخيفني فأنت لا تريد أن يعترينـي عذاب الضمير. سأعود إلى بيت هنري في الحال. ولا بد وأن أكون مزعوجة حين ألاقيه على هذه الحال لكنه ستكون لدي الشجاعة حتى أفرض شروطي. أولًا أريد مزيدًا من الحرية لأنني أحبك، وأريد أن يترك روبير وشأنه وألا يتفوه بكلمة بحق والدتي. عزيزي، أنا حزينة جدا، أريدك أن تبقى هنا، فأنا راغبة بك، وأضم صدري إليك وأشعر بدغدغتك في جميع أنحاء جسمي. سأكون غدًا في الخامسة في مقهى القبة –

لولو"

- يا لك من مسكين يا بيار.
أخذته ريرات بيده. فقال بيار:
- أقول لك أنني أندم من أجلها هي فقط! كانت بحاجة للهواء وللشمس.
لكنها إذ تقدم على هذا القرار..
وأضاف:
- كانت أمي تسبب لي متاعب شديدة. فالدارة هي ملكها، ولم تكن تريد أن أقود إليها أية امرأة.
فقالت ريرات بصوت شبه مقطوع:
- آه! آه! حسنًا جدًا، فإن الجميع مسرورون!
وتركت يد بيار وأحست بدون أن تعرف السبب، بالأسف المرير يجتاحها.

obeikandl.com

طفولة قائد

أنا رائع في بذلة الملاك هذه". قالت السيدة بوتييه لأمي:

- ولدك الصغير يلذ أكله. فهو رائع في بذلة الملاك. وجذب السيد بونارديه لوسيان إلى ما بين ساقيه وداعب ذراعه وقال مبتسمًا:

- حقًا إن هذه الفتاة صغيرة.

- ما اسمك؟ جاكلين أو لوسيانه أو مارغو؟

ولم يكن متأكدًا من أنه ليس فتاة صغيرة: فكثير من الناس قبلوه وهم يدعونه بالآنسة، ووجده الجميع جذابا بجناحيه الملائكيين، وبثوبه الأبيض الطويل، وبذراعيه المكشوفتين وبجدائله الشقراء. كان يخشى أن يقرر الناس فجأة أنه لم يعد صبيًا. ولطالما احتج، ولكن أحدًا لم يصغ إليه، وليم يسمح له بخلع فستانه إلا حين يريد أن ينام، وفي الصباح عندما يستيقظ يجد الفستان على طرف السرير، وعندما يريد أن يبول أثناء النهار، كان عليه أن يشمر فستانه مثل نانيت، وأن يجلس القرفصاء على رجليه. كان الجميع ينادونه: يا عزيزتي الصغيرة، لعل الأمر قد أنتهى و"أصبحت" فتاة صغيرة. كان يحس بأنه شديد الرقة من الداخل، كما أن فمه يخرج من بين شفتيه بمقدار، وهو يقدم الزهور لجميع الناس بحركات دائرية. وفكر. ليس هذا حسنًا. كان بوده ألا يكون هذا حسنًا، لكنه تسلى كثيرًا يوم الثلاثاء من أيام الفصح، ارتدى ثيابًا على طريقة بيارو، وركض وقفز وهو ويضحك مع ريري، كما اختبأ تحت

الطاولة. وضربته أمه ضربة خفيفة وقالت: "أنا فخورة بولدي الصغير". كانت قوية الشخصية جميلة، وهي أكثر النساء سمنة. وعندما مر أمام الطاولة الكبيرة المغطاة بغطاء أبيض رفعه أبوه وكان يحتسي قدح الشمبانيا وقال له: "يا رجلي الطيب!" وأراد لوسيان أن يبكي وأن يقول "نا!" وطلب عصير البرتقال المثلج وكان قد منع عنه. لكنهم صبوا له قدر إصبعين في كأس صغير. كان طعمه كريهًا وليس شديد البرودة: أخذ لوسيان يفكر بالعصير الممزوج بالخروع، وكان قد شربه أثناء مرضه. وأجهش بالبكاء ووجد تعزية لنفسه في الجلوس بين أمه وأبيه في السيارة. كانت الوالدة تضم لوسيان إليها، وهي معطرة دافئة، ترتدي لباسًا حريريًا. وكان داخل السيارة يتحول من وقت لآخر إلى لون أبيض كالطبشور، فيحرك لوسيان عينيه، إن الزهور التي كانت موجودة على صدرية أمه، كانت تخرج من الظل فيتنشق لوسيان رائحتها. وبكى قليلًا بعد ذلك لكنه أحس بأنه مبلل، وكريه نوعًا ما كذاك العصير. أنه يفضل أن يتخبط في المغطس وتغسله أمه بالإسفنج. وسمح له بأن ينام في غرفة أبيه وأمه كما لو كان صغيرًا. فصار يضحك ويحرك حديد السرير فيقول والده "هذا الولد شديد الهيجان". وشرب قليلًا من ماء الورد ورأى أباه بالقميص.

وفي صبيحة الغد كان لوسيان متأكدًا من أنه نسي شيئًا ما. أنه يتذكر تمامًا الحلم الذي رآه: أبوه وأمه يرتدي كلاهما ثوب الملائكة، ولوسيان جالس بدون ثياب فوق مبولته، يضرب على الطبل، وأبوه وأموه يدوران حوله. كان ذلك كابوسًا. ولكن

هناك شيئًا ما حدث قبل الحلم ولما حاول التذكر، رأى نفقًا طويلًا مضاء بمصباح أزرق شبيه بالمصباح الذي يضيئوه مساء في غرفة أبويه. وفي قعر هذا الليل المعتم الأزرق، قد حصل شيء ما - شيء ما أبيض اللون. وجلس على الأرض عند قدمي أمه وأمسك طبله. فقالت له أمه: "لماذا تنظر بهاتين العينين يا جوهرتي؟" فأخفض عينيه وضرب على طبله وهو يصيح: "بوم، بوم، ترارا بوم". لكنها لما أشاحت بوجهها بدأ ينظر إليها بإمعان وكأنه يراها للمرة الأولى. الفستان الأزرق كان يعرفه، والوجه أيضًا. إلا أنه بات مختلفًا. وظن فجأة بأن الأمر قد تم. فلو فكر قليلًا لتوصل إلى ما يريد. وأضئ النفق بنور داكن، كان شيء ما يتحرك. وخاف لوسيان وأطلق صيحة: لقد اختفى النفق. وقالت أمه: "ما بك يا عزيزي الصغير؟" لقد ركعت على مقربة منه وعليها سيماء القلق. فقال لوسيان: "إنني أتسلى". كانت رائحة والدته لذيذة، لكنه خشي أن تمد يدها إليه. كانت تبدو مضحكة وكذلك أبوه. وقرر ألا ينام بعد اليوم في غرفتهما.

في الأيام التالية، لم تلحظ الوالدة شيئا دائما في حضنها يحدثها كالرجل الكبير. وطلب إليها أن تقص عليه قصة الفتاة والذئب، ووضعته والدته على ساقيها. وأخبرته عن الذئب وعن جدة الفتاة. ولوسيان ينظر إليها ويقول: "وبعدها؟" وكان يداعب في بعض الأحيان الأقراط التي في عنقها، لكنه لم يكن يصغي إليها بل يتساءل إذا كانت هي أمه الحقيقية. وعندما تفرغ من قصتها يقول لها: "أمي، أخبريني عندما كنت فتاة صغيرة". وأخبرته أمه: ولعلها تكذب عليه. لعلها كانت في

الماضي صبيًا صغيرًا ألبسوها فساتين - كما فعلوا مع لوسيان في تلك الأمسية - وأنها لا تزال ترتديها للتظاهر بأنها فتاة. وجس برفق ذراعيها الجميلتين اللتين كانتا ناعمتين كالزبدة تحت الحرير. ماذا يحدث لو خلعت أمه فستانها وارتدت سروال أبيه؟ لعل شاربين أسودين ينبتان في وجهها. وشد على ذراع أمه بكل قواه. وتهيأ له أنها ستتحول أمام عينيه إلى وحش رهيب أو أن تصبح امرأة ذات لحية كامرأة المعرض. وضحكت فاتحة فمها الواسع، فأبصر لوسيان بلسانها الوردي وبآخر بلعومها: كانت قذرًا، واعترته رغبة في أن يبصق فيه. وتقول أمه، "ها ها ها ! كم أنك تشدني يا رجلي الصغير! شدني بقوة. بقدر ما تحبني". وتناول لوسيان إحدى اليدين الجميلتين ذات الخواتم الفضية وأمعن فيها تقبيلًا. ولكن، في صبيحة اليوم التالي، وبينما كانت تجلس بجواره تمسك بيديه بينما هو قاعد فوق المبولة، تقول له: "اضغط يا لوسيان" اضغط، يا جوهرتي الصغيرة". وتوقف فجأة عن الضغط وسألها لاهثًا: "هل أنك أمي الحقيقية على الأقل؟" وقالت له "أيها المغفل الصغير". وسألته إذا كان سيتم الشيء بسرعة. منذ ذلك اليوم بات لوسيان مقتنعًا من أنها تقوم التمثيل أمام عينيه، ولن يقول لها أنه سيتزوجها عندما يصبح كبيرًا. لكنه لم يكن يعرف كثيرًا ما هي تلك المهزلة: إذ من الممكن أن يكون اللصوص قد جاؤوا في الليل فسرقوا أمي وأبي ووضعوا هذين في مكانهما. أو أنهما أبواي الطيبان، لكنهما يلعبان دورًا في النهار، بينما هما يختلفان في الليل. لم يندهش لوسيان كثيرًا عشية الميلاد حين استفاق مذعورا ورآهما يضعان الألعاب في

المدخنة. وفي الصباح تحدثا إلى البابا نويل، وتظاهر لوسيان بأنه يصدقهما. فظن أن ذلك من ضمن أدوارهما. ولعلهما سرقا الألعاب في شهر شباط أصيب بالحمى الحصبية وتسلى كثيرًا.

ولما شفي، اعتاد على تمثيل دور اليتيم. كان يجلس وسط المرج، تحت شجرة الكستناء، يملأ يديه بالتراب ويفكر: "سأصبح يتيمًا وسأدعى لويس. ولن أتناول طعامًا قبل ستة أيام". ونادته الخادمة جرمين ليتناول طعام الغداء، جلس إلى المائدة وتابع اللعبة. ولم يلاحظ أمه وأبوه شيئًا. لقد التقطه لصوص يريدون أن يجعلوا منه نشالًا. وحين ينتهي من تناول الطعام، سيهرب ليشكوهم. أكل وشرب قليلًا جدًا. كان قد قرأ كتاب فندق الملاك الحارس، أن الوجبة الأولى التي يتناولها الرجل الجائع تكون خفيفة. كان شيئًا ممتعًا لأن الجميع يلعبون. فأمه وأبوه يلعبان دور الأب والأم. والأم تلعب دور المعذبة لأن جوهرتها لا تأكل كفاية، وأبوه يلعب دور قارئ الجريدة ويهز من وقت لآخر إصبعه في وجه لوسيان قائلًا: "بدا بوم، أيها الرجل الطيب". ولوسيان كان يلعب أيضًا، ولكنه خلص في النهاية إلى عدم تمييز الشيء الذي كان يلعب به. أهو يلعب دور اليتيم؟ أو دور لوسيان؟ ونظر إلى القنينة. كان هناك ضوء أحمر خافت يتراقص في قعر المياه، ولعله بالإمكان أن نقسم بأن يد أبيه كانت في القنينة، وهي كبيرة مشعة، على أصابعها شعيرات سوداء. وتهيأ للوسيان أن القنينة تلعب دور القنينة. وأخيرًا، لم يكن يمد يده إلى الأطباق وقت الطعام، وبعد الظهر جاع كثيرًا مما اضطره إلى سرقة اثنتي عشرة خوخة وكاد أن يصاب بعسر الهضم. وفكر بأنه اكتفى من لعب دور لوسيان.

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن ذلك وبدا له طيلة الوقت أنه يلعب. كان بوده أن يكون مثل السيد بونارديبه الدميم الخلقة والرصين معًا. كان السيد بونارديبه حين يريد أن يأكل، ينحني على يد الوالدة قائلا لها: "تحياتي، يا سيدتي العزيزة". ويقف لوسيان وسط قاعة الاستقبال متطلعًا بإعجاب". ولكن لم يكن يحصل للوسيان أي أمر هام. فحين يقع ريتورم، يتوقف عن البكاء ويتساءل: "هل صحيح أنني تورمت؟" عندها يشعر بأنه أكثر كآبة وتنهمر الدموع من عينيه. ولما قبل يدي الوالدة وهو يقول لها: "تحياتي يا سيدتي العزيزة". وبعثرت الوالدة شعره قائلة له:

"ليس هذا مناسبًا، يا فأرتي الصغيرة، فلا ينبغي أن تهزأ من الأشخاص الكبار". وأحس بأن همته قد ثبطت. ولم يكن يتوصل لإيجاد بعض الأهمية لنفسه إلا أول جمعة وثالث جمعة من الشهر. ففي هذين اليومين، كان كثير من النساء يأتين لزيارة أمه، من بينهن اثنتان أو ثلاثة في ثياب الحداد. كان لوسيان يحب النساء المتشحة بالسواد خصوصًا إذا كانت أرجلهن كبيرة. كان يستمتع بوجود الأشخاص الكبار بصورة عامة، لأنهم شديدو الوقار، ولا يمكن أن يغفلوا أنفسهم فوق الأسرة عابثين كالأولاد، ولا يمكن أن نتصور ما يوجد تحت ثيابهم لكثرة تلك الثياب وتنوعها. وعندما يكونون معًا، فهم يأكلون من كل شيء ويتحدثون، حتى ضحكاتهم فهي رزينة، وجميلة كوقت القداس. كانوا يعاملون لوسيان وكأنه إحدى الشخصيات. كانت مدام كوفان تأخذ لوسيان في حضنها وتجس مؤخرته قائلة: أنه أجمل ظريف رأيته". عندها، تسأله عن

أذواقه، وتقبله وتستفسر عما يريد أن يفعله في المستقبل. وتارة ما كان يجيب بأنه سيصبح قائدًا كبيرًا على غرار جان دارك وبأنه سيستعيد الأرزاس واللورين من الألمان، وطورًا يفكر بأن يكون بشرًا. كان يصدق نفسه، طيلة الوقت الذي يتكلم فيه. كانت السيدة بيس امرأة طويلة قوية ذات شاربين صغيرين. تقلب لوسيان وتدغدغه قائلة: "يا لعبتي الصغيرة". ولوسيان يشعر بلذة ويرتعش تحت يديها اللتين تداعبانه. وفكر بأنه لعبة صغيرة، لعبة صغيرة جذابة للأشخاص الكبار وتمنى لو أن السيدة بيس تنزع ثيابه، وتغسله وتضعه في سرير صغير لينام كجسم من المطاط. وكانت مدام بيس تقول أحيانًا: "هل تنطق لعبتي؟" وتضغط على معدته فجأة. عندها، يتظاهر لوسيان بأنه لعبة آلية ويقول: "كويك" بصوت مخنوق، مما يضحك الاثنين معًا.

كان يسأله الكاهن الذي يأتي لزيارتهم نهار السبت إذا كان يحب والدته. ولوسيان يحب والدته الجميلة حتى العبادة وكذلك أباه القوي الطيب. فيجيب: "نعم" وهو ينظر إلى الكاهن في عينيه، بهيئة تضحك الجميع. كان رأس الكاهن كثمرة التوت. وقال للوسيان أن هذا حسن، وأن على المرء أن يحب أمه دائمًا. ثم سأله إذا كان يفضل والدته على الله أو بالعكس. ولم يستطع لوسيان أن يعثر على الإجابة بسهولة فراح يضرب الأرض صائحًا: "بوم، ترا ترا بوم". وتابع الأشخاص الكبار حديثهم وكأنه ليس موجودًا. وركض إلى الحديث وتسلل إلى الخارج من البوابة الخلفية. وحمل عصاه الصغيرة المصنوعة من الخيرزان. لم يكن لوسيان بالطبع يريد الخروج من

الحديثة، فهذا ممنوع. ومن عادة لوسيان أن يكون مطيعًا لكنه قرر هذه المرة أن يعمد إلى العصيان ونظر إلى العوسجة نظرة ملؤها التحدي. من الواضح أنه مكان ممنوع. كان الجدار محمرًا، والعوسجات نباتات خبيثة ضارة، وقد قضى كلب من الكلاب حاجته على جذع العوسجة. كانت تفوح رائحة العوسجة، وبعرة الكلب والنبيذ الساخن. وضرب لوسيان العوسجة بعصاه صائحًا: "أنا أحب أمي، أنا أحب أمي". ورأى أغصان العوسج تنكسر وتنزاح عنها قشورها. وسمع صوتًا صغيرًا منفردًا يصيح: "أحب أمي. أحب أمي". كانت هناك ذبابة كبيرة تئز: كانت ذبابة من تلك التي تحوم على الأقذار، فزع لوسيان منها وملأت منخريه رائحة عفنة. وكرر بقوله: "أحب أمي". لكن صوته بدا غريبًا، فاعتراه خوف شديد ففر لتوه إلى قاعة الاستقبال. منذ ذلك اليوم، فهم لوسيان أنه لا يحب أمه. ولم يكن يشعر بالذنب بسبب ذلك، لكنه ضاعف من دماثته لأنه فكر بأن من الواجب أن يتظاهر الإنسان طيلة حياته بأنه يحب أهله وإلا فيكون ولدًا شريرًا. كانت السيدة فلورييه تجد لوسيان شديد الرقة. واندلعت الحرب في هذا الصيف، وذهب الأب إلى القتال، ورأت الأم نفسها سعيدة، وسط أحزانها، باهتمام لوسيان بها. ففي كل مرة تذهب فيها إلى الحديقة، يعمد لوسيان إلى حمل مخدة يضعها تحت رأسها أو أنه يحمل غطاء ويضعه فوق ساقيها فتقول له: "لكن هذا سيجعلني أشعر بشدة الحر، كم أنت لطيف يا رجلي الصغير". ووكان بدوره يقبلها بعنف قائلًا لها:

"يا أمي أنا!". ويذهب ليجلس في ظل شجرة الكستناء.

ويقول "شجرة الكستناء" وينتظر. لكن أي شيء لم يحصل. كانت الوالدة مستلقية تحت الشرفة، وسط سكون خافت. وكانت تفوح رائحة العشب الساخن. والجو ملائم لتقليد المغامرين في الغابة العذراء. لكن لوسيان لم يعد يرغب باللعب. والهواء يرتجف فوق الجدار، والشمس تصنع بقعًا محرقة على الأرض وعلى يدي لوسيان. "شجرة الكستناء!" كان أمرًا مثيرًا، حين يقول لوسيان لأمه "يا أمي الجميلة، يا أمي أنا". تضحك أمه، وحين ينادي جرمان بالبندقية القديمة، تبكي جرمين وتشكوه إلى الوالدة. ولكنهم حين يلفظون كلمة شجرة الكستناء، لم يكن يحصل شيء. وتمتم من بين أسنانه "يا لها من شجرة قذرة". ولم يكن مطمئنًا، ولكن بما أن الشجرة لا تحرك، لذا يضيف بصوت أكثر ارتفاعا: "يا للشجرة القذرة، يا لشجرة الكستناء القذرة! انتظري وسترين، انتظري قليلًا!" وكان يرفسها برجله مرات عديدة. وتظل الشجرة هادئة، هادئة - كما لو أنها من خشب. وفي المساء ساعة العشاء يقول لوسيان لأمه: "هل تدرين يا أمي، الأشجار هي من الخشب" يقول ذلك بوجه المدهوش الذي تحبه الأم كثيرًا. غير أن السيدة فلورييه لم تتلق رسالة في بريد الظهر. فقالت بجفاف: "لا تكن سمجًا". صار لوسيان يكسر كل شيء. كسر جميع لعبه ليرى كيف صنعت، وقطع ذراع الكنبة بسكين أبيه القديم. وعندما يتنزه كان يقطع النباتات والأزهار بعصاه: كما كان في كل مرة يصاب بخيبة أمل، فالأشياء ليست مصنوعة صنعًا حسنًا. وغالبًا ما تسأله أمه وهي تدله على الأزهار أو الأشجار: "ما اسم هذه؟" لكن لوسيان يهز رأسه ويقول: "ليس هذا شيئًا، واسمها لا شيء".

كل هذا ليس جديرًا بأن يسترعي الانتباه، إذ كان من الأسهل قطع رجل جرادة، لأنها تهتز بين الأصابع كالدوامة وإذا ضغطنا على بطنها، خرج منه سائل أصفر. لكن الجرادات لم تكن لتصرخ مع ذلك. كان بود لوسيان أن يؤذي الحيوانات التي تصرخ عند إيذائها، كالدجاجة مثلًا، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من تلك الحيوانات وعاد السيد فلورييه في شهر آذار لأنه كان رب عمل، وقال له القائد بأن من الأفضل أن يظل في مصنعه على أن يمضي وقته في الخنادق كأي كان. ووجد لوسيان قد تغير كثيرًا ولم يعد يرى فيه رجله الطيب. وقع لوسيان في نوع من الروبصة: كان يجيب برخاوة، ويحشو اصبعه في أنفه أو ينفخ في يديه ثم يشمهما، وكان عليهم أن يرجوه ليقضي حاجته. وهو يذهب الآن تلقائيًا إلى المكان الصغير، كان من الضروري فقط أن يظل الباب مفتوحًا نصف فتحة وأن تأتي لتشجيعه أمه أو جرمين. كان يبقى ساعات عديدة على العرش كما كان ينام في بعض الأحيان. قال الطبيب أنه ينمو بسرعة ووصف له دواء يساعد على بناء الجسم. وأرادت الوالدة أن تعلم لوسيان ألعابًا جديدة، لكن لوسيان وجد أن ما يعرفه من ألعاب يكفيه وأن جميع الألعاب سواء. كان يبدي استياءه أكثر الأحيان، وهذا أيضًا نوع من أنواع اللعب ولكنه أكثر تسلية. إن الوالدة تتعذب، أصبح الجميع حزينين حاقدين، كما أصبحوا مكمومي الأفواه متجهمي الوجوه، والطقس حار في الداخل كما لو كان المرء في فراشه تحت الغطاء يشم رائحة نفسه، ولم يعد لوسيان يستطيع تجنب الاستياء، وعندما يقول له أبوه "أنت تقلد معي الخنزير" يرتمي

لوسيان على الأرض ويبكي كثيرًا. لا يزال يذهب كثيرًا إلى قاعة الاستقبال حين تستقبل والدته الزائرين، ولكن اهتمام الناس به قد تضاءل منذ أن قصوا له جدائله. أو إذا ما التفتوا إليه، فلكي يشرحوا له درسًا في الأخلاق أو يقصوا عليه قصة لإرشاده. عندما أتى ابن خالته ريري إلى فيرول، بسبب إلقاء القنابل، برفقة خالته برت الجميلة، سر لوسيان كثيرًا وحاول أن يعلمه اللعب. لكن ريري كان يهتم أكثر بكره الألمان، ثم أنه لا يزال يشعر بأنه طفل رغم أنه أسن من لوسيان بستة أشهر. وكانت على وجهه بقع صفراء، كما أنه لا يفهم الأمور في جميع الأوقات. لكن لوسيان أفضى إليه بالسر، أنه مروبص. بعض الأشخاص يفيقون في الليل، فيتكلمون ويتنقلون وهم نيام: قرأ لوسيان هذا في كتاب المغامر الصغير وفكر بأنه من الواجب أن يوجد شخص حقيقي اسمه لوسيان يمشي ويتحدث ويحب أبويه حبًا صادقًا في الليل. لكنه بمجئ النهار، كان ينسى كل شيء ويعود إلى التظاهر بأنه لوسيان. في البدء لم يكن لوسيان يؤمن كثيرًا بهذه القصة، لكنه ذهب في أحد الأيام مع ابن خالته إلى العوسجات، وأظهر ريري عضوه للوسيان وقال له: "كم هو كبير، أنا صبي كبير. وعندما يصبح كبيرًا جدًا، عندها أصير رجلًا وأذهب لأقاتل الألمان في الخنادق". وجد لوسيان ريري مضحكًا جدًا وأخذ يقهقه بقوة. وقال ريري: "أرني الذي لك". وأجريا المقابلة فكان عضو لوسيان أصغر، لكن ريري غشه: إذ شد على عضوه ليزيد في طوله. وقال ريري: أنا الذي ملك عضوًا أكبر. فقال لوسيان بهدوء:

- نعم، ولكنني أنا المروبص. لم يكن ريري يعرف ما هو المروبص، وشرح له لوسيان ذلك. وعندما انتهى فكر في نفسه: "إذا فصحيح أني مروبص". واعترته رغبة شديدة في البكاء. وبما أنهما كانا ينامان في فراش واحد، اتفقا على أن يبقى ويري مستيقظًا طيلة الليل ويراقب لوسيان عندما ينهض، ويحفظ كل ما يتفوه به لوسيان.

وقال لوسيان:

- ستوقظني بعد هنيهة، لأرى إذا كنت أتذكر ما فعلته؟ وفي المساء سمع لوسيان الذي عجز عن النوم الشخير الحاد وأيقظ ريري. وقال ريري: "زنجبار".

- استيقظ يا ريري فعليك أن تراقبني حين أستيقظ.

فقال ريري بصوت رخو:

- دعني أنم.

فهزه لوسيان وقرصه تحت قميصه، فأخذ ريري يلبط برجليه وظل مستيقظًا، مفتوح العينين، وعلى شفتيه ابتسامة طريفة. وفكر لوسيان بدرجة كان على أبيه أن يشتريها له، وسمع صفير القطار، وفجأة دخلت الخادمة وأزاحت الستار، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا. لم يدر لوسيان قط ما أقدم عليه طيلة الليل. أما الله فكان يعرف، هو، لأن الله يرى كل شيء. كان لوسيان يركع في مكان العبادة ويجهد نفسه لكي يكون عاقلًا، حتى تهنئة والدته عند انتهاء القداس، لكنه كان يمقت الله: لأن الله يعرف عن لوسيان أكثر مما يعرف لوسيان عن نفسه. يعرف الله أن لوسيان لا يحب أمه ولا أباه، وأنه يتظاهر بأنه عاقل، وأنه يلامس عضوه عند المساء في السرير.

ولحسن الحظ، ليس بإمكان الله أن يتذكر كل شيء، لأن في العالم كثيرًا من الصبيان الصغار. فحين يضرب لوسيان على جبينه قائلًا: "بيكوتان" كان الله ينسى لتوه ما يراه. وألقى لوسيان على عاتقه مهمة إقناع الله بحبه لأمه. "لكم أحب أمي العزيزة" لكن فيه زاوية صغيرة لم تكن مقتنعة، والله بالطبع يرى هذه الزاوية الصغيرة. وفي هذه الحال يكون "هو" الرابح. لكن بإمكان المرء أحيانًا أن يؤخذ تمامًا بكل ما يقوله. إذ يقول: "أوه! كم أحب والدتي"، بلفظ جميل، فيحس بأنه يرق، ويفكر تفكيرًا مبهمًا، بأن الله ينظر إليه ثم لا يعود يفكر، إذ يصبح مأخوذًا بالحنو. ثم أن هناك كلمات تتراقص في الأذن: "أمي. أمي. أمي" ولا يستمر هذا سوى لحظة بلا ريب، وكأن لوسيان يريد أن يوقف الكرسي على رجلين اثنين. وفي هذه اللحظة يقول: "باكوتا" فيصنع الله من جديد: فهو لم ير سوى الخير، وما رآه يعلق في ذاكرته نهائيًا. بيد أن لوسيان قد سئم هذه اللعبة لأنها تستوجب جهودًا عنيفة، ولا ندري في النهاية إذا كان الله قد ربح أم خسر. ولم يعد لوسيان يهتم بالله. ولما تناول للمرة الأولى، قال عنه الكاهن أنه أعقل وأتقى صبي في التعليم المسيحي. كان لوسيان يفهم بسرعة كما أن ذاكرته قوية، لكن رأسه ملئ بالضباب.

يوم الأحد انقشع الضباب، وتمزق عندما كان "لوسيان يتنزه برفقة والده على طريق باريس. كان يرتدي بذلته الصغيرة الزرقاء ويصادف عمال أبيه الذين كانوا يقدمون التحية له ولأبيه. كان الأب يقترب منهم فيقولون: مرحبا أيها السيد فلورييه. ولوسيان يحب العمال كثيرًا فهم أشخاص كبار،

لكنهم ليسوا كسائر الناس. في البدء كانوا ينادونه يا سيد. ثم أنهم كانوا يعتمرون القبعات وأيديهم الضخمة ذات الأضافر القصيرة يبدو عليها الألم. أنهم مسؤولون ووقورون. لا ينبغي أن يشد شاربي الأب بوليفو: لأن والد لوسيان يزجره. لكن الأب بوليفو عندما يحدث أباه: يخلع خوذته، بينما يبقى كل من لوسيان وأبيه قبعتيهما على رأسيهما، وكان أبوه يتحدث بصوت باسم غليظ:

- حسنًا أيها الأب بوليفون إننا ننتظر ولده، حتى يحين موعد فرصته؟

- في آخر الشهر أيها السيد فلورييه، شكرًا يا سيد فلورييه.

الأب بوليفو كان سعيدًا ولم يكن ليسمح لنفسه بأن يضرب على مؤخرة لوسيان ملقبًا إياه بالضفدع، كما يفعل السيد بونارديه، لأنه كان دميمًا جدًا. لكنه حين يرى الأب بوليفو، يشعر بأنه رق وتعتريه رغبة بأن يكون صالحًا. ومرة، بعد العودة من النزهة، أخذ الأب لوسيان على ركبتيه وشرح له ما هو الرئيس. أراد لوسيان أن يعرف كيف كان أبوه يتحدث إلى العمال عندما يكون في المصنع، وبين له الوالد الطريقة وقد تبدل صوته تمامًا. فسأله لوسيان: "هل سأصبح رئيسًا بدوري؟

- بكل تأكيد، يا رجلي الطيب، فلهذا صنعتك.

- ولمن سأعطي الأوامر؟

- حسنًا، عندما أموت، ستصبح رب العمل في المصنع وستأمر على عمالي.

- لكنهم سيموتون هم أيضًا.

- حسنًا، ستأمر على أبنائهم، وينبغي أن تعرف كيف يطيعونك ويحبونك.

- وما ينبغي أن أعمل ليحبوني يا أبي؟

وفكر الب قليلًا ثم قال:

- أولًا: عليك أن تتعرف عليهم كل باسمه.

لقد تأثر لوسيان كثيرًا، ولما أتى ابن المعلم موريل إلى البيت ليعلن أن أباه فقد إصبعين، تحدث إليه لوسيان بهدوء ورفق، ناظرًا إليه في وجهه وهو يناديه باسمه، موريل. وقالت الأم أنها فخورة بأن يكون لها ولد صغير طيب وحساس إلى هذا الحد. وبعد ذلك، جاءت الهدنة، وصار الأب يقرأ الجريدة بصوت عال كل مساء. والجميع يتحدثون عن الروس، وعن الحكومة الألمانية والإصلاحات، وأخذ الأب يدل لوسيان على البلدان الواقعة على الخريطة؛ أمضى لوسيان أكثر سنواته ضجرًا، كان يفضل زمن الحرب. أما الآن فيبدو أن الجميع ليس لهم عمل، كما انطفأ البريق الذي كان يرى في عيني السيدة كوفان. وفي تشرين الأول ١٩١٩، وضعته السيدة فلوريه في مدرسة القديس يوسف كتلميذ في القسم الخارجي.

كان الطقس حارًا في مكتب الأب جروميه. ووقف لوسيان قرب مقعد الأب واضعًا يديه خلف ظهره، متضجرًا أكثر ما يكون عليه الضجر. "ألا تريد أمي أن تذهب في الحال؟". لكن السيدة فلوريه لم تكن تفكر بالذهاب. بل أنها جلست على طرف الكنبة الخضراء مادة صدرها الواسع نحو الأب. كانت تتكلم بسرعة فائقة، بصوت ذي جرس موسيقي، مثلما كانت عليه عندما غضبت وأرادت ألا تظهر غضبها. أما الأب فكان

يتكلم على مهل، وبدت الكلمات في فمه أطول مما كانت عليه عند سائر الأشخاص، حتى وكأنه يمتص الكلمات كالسكر قبل أن يدعها تمر. كان يشرح للوالدة أن لوسيان صبي صغير مهذب نشيط لكنه عديم المبالاة بشكل فظيع، فتقول السيدة فلورييه أنها أصيبت بخيبة أمل لأنها ظنت أن تغيير المحيط سيكون له أثره الحسن. وسألت ما إذا كان يلعب أثناء الفرص على الأقل. فأجاب الأب:

- للأسف يا سيدتي. فحتى الألعاب يبدو أنها لا تهمه. أنه طائش في بعض الأحيان إلى حد العنف لكنه يتعب بسرعة.

أظن أن المثابرة تنقصه. وفكر لوسيان:

- أنهما يتحدثان عني.

هما شخصان كبيران، يصنعان موضوع حديثهما، تمامًا وكأنهما يتحدثان عن الحرب أو عن الحكومة الألمانية أو السيد بونكاريه. كانت تبدو عليهما مظاهر الرصانة وهما يفكران بحالته. لكن هذا التفكير لم يكن ليروق له. وقد امتلأت أذناه بكلمات أمه ذات الجرس، وبكلمات الأب اللزجة الذائبة، واعترته رغبة بالبكاء. ولحسن الحظ، دق الجرس، فأعديت إليه حريته. ولكن في درس الجغرافيا، ظل منفعلًا وطلب إلى الاب جاكين أن يسمح له بالذهاب إلى الزاوية لأنه يريد أن يتحرك.

في البدء، هدأت من روعه برودة الزاوية والرائحة العطرة فضلًا عن العزلة. ورفع رأسه وأخذ يقرأ ما كتب على الباب. لقد كتب بالقلم الأزرق: "باراتو هو بقة". فابتسم لوسيان: كان هذا صحيحًا، فبارتوهو بقة، إذ أنه صغير الحجم، ولعله سيكبر

قليلًا، ولكن لا، لأن أباه شديد القصر فهو أقرب إلى القزم. وتساءل لوسيان إذا كان باراتو قد قرأ هذه الكتابة وظن بأنه لم يقرأها: وإلا لكانوا أزالوها. إذ إن بارتو لا بد وأن يضع يده في فمه ويفرك الحروف حتى تختفي. وسر لوسيان بعض الشيء عندما تصور أن بارتو سيذهب في الساعة الرابعة إلى الزاوية الصغيرة وسينزل سرواله المخملي الصغير ويقرأ: "باراتو هو بقة" لعله لم يفكر قط بأنه شديد القصر. ووعد لوسيان نفسه بأن يدعوه بالبقة ابتداء من صباح الغد عند الفرصة. ثم نهض وقرأ على جدار اليمين خطأ مكتوبًا بالقلم الأزرق أيضًا: "لوسيان فلورييه هو هليونة كبيرة". فمحا الخط بعناية وعاد إلى الصف. وفكر في نفسه وهو ينظر إلى رفاقه:

- حقًا أنهم جميعًا اقصر مني.

وأحس بأنه غير مرتاح. "هليونة كبيرة". وجلس إلى مكتبه الصغير. كانت جرمين في المطبخ، ووالدته لم قعد بعد. وكتب "هليونة كبيرة" على ورقة بيضاء لكي يصحح خطأ الإملاء لأن رفاقه أخطأوا في كتابة الكلمة. لكن الكلمات لم تبد جديدة أمامه ولم تحدث فيه أي أثر.

ونادى: جرمين، يا جرمين!

فسألته جرمين:

- ماذا تريد أيضًا؟

- جرمين، أريد أن تكتبي على هذه الورقة "لوسيان فلورييه هو هليونة كبيرة".

وأحاط عنقها بذراعيه:

- جرمين، يا جرمين الصغيرة كوني لطيفة.

- أنت مجنون يا سيد لوسيان!

أخذت جرمين تضحك ومسحت يديها بمريولها. وبينما كانت تكتب، لم يكن لا ينظر إليها، لكنه أخذ الورقة إلى غرفته ونظر إليها طويلًا. كان خط جرمين دقيقًا. وخيل إلى لوسيان أنه يسمع صوتا جافا يرن في أذنه: "أيتها الهليونة الكبيرة". وفكر في نفسه: "أنا كبير". لقد سحقه الخجل: كبير مثلما أن بارتو صغير - وكان الآخرون يضحكون من خلف ظهره. وبدا وكأنه قد رمي بمصيره رميًا:

إن رؤية رفاقه من فوق تبدو له طبيعية إلى هذا الحد. ولكن في الوقت الحاضر، يبدو أنه حكم عليه بالبقاء كبيرًا طيلة حياته. وفي المساء سأل أباه إذا كان بالإمكان تصغيره إذا شاء. وقال السيد فلورييه أن لا: أن جميع أفراد عائلة فلورييه كانوا طوالًا أقوياء، وسيكبر لوسيان أيضًا، فيئس لوسيان. ولما لامسته أمه نهض وذهب ليرى نفسه في المرآة. "أنا طويل". لكنه مهما تطلع، فلن يرى شيئًا، فلم يكن يبدو عليه أنه طويل أو قصير. وشمر قميصه قليلًا ونظر إلى ساقيه. عندها تصور ن كوستيل يقول لهبرار:

- انظر، انظر ما في الهليونة الطويلتين، وكان هذا يضحكه. الطقس بارد. ارتجف لوسيان وقال أحدهم: "اقشعر بدن الهليونة". وشمر قميصه أيضًا ورأى سرته، وكل دكانه ثم ركض إلى سريره وانزلق فيه. وعندما وضع يده تحت قميصه، فكر بأن كوستيل يراه ويقول:

- انظروا قليلًا ما تفعله "الهيلونة الكبيرة!" وارتعش ودار في سريره وهو يلهث: "الهليونة الكبيرة! الهليونة الكبيرة!" حتى وجد تحت أصابعه مكانا يتأكله.

في الأيام التالية، رغب في أن يطلب إلى الأب أن يسمح له بالجلوس في آخر الصف. كان ذلك بسبب بواسيه ونكلمان وكوستيل الذين كانوا وراءه وبإمكانهم أن ينظروا إلى رقبته، كان لوسيان يحس برقبته، ولكن بدون أن يراها وغالبًا ما كان ينساها. لكنه عندما كان يحسن الإجابة على سؤال الأب، ويجيد إلقاء كلام دون دياغ، كان الآخرون وراءه ينظرون إلى رقبته وبإمكانهم أن يسخروا منه قائلين: "يا لها من نحيلة، ففي عنقه حبلان". ويجهد لوسيان نفسه لكي يضخم صوته ويعبر عن إهانة دون دياغ. كان يستطيع أن يفعل بصوته ما يشاء. لكن رقبته لا تزال في مكانها، هادئة غير معبرة وكأنها شخص يرتاح، فيراها باسيه. ولم يجرؤ على تغيير مكانه، لأنه المقعد الأخير كان مخصصًا للكسالى، لكن رقبته وكتفيه كانتا تتآكلانه طيلة الوقت وكان مرغمًا على حكهما بلا انقطاع. واخترع لوسيان لعبة جديدة: أن يغتسل عند الصباح بمفرده كالأشخاص الكبار، كان يتصور أن أحدا يتطلع إليه من ثقب الباب. تارة ما يكون هذا الشخص كوستيل، وطورًا الأب بوليفو، وطورًا آخر جرمين. وعندها دار في جميع الجهات حتى يراه الجميع من جميع وجوهه، وكان يدير قفاه أحيانًا نحو الباب ويقف على أربع حتى يقع فيضحك الناس. في أحد الأيام، وكان في المكان الصغير، سمع بعض القرقعة، أنه جرمين تريد أن تمسح طاولة الممر. وتوقف قلبه عن الحركة، وفتح الباب بتؤدة وخرج، ولا

يزال سرواله عند قدميه، وقميصه مشمرة عند خاصرتيه. كان مرغمًا على القيام بقفزات صغيرة لكي يتقدم بدون أن يضيع توازنه. ونظرت جرمين إليه وتساءلت في نفسها هل هو في حلبة السباق. ورفع بنطلوه بغضب وراح يرتمي فوق سريره. كانت السيدة فلورييه متاثرة، وغالبًا ما كانت تقول لزوجها: "هو الذي كان رائعًا في طفولته، انظر كيف أصبح الآن، ويا للأسف". وينظر السيد فلورييه نظرة ضائعة نحو لوسيان ويقول:

"أنه عامل السن!" لم يكن لوسيان يدري ما يجب أن يفعله بجسمه، وتهيأ له أن هذا الجسم يفرض وجوده من جميع النواحي بدون أن يستشيره، وتصور لوسيان أنه غير منظور، ثم اتخذ لنفسه عادة النظر إلى الآخرين من خلال ثقوب الأبواب ليعرف كيف يكون وجود الآخرين حين لا يشعرون به. رأى أمه عندما تستحم. كانت جالسة على مقعد الحمام، يبدو عليها النعاس، ولا شك أنها نسيت جسمها، وحتى وجهها لأنها لا تظن بأن أحدًا يراها. والأسفنجة تروح وتجئ تلقائيًا على هذا اللحم المهجور. وتقوم بحركات خاملة، الأمر الذي يبعث على الظن بأنها ستتوقف في منتصف الطريق. وفركت الأم شيئًا بالصابون ثم اختفت يدها بين ساقيها. كان وجهها مرتاحًا، حزينًا بعض الحزن، لا شك أنها تفكر في أمر آخر، بتربية لوسيان أو بالسيد بوانكاريه. لكنها ليست، في هذا الوقت سوى هذا الجسم الوردي الضخم الجالس على مقعد الحمام. ثم راح لوسيان ينظر من خلال ثقب آخر. فرأى جرمين بقميص أخضر طويل، تسرح شعرها أمام مرآة صغيرة مستديرة

وتبتسم لصورتها برخاوة. واعترت لوسيان ضحكة مجنونة وما لبث أن ابتعد بسرعة. بعد ذلك أخذ يبتسم ويكشر أيضًا في قاعة الاستقبال، وما هي إلا لحظة حتى اعتراه خوف شديد.

وما لبث لوسيان أن استسلم للنوم؛ ولكن، لم يقع عليه نظر أحد، سوى السيدة كوفان. إن كتلة من الهواء كبيرة كانت تقف في حلقة فلا يستطيع أن يبتلعها أو أن يبصقها: تلك كانت طريقته في التثاؤب. وعندما يكون وحده تكبر الكتلة كثيرًا حتى تصل إلى أسفل حلقه. فيفتح فمه على أشده، وتتدحرج الدموع من عينيه: أنها لحظات عذبة. لم يكن يتسلى قدر تلك التسلية حينما يكون في غرف الغسيل، لكنه كان يحب أن يعطس، وهذا ما يوقظه، فيتطلع حوله بنظرة تائهة. وتعرف على النوم بجميع أنواعه. في الشتاء كان يجلس أمام الموقد ويمد رأسه نحو النار. حين تكون النار شديدة الاحمرار، تحترق بسرعة. وهذا ما كان يسميه "النوم عن طريق الرأس". صباح الأحد كان على العكس ينام عن طريق القدمين: كان يدخل الحمام، وينحني قليلًا فيصعد النعاس على طول ساقيه وخاصرتيه. ومن فوق جسمه النائم كان يظهر رأسه الأشقر زاخرًا بالأفكار. وفي الصف كان النعاس أبيض، تتخلله البروق: "ماذا تريد أن يفعل تجاه ثلاثة؟" الأول: لوسيان فلورييه. الثاني: وينكلمان. أما بليرو فكان الأول في مادة الجبر. لم يكن لديه سوى خصية واحدة أما الثانية فلم تنزل. كان يفرض قرشين اثنين على النظر، وعشرة قروش على اللمس. ونقده لوسيان القروش العشرة، وتردد، ومد يده بدون أن يلامس، لكنه ندم على عمله هذا إلى حد أنه ظل مستيقظًا بعد موعده بساعة. لم يكن ماهرًا

في علم الجيولوجيا بقدر ما كان عليه في التاريخ. أنه الأول، ونكلمن ثأني فلورييه. يوم الأحد كان يذهب للنزهة على الدراجة، برفقة كوستيل ونكلمن. والدراجة تجوب الحقول فوق الغبار الناعم في طقس شديد الحرارة. كانت ساقا لوسيان مفعمتين بالحيوية، مليئتين بالعضلات لكن رائحة الطرقات كانت تصعد إلى رأسه فينحني فوق مقوده، وتحمر عيناه، ويغمضهما شبه إغماضة. حاز ثلاث مرات على درجة الشرف. وقدموا له "فابيولا أو كنيسة الديناميس"، و"عبقرية المسيحية" وحياة "الكاردينال لافيجري". وكوستيل علمهم جميعًا بعد العطلة على "الدي بروغوندس موريونيبوس". وعلى نشيد المدفع في متز. وقرر لوسيان أن يبحث في قاموس أبيه الطبيّ عن الفصل المتعلق "بالرحم". وبعدها شرح لهم كيف تكون النساء. حتى أنه رسم لهم صورة على اللوح، وصرح كوستيل بأن ذلك مؤسف، وبعد ذلك لم يعد بإمكانه أن يتحدث عن الآقنية بدون أن ينفجر بالضحك. وفكر لوسيان بأنه ما من طالب في الصف الثاني أو حتى في صف البكالوريا يتقن معرفة أعضاء المرأة كما يتقنها هو.

ولما أقامت عائلة فلورييه في باريس، كان ذلك بمثابة بريق من المانييزيوم. لم يعد بوسع لوسيان أن ينام بسبب صالات السينما والسيارات والشوارع. وتعلم كيف يميز بين سيارة الفوازين والبكار، وبين الإسبانو سويزا والرولز. منذ أكثر من سنة بات يرتدي السروال الطويل. وأرسله أبوه إلى إنكلترا مكافأة له على فوزه بشهادة البكالوريا. ورأى لوسيان مروجًا تزخر بالمياه، ومنحدرات بيضاء، وتعلم الملاكمة عند جون

لاتيمر، ولكنه في احدى الليالي استيقظ في نومه، لقد عاوده الروباص فعاد مروبصًا إلى باريس: كان صف الرياضيات في الليسيه كوندورسيه يعد سبعة وثلاثين طالبًا، بعضهم يحتقر لوسيان، وظلوا يحتقرونه حتى أول تشرين الثاني، وهو عيد جميع القديسين. وذهب لوسيان للنزهة مع صديقه غاري، وأبدى له معلوماته في التشريح الأمر الذي بهر الرفيق. ولم ينضم لوسيان لتلك الجماعة من الطلاب لأن أهله منعوه من الخروج صباحًا.

يوم الخميس جاءت العمة برت، لتتناول طعام الغداء مع ريري. في شارع رنواه. لقد أصبحت ضخمة الجثة حزينة، أمضت وقتها في التنهد. ولكن بما أن جسمها ظل طريئًا ناعمًان فقد تمنى لوسيان أن يراها عارية. كان يفكر فيها مساء في سريره: سيعثر عليها في يوم من أيام الشتاء، عارية في غابة بولونيا، تضع يديها فوق صدرها وقد اقشعر جسدها. وتصور أن أحد المارة، وهو قصير النظر، لامسها بعصاه قائلًا:

"ولكن ما هذا؟"

لم يكن لوسيان يتفق كثيرًا مع ابن خالته: أصبح ريري شابًا جميلًا شديد الأناقة، يدرس صف الفلسفة في لا كانال ولا يفقه شيئًا عن الرياضيات. ولم يكن لوسيان ليستطيع أن يمنع نفسه عن التفكير بريري. قبل سبع سنوات فقط كان يوسخ في سرواله، فيمشي بعدها منفرج الساقين كالبطة، وينظر إلى أمه قائلًا:

- كلا يا أمي، لم أفعل هذا. وأعدك بذلك. كان يشعر ببعض الاشمئزاز عندما يلامس ريري. كلنه، رغم ذلك، كان لطيفًا

جدًا معه وهو يشرح له دروس الرياضيات. وكان عليه أن يبذل مجهودًا قويًا لأن ريري لم يكن ذكيًا. غير أنه لم يثر قط، بل أنه حافظ على صوته الهادئ. ووجدت السيدة فلوريه أن لوسيان كان على جانب كبير من الدماثة، لكن العمة برت لم تجد له أية حسنة. ولما كان لوسيان يقترح على ريري أن يعطيه الدرس، تحمر السيدة برت وتهتز فوق كرسيها وتقول:

- كلا، أنت لطيف جدًا يا لوسيان الصغير، لكن ريري كبير جدًا. فبإمكانه أن يتعلم لو أراد، فلا ينبغي أن تعوده الاعتماد على الآخرين. وذات مساء قالت السيدة فلوريه فجاة للوسيان.

"أو تظن أن ريري شاكر لك صنيعك معه؟ كلا عد عن خطئك يا وردي العزيز".

تكلمت بصوتها ذي الجرس وبسيماء حسنة. وفهم لوسيان أنها تستشيط غيظًا. وأحس بانزعاجه ولم يجد شيئًا للإجابة. وفي الغد وبعده، حدثت له مشاغل كثيرة فخرجت هذه القصة من ذهنه.

ويوم الأحد صباحًا، ألقي ريشته فجأة وقال: "أصحيح أنني لا أميز.

كانت الساعة الحادية عشرة. ولوسيان جالس إلى مكتبه ينظر إلى صور الأشخاص المعلقة على الجدار. وأحس خده بحرارة نيسان الجافة الغبراء.

- أصحيح أنني لا أميز؟

كانت الإجابة عسيرة. وحاول لوسيان أن يتذكر محادثته الأولى مع ريري وأن يحكم على موقفه بلا تحيز. كان قد انحنى فوق ريري وسأله باسمًا:

- أنت تفعل ذلك؟ إن كنت لا تفعل يا عزيزي فاعترف بذلك؟

وبعدها قليل ارتكب خطأ في الحل فردد تعبيرًا أخذه عن أبيه. ولكن هل كنت أهذر عندما قلت هذا؟ ولشدة ما بحث توصل إلى معرفة شيء غامض في ذهنه يشبه قطعة الغمام: أنها فكرته في ذلك اليوم؛ قال: أنت تفعل هذا؟ لقد حصل هذا في رأسه، لكنه لم يكن يوصف. وبذل لوسيان جهودًا "يائسة" لينظر إلى هذه الغمامة، وأحس فجأة بأنه وقع فيها، ابتداء من الرأس. وقد تحول هو نفسه إلى غبار، ولم يعد بعد الآن سوى حرارة بيضاء رطبة، تفوح منها رائحة الغسيل. وأراد أن يتجنب هذا الغبار بتراجعه قليلًا، لكن الغبار كان يأتي معه. وفكر في نفسه: "أنا لوسيان فلوريه، أجلس في غرفتي، أحل مسافة في الطبيعيات، واليوم يوم أحد". لكن أفكاره تحولت إلى ضباب، بياض على بياض. وارتعش قليلًا وجعل يحلل شخصيات اللوحات الموجودة على الجدار، راعيان وراعيتان و"الحب" ثم قال في نفسه فجأة: "أنا، إنني..."

وحدثت ضجة خفيفة: فاستيقظ من روباصه الطويل.

لم يكن هذا شيقًا إذا قفز الرعيان إلى الوراء، وبدا للوسيان أنه ينظر إليه من خلف نظارة. وحل مكان الدهشة التي استبدت به، نوع من الحيرة اليقظة وتساءل.

"من أنا؟"

"من أنا؟" أنا أنظر إلى المكتب، إلى الدفتر. اسمي لوسيان فلوريه وليس هذا سوى اسم. إنني أهذر، أو لا أهذر. لست أدري. فليس لهذا أي معنى.

"أنا تلميذ نشيط: ولكن التلميذ النشيط يحب العمل - وأنا لا أحبه العمل. كما أنني لا أكره العمل، غير أنه لا يهمني. لا شيء يهمني. لن أصبح قط رئيسا". وفكر بنفسه قلقا: "ولكن ماذا سأصبح يومًا ما" ومرت هنيهة. وحك خده وغمز بعينه اليسرى لأن الشمس بهرته: "من أكون "أنا؟". أنها غمامة غامضة: "الأنا". ونظر إلى البعيد. فرنت الكلمة في رأسه، وأحس بشيء يشبه الهرم يغرق في الضباب. وارتعش لوسيان وارتجفت يداه وفكر في نفسه:

- ها قد توصلت. أجل توصلت. وأنا متأكد: "أنا لست موجودًا". طيلة الأشهر التالية، حاول لوسيان أن ينام ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا. كان ينام تسع ساعات في اليوم أما الباقي فكان يمضيه في الحيرة التي تزداد يومًا عن يوم! كان أبواه يقولان بأنه على أحسن حال. وعندما فكر بأنه لن يكون له رداء الرئيس، أحس بأنه رومنطيقي. واعترته رغبة بالمسير ساعات في ضوء القمر. لكن أبويه لا يسمحان له بالخروج مساء. في أغلب الأحيان كان يتمدد فوق سريره ويقيس حرارته: فيسجل الميزان ٣٧.٥ أو ٣٧.٦، ويفكر لوسيان بلذة مريرة كيف أن أبويه يجدانه بصحة جيدة "أنا لست موجودًا!" وأغمض عينيه وترك الأمور وشأنها.

الوجود ما هو إلا وهم؛ وبما أنني أعرف أنني لست موجودًا، فعلي إذا أن أسد أذني ولا أفكر بشيء، أريد أن أنعدم. لكن الوهم قاس. لعله يعرف على الأقل سرًا لا يدركه الآخرون وهو نوع من التفوق: غاري، مثلًا، ليس موجودًا ومثله مثل لوسيان. ولكن ما أن يرى بين المعجبين حتى يقال بأنه يؤمن

إيمانًا راسخًا بوجوده. والسيد فلورييه هو أيضًا غير موجود - وكذلك ريري رأي إنسان آخر - والعالم مهزلة بلا ممثلين. ولوسيان الذي حاز على علامة ١٥ في موضوع "الأخلاق والعلم". فكر بأن يكتب "موضوعًا عن العدم" وتصور أن الناس عند قراءته سيختفون الواحد تلو الآخر كالأفاعي عند صياح الديك. وقبل أن يبدأ بكتابة موضوعه، أراد أن يأخذ رأي بابوان أستاذ الفلسفة. قال له عند ختام الدرس:

- أرجوك يا أستاذ، هل بإمكاننا أن ندافع عن فكرة عدم وجودنا؟

فأجاب بادوان بالنفي وقال:

"أنت موجود لأنك تشك بوجودك". ولم يقتنع لوسيان لكنه عدل عن كتابة موضوعه. في تموز، نجح بغير ضجة في امتحان البكالوريا، فرع الرياضيات، وذهب إلى فيرول برفقة أبويه. ولم تتبدد الحيرة فيه، كان ذلك كالرغبة في العطس.

ومات الأب بوليفو، وتغير أسلوب العمال، عمال السيد فلورييه. فهم يقبضون الآن مرتبات ضخمة، وصارت زوجاتهن يشترين جوارب الحرير، وسردت السيدة بوفارديه وقائع رهيبة على مسمع السيدة فلورييه:

"أخبرتني الخادمة بأنها رأت عند بائع الشواء أمس، أوزيوم الصغيرة، وهي ابنة أحد عمال زوجك، تلك التي أولياها عنايتنا بعد وفاة أمها، لقد تزوجت من عام فني من بوبرتوي. طلبت فروجًا سعره عشرون فرنكًا، بوجه ملؤه التعجرف! لم تعد تعتبر أي شيء لذيذ الطعم تحت أسنانها؛ أنهن يردن أن يكون لهن ما لنا".

في الوقت الحاضر، عندما يذهب لوسيان برفقة أبيه للتنزه، لم يعد العمال يكنون لهما نفس الاحترام الذي كان في السابق، فهم لا يكادون يلامسون قبعاتهم لتحية الرئيس. ذات يوم، التقى لوسيان بابن بوليفو فتظاهر بأنه لم يره. وتأثر لوسيان من ذلك؛ كانت فرصة ليثبت أنه رئيس. فحدج جول بوليفو بنظرة كاسرة وتقدم منه واضعًا يديه وراء ظهره. لكن بوليفو لو يشعر بأي خوف: إذ نظر إلى لوسيان بعينين فارغتين وراح يصفر. وقال لوسيان في نفسه: "لم يعرفني". لكنه شعر في قرارة نفسه بخيبة الأمل، وبات يفكر أكثر من أي وقت مضى بأن العالم ليس موجودًا.

كان مسدس السيدة فلورييه الصغير موضوعًا في درج الخزانة. وكان زوجها قد قدمه لها في أيلول سنة ١٩١٤ قبل أن يذهب إلى الجبهة. فأخذه لوسيان وقلبه بين يديه: أنه جوهرة صغيرة، ذات فوهة مذهبة، وقبضة مطعمة. ليس بالإمكان الاعتماد على موضوع فلسفي لإقناع الناس بأنهم ليسوا موجودين. فإن للإقدام على فعل ما ضروري جدًا. فعل يائس، يبدد الظواهر ويبين العدم في العالم. كالانفجار، والجسد الدامي فوق السجادة والكلمات المكتوبة على الورق:

- سأقتل نفسي لأنني لست موجودًا:

"وأنتم يا إخوتي كذلك، إنكم عدم!".

ويطالع الناس جريدة الصباح ويرون: "مراهق تجرأ" ويحس كل منهم بالاضطراب فيسأل نفسه:

"وأنا؟ هل أنا موجود؟"

عرف في التاريخ، لا سيما عد نشر فرتير، أوبئة مشابهة من عمليات الانتحار. وفكر لوسيان بأن كلمة "شهيد" تعني باليونانية "الشاهد"، كان شديد الإحساس كي يصبح رئيسًا وليس شاهدًا. وبعدها كان يكرر الدخول إلى مخدع أمه، وينظر إلى المسدس، ويدخل في النزاع الأخير وكان يحدث له أحيانًا أن يعض الفوهة المذهبة ويشد أصابعه بقوة على القبضة. ثم يعزيه شعور بالفرح إذ يفكر بأن جميع القادة الكبار حاولوا الانتحار. كنابليون مثلًا. ولم يخف لوسيان على نفسه ما كان يشعر به من يأس. وقرأ باهتمام مذكرات السانت هيليين. كان عليه مع ذلك أن يتخذ قرارًا: وحدد لوسيان يوم ٣٠ أيلول كحد أخير لتردده. وأصبحت أيامه الأخيرة صعبة جدًا: كانت الأزمة تدفع بلوسيان إلى التوتر الشديد، إلى حد أنه بات يخشى أن يتحطم ذات يوم كالزجاج. ولم يعد يتجرأ على ملامسة المسدس. بل بات يكتفي بفتح الدرج، ثم أنه يرفع قليلًا غلالات أمه ويتمتع بمرأى الوحش الصغير البارد الذي يرقد في ثوب الحرير الوردي. غير أنه حين قرر أن يعيش، أحس بفراغ شديد، وبأنه عاطل عن العمل. ولحسن الحظ أن هموم المدرسة قد عاودته: إذ أرسله أبواه إلى الليسه سان - لويس ليتابع الدروس الإعدادية لدخول المدرسة المركزية. وارتدى مئزره الأحمر الجميل الذي يحمل الشارة وراح يغني:

"أنه المخروط الذي يدير الآلات

أنه المخروط الذي يدير القاطرات.."

إن مقدرة "المخروط" الجديدة كانت تبعث الفخار في نفس لوسيان. ثم إن صفه لا يشبه صف الآخرين: إذا كانت له تقاليده

واحتفالاتـه الخاصـة. كـان نوعًـا مـن القـوة. فقـد أضـحى مـن المـألوف أن يقـوم الطـلاب قبـل انتهـاء درس اللغـة الفرنسـية ويصيح أحدهم: "ما هو السيرار، فيجيب الجميع: "أنه الفرج!" فيـردد الصـوت مـن جديـد: "ومـا هـو الآغـرو؟" فيجيبـون بقـوة أكثر: "أنه الفرج". عندها يقول المعلم بـاتون الذي كـان كفيف البصر نوعًا ما ويضع نظارتين سوداوين، يقول باعياء:

- أرجوكم أيها السادة. ومرت لحظات من الصمت المطبق، كان التلامذة خلالها ينظرون إلـى بعضـهم البعض بنظـرات تنم عن الـذكاء، ثـم يصـبح أحـدهم: "مـا هـو المخـروط!" فيـزأرون معًا: "أنه شخص ضخم!" في هذه اللحظة يشعر لوسيان بأنه قد احترق. في المساء، كان يقص على أبويه بدقة ما جري لـه فـي النهار وعندما يقول: "والصف بأكمله أخذ يهذر..." أو "الصف بأكملـه قـرر أن يعـزل ميرينـه". كانـت الكلمـات عنـد مرورهـا تسخن فمه كجرعة من الكحول. كانت الأشهر الأولى مع ذلك، قاسية جدًا: كان لوسيان يتخلف عن تقديم مسابقات الرياضيات والفيزياء، ثم أن رفاقه لم يكونوا حسني العشرة: كل علـى حدة: كانوا في غالبيتهم يقبضـون المنح الدراسية كمـا أن لهم عـادات سيئة. ويقول لوسيان لأبيه: "ما من أحد منهم يمكن أن يكون لي صـديقًا - ويقـول السيد فلورييـه! أصـحاب المـنح الدراسـية هـم عادة من المثقفين لكنهم لا يصبحون في المستقبل قـادة مـن ذوي الكفاءة: أذ أنهم أسرعوا في تدرجهم".

وعندما سمع لوسيان عن "القادة الفاسدين". أحس بـأن شـيئًا ما يؤلمه في قلبه، وفكر من جديد بالانتحار، طيلة الأسابيع التي تلت. لكنـه لـم يعد ينطـوي علـى نفس الحمـاس الـذي كـان عليـه

أثناء العطلة. في شهر كانون الثاني فضح أحد الطلبة واسمه برلياك الصف بأسره: كان يرتدي سترة خضراء أو بنفسجية على آخر طراز، ذات قبة مستديرة فوق سروال كالسراويل التي في كتب الخياطين، ضيق جدًا إلى حد يثير التساؤل: إذ كيف استطاع أن يرتدي هذا السروال. وحل برلياك أخيرًا في الرياضيات وصرح بقوله:

- لا يهمني الأمر، فأنا من الفرع الأدبي، وأدرس الرياضيات للتقوية ليس إلا. وما هو إلا شهر حتى سحر الجميع: كان يوزع لفائف مهربة يقول لرفاقه بأن لديه نساء، ويبدي لهم الرسائل التي بعثن بها إليه. وقرر جميع من في الصف اعتباره شابًا أنيقًا، وبان عليهم أن يريحوا أنفسهم منه. كان لوسيان معجبا بأناقته وبأساليبه، لكن برلياك كان يلقبه "بصبي الأغنياء" وقال لوسيان في أحد اليام: "بعد هذا، وددت لو كنت ابن فقير" وابتسم برلياك وقال له: أنت كلبي ساخر. وفي اليوم التالي اطلعه على قصيدة: "كان كاريزو يهذر بعينيه النيئتين كل مساء، أنه صبور كالجمل. صنعت امرأة باقة من أعين عائلتها وألقت بها على المسرح. والكل انحنوا أمام هذا العمل النموذجي. ولكن لا تنسوا أن ساعة المجد دامت سبعًا وثلاثين دقيقة: تمامًا منذ الهتاف الأول وحتى انطفاء أضواء الأوبرا (وبعدها كان ينبغي أن تجر زوجها، وهو الحائز على عدة جوائز، وكان يسد بصليبين اثنين المحجرتين اللذين تقع فيهما عيناه). وانتبه إلى هذا، أن جميع الذي يفرطون في أكل اللحم البشري المحفوظ. يموتون من نقص في الفيتامين".

فقال لوسيان وقد خرج عن طوره:

- حسنًا حسنًا.

وقال برلياك برخاوة:

- سأحوز عليها، بطريقة فنية جديدة، فهذا ما يسمى بالكتابة الآلية. ولم يمض وقت طويل حتى شعر لوسيان برغبة عنيفة في الانتحار وصمم على استشارة برلياك وسأله بعد أن عرض قضيته:

- ماذا ينبغي أن أفعل؟

واصغى إليه برلياك باهتمام. وكان قد تعود على أن يمص أصابعه وأن يطلي بريقه البثور الموجودة على وجهه، بحيث أن جلده كان يلمع في هذا المكان أو ذاك، وكأنه طريق تبللت بالمياه في أمكنة مختلفة. وخلص إلى القول:

- اصنع ما شئت فليس لهذا أية أهمية.

وفكر قليلًا ثم أضاف وهو يشد على الكلمات:

- ما من شيء له أهمية.

وأصيب لوسيان بخيبة أمل، لكنه فهم أن برلياك قد تأثر كثيرًا حسين دعاء للعشاء في بيت والدته، كانت السيدة برلياك محببة جدًا. وعلى وجهها آثار بقع، تجاه خدها الأيسر. وقال برلياك للوسيان:

- هل ترى؛ إنما نحن ضحايا الحرب الحقيقيين.

كان هذا راي لوسيان أيضًا وقرر أي الاثنين على أنهما ينتميان معًا للجيل الضحية. وطلع النهار، وبرلياك لا يزال ممددًا فوق سريره، وقد اشتبكت يداه تحت رقبته. كانا يدخنان اللفائف الإنكليزية. ويصغيان إلى الأسطوانات، وأصغى لوسيان لصوت صوفيا توكر وآل جونسون. واعتراه نوع من

الكآبة، وفكر لوسيان بأن برلياك هو خير أصدقائه. وسأله برلياك ما إذا كان يعرف التحليل النفسي. كان صوته مجدًا، وينظر إلى لوسيان باتزان. وأسر إليه قائلًا:

- لقد اشتهيت أمي حتى سن الخامسة عشرة. وشعر لوسيان بالانزعاج. وخشي أن يحمر وجهه وتذكر وجه السيدة برلياك المشوه، وتساءل كيف يمكن له أن يشتهيها. لكنها حين دخلت لتقدم لهما الشراب، بدا عليه الاضطراب وحاول أن يتعرف على صدرها من خلال الثوب الذي كانت ترتديه، وما أن خرجت حتى قال برلياك بصوت إيجابي:

- أنت أيضًا بالطبع، ترغب في أن تضاجع أمك.

لم يكن يسأل بل أنه يؤكد.

فهز لوسيان كتفيه وقال:

- بالطبع.

في صبيحة اليوم التالي كان شديد الاضطراب وخشي أن يعمد برلياك إلى تكرار الحديث. لكنه اطمأن بسرعة وقال:

- على كل حال، لقد تناول نفسه أكثر مما تناولني.

كما دهش كثيرًا للطابع الشخصي الذي اتخذته محادثتهم، وفي يوم الخميس التالي، قرأ كتابًا من كتب فرويد في مكتبة سانت جنفياف. كان بمثابة وحي. وكرر لوسيان وهو يجوب الشوارع:

- أنه هذا إذًا، أنه هذا.

ثم اشترى بعد ذلك "مقدمة التحليل النفسي" و"الأمراض النفسية في الحياة اليومية"، وأصبح كل شيء واضحًا لديه. ذلك الشعور الغريب باللاوجود، وذاك الفراغ الذي عاناه في وعيه،

وتلك الروبصة، وهاتيك الحيرة، وتلك الجهود الخائبة في سبيل التعرف على الذات، تلك الأشياء التي لم تصادف سوى ستار من الضباب.

وفكر في نفسه:

لا بد وأن لدي عقدة نفسية. وشرح لبرلياماك كيف أنه، حين كان صغيرًا، تصور نفسه مروبصًا، وكيف أن الأشياء لم تبدله وكأنها واقعية، وخلص إلى القول: "لا بد وأن أكون مصابًا بعقدة نفسية". فقال برلياك: "تمامًا كما أنا". واعتادا معًا على تفسير أحلامهما وأقل حركة من حركاتهما. وكانت لدى برلياك قصص كثيرة، ظن لوسيان لوفرتها بأن صديقه يخترعها أو أنه يحسنها. لكنهما كانا متفقين تمام الاتفاق، يتناولان أشد المواضيع تعقيدًا بطريقة موضوعية. واعترف كلاهما بأن مسحة السرور التي تكتنفهما أن هي إلا قناع لخداع الآخرين. بينما هما في الواقع معذبان. وتخلص لوسيان من هواجسه. وانكب بشغف على دراسة التحليل النفسي لأنه وجده ملائمًا له، وأحس أنه أكثر اطمئنانًا، وليس عليه بعد الآن إلا أن يجد جميع الظواهر الملموسة من طبيعته، في نطاق الوعي. بل أن لوسيان الحقيقي إنما هو غارق في اللاوعي. وينبغي أن يحلم به دون أن يراه كمن يحلم بعزيز غائب. وصار لوسيان يفكر طيلة اليوم بعقده النفسية ويتصور بنوع من الفخار، العالم المظلم، العالم القاسي العنيف الذي يختبئ في أبخرة وعيه. وقال لبرلياك:

- هل تدري! لقد كنت في الظاهر صبيًا نائمًا غير آبه لشيء، كنت شخصًا لا أهمية له. وكنت شديد التأثر بهذا

الاعتقاد حتى كدت أن أتمسك به. لكنني كنت أعرف بأن هناك شيئًا آخر.

فأجاب برلياك:

- هناك دائمًا شيء آخر.

وتبادلا الابتسام بكل فخار. ونظم لوسيان قصيدة بعنوان " عندما يتمزق الغمام، فوجدها برلياك رائعة، لكنه أخذ على لوسيان طريقته في نظمها حسب الأوزان المعروفة. وحفظاها مع ذلك غيبًا، وكانا يقولان بكل طيبة خاطر عندما يريدان الكلام عن نوازعهما الجنسية:

"السرطانات الكبيرة المكدسة تحت معطف الغمام". أو يختصران بقولهما: "السرطأنات" وهما يغمزان بأعينهما. ولم يمض بعض الوقت حتى بات لوسيان يجد هذا رهيبًا، عندما يخلو لنفسه. ولم يعد يتجرأ على النظر إلى أمه في وجهها، وكان يخشى، حين يقبلها قبل النوم، أن تحول القسوة غير المنظورة قبلته نحو فم السيدة فلوريبه، إن نفسه تنطوي على بركان. وتعهد لوسيان نفسه بعناية فائقة حتى لا يهد تلك النفس المتعاظمة المشؤومة التي وجدها فيه. أنه بات يعرف ثمنها حق المعرفة ويخشى هباتها العنيفة. ويقول في نفسه: "أنا أخاف من نفسي". لقد انقطع منذ ستة أشهر عن ممارسة العادة السرية لأنها كانت تقلقه وكان لديه الكثير من المشاغل، لكنه عاد إليها: على المرء أن يتابع خطته، وكتب فرويد مليئة بقصص الكثيرين من الشباب التاعسين ممن أصيبوا بالعصاب لأنهم انقطعوا فجأة عن ممارسة عاداتهم. كان يسأل برلياك:

- أفلن نصبح مجانين؟ لذا كانا يحسان بغرابتهما. وتسلل الظل إلى غرفة لرلياك وكان قد أحرق عدة علب من السكائر كما كانت يداه ترتجفان. عندها قام أحدهما بصمت، ومشى بخطى الذئب محو الباب وأدار الزر. وعم النور في الغرفة، ونظر وأحدهما للآخر نظرة ملؤها التحدي.

ولم يتأخر لوسيان في أن يلاحظ بأن صداقته مع برلياك إنما هي قائمة على سوء تفاهم: ما من أحد بلا ريب، كان أكثر تحسسًا منه لعقدة أوديب، لكنه كان يرى فيها دلالة على قوة العاطفة التي كان يأمل أن يحولها فيما بعد نحو غايات أخرى. أما برلياك، فكان على العكس سعيدًا بحالته ولم يكن يزيد الخروج منها. وكأني قول: "نحن أشخاص مارقون، فاشلون". فيجيبه لوسيان وكنه صداه: "لن نفعل أي شيء أبدًا، لن نفعل أي شيء". لكنه كان غاضبًا. بعودتهم من عطلة عيد الفصح أخبره برلياك بأنه اقتسم مع أمه غرفة واحدة في أحد فنادق ديجون. واستيقظ في الصباح الباكر، واقترب من السرير حيث كانت أمه لا تزال نائمة ورفع الغطاء برفق. وقال ضاحكًا: "كان قميصها مشمرًا". ولم يسع لوسيان حين سمع تلك الكلمات إلا أن يحتفر برلياك بعض الشيء ويحس بعزلته الشديدة. جميل أن يكون لدى المرء عقد نفسية شريطة أن يحسن تصريفها في الوقت المناسب: إذ كيف يمكن للرجل أن يتحمل مسؤولياته ويتولى زمام الأمور، إذا احتفظ بنوازع الطفولة الجنسية؟ وبدأ لوسيان يقلق كثيرًا: كان بوده أن يستشير أحدًا ولكنه لم يكن يعرف إلى من يوجه سؤاله. غالبًا ما كان برلياك يحدثه عن رجل سريالي يدعى برجيل، غائص في

التحليلي النفسي وهو يفوقه معرفة. لكنه لم يقترح قط على لوسيان التعرف عليه. كما شعر لوسيان بالخيبة الشديدة لأنه اعتمد على برلياك في تدبير النساء له.

وفكر بان وجود صاحبة جميلة من شأنه أن يغير بالطبع مجرى أفكاره. لكن برلياك انقطع عن الحديث عن عشيقاته الجميلات. كانا يذهبان في بعض الأحيان ناحية الشوارع العريضة يلاحقان الفتيات بدون أن يتجرآ على محادثتهن. ويقول برلياك:

- ماذا تريد أيها المسكين، لسنا من الجنس الذي يعجب النساء. فالنساء تحس فينا شيئا يرعبهن. ولم يجبه لوسيان، إذ إن برلياك بات يزعجه. غالبا ما كان يبدي ملاحظات عديمة اللياقة بشأن أبوي لوسيان، غذ كان يسميهما السيد دي موللیه وزوجته. كان لوسيان يدرك بأن الشخص السريالي يكره البورجوازية على العموم، لكن برلياك قد تلقى مرارا دعوة السيدة فلورييه، وقد عاملته على صعيد الصداقة والثقة. فليس من اللياقة إذا أن يتناولها بهذه اللهجة. ثم أن برلياك كان رهيبًا بعادته المستحكمة: ألا وهي استدانة الدراهم بدون إرجاعها: في الأوتوبيس لم يكن لديه دراهم، وعلى رفيقه أن يدفع عنه الأجرة. وفي المقاهي لم يكن ليقترح سوى مرة واحدة من خمس دفع حسابه. وقال له لوسيان في إحدى المرات، أنه لا يفهم تصرفه هذا وأن على الأصدقاء أن يقتسموا تكاليف نزهاتهم. فنظر إليه برلياك بعمق وقال: "كنت أشك في ذلك فأنت ذو نزعة شرجية، وشرح له الصلة التي أعطاها فرويد

بين التبرز والبخل. وقال له: "أود أن أعرف كم من الوقت ظلت أمك تنظف قذارتك".

وكاداِ أن يتخاصما.

منذ بداية شهر أيار، أخذ برلياك يتغيب عن الكلية: وكان لوسيان يذهب للالتحاق به بعد انتهاء الدرس في أحد البارات في شارع البتي شان حيث كانا يشربان الفرموث ماركة المصلوب. وفي يوم الثلاثاء بعد الظهر وجد لوسيان صديقه برلياك أمام كأس فارغ. فقال برلياك: "ها أنك أتيت. اصغ أنا ذاهب إلى عيادة طبيب الأسنان فموعدي في الساعة الخامسة، انتظرني نصف ساعة لأن الطبيب يقيم في المكان المجاور".

وأجابه لوسيان وهو يجلس متهالكًا على الكرسي:

- حسنًا. يا فرانسوا أعطني كأسًا من الفرموث.

وفي تلك اللحظة دخل البار أحد الرجال وابتسم بدهشة حين وقع نظره عليهما. وتساءل لوسيان في نفسه: "من تراه يكون؟" أما برلياك فقد وقف حين مد يده للغريب بطريقة تحول دون رؤية لوسيان. وكان يتكلم بصوت خافت سريع، بينما يجيبه الآخر بصوت واضح: "لا. لا يا صديقي. لن تكون سوى مهرج"، وراح في نفس الوقت، يقف على رؤوس أصابعه ليرى لوسيان من فوق رأس برلياك باطمئنان هادئ. لعله في الخامسة والثلاثين من عمره. له وجه شاحب وشعر أبيض بديم. وفكر لوسيان وقلبه يخفق: "أنه برجير بكل تأكيد، كم هو جميل!".

أخذ برلياك الرجل ذا الشعر الأبيض بمرفقه بحركة متسلطة إلى حد ما. وقال له:

- تعال معي أنا ذاهب إلى عيادة طبيب الأسنان، على بعد خطوتين من هنا.

فأجاب بدون أن يزيح نظره عن لوسيان:

- لكنك كنت مع صديقك. وعليك أن تجري التعارف بيننا.

ونهض لوسيان باسمًا. وفكر في نفسه: "خدعة!" وتورد خداه. وغار عنق برلياك بين كتفيه، وظن لوسيان للحظة بأنه سيرفض. وقال بصوت ملؤه السرور "حسنًا، قدمني له". لكنه ما كاد يتكم حتى بان الدم في صدغيه. وتمنى لو أنه يسقط إلى باطن الأرض. وغير برلياك رأيه وتمتم بدون أن ينظر إلى أحد:

- لوسيان فلوريه، رفيقي في الكلية، السيد أشيل برجير.

فقال لوسيان بصوت ضعيف:

- إنني معجب بكتاباتك أيها السيد.

وأمسك برجير يده بين أنامله الطويلة وحمله على الجلوس. ومرت هنيهة من الصمت. كان برجير يغمر لوسيان بنظرة مؤلها الحنو، وهو لا يزال يمسك بيده، وسأله بعذوبة:

- هل أنت قلق؟

فقال لوسيا بصوت أوضح بعد أن رمق برجير بنظرة جادة: "إنني قلق!" وبدا له وكأنه يسمع أحد دروسه. وتردد برجير لحظة ثم عاد على عجل ليأخذ مكانه بعد أن ألقي قيمته على الطاولة. كان لوسيان يحترق لشدة رغبته في أن يحدث برجير عن محاولة الانتحار. أنه شخص بالإمكان أن تحدثه بلا مقدمات ولا تحضير. لم يجرؤ على أن يقول شيئًا بسبب برلياك. كان يكره برلياك. وسأل برجير الخادم.

- هل عندكم عرق؟
فقال برلياك متضجرًا:
- كلا، ليس عندهم عرق؛ أنها حانة جميلة ولكن ليس فيها سوى الفرموث.
فسأل برجير بسهولة تبلغ درجة الرخاوة:
- ما هذا الشيء الأصفر المعبأ في القنينة؟
فأجابه الصبي:
- أنها ماركة المصلوب الأبيض.
- حسنًا، أعطني منه.
وتململ لرلياك على كرسيه. وحار بين رغبته في امتداد اصدقائه وخشيته من إبراز لوسيان على حسابه. وانتهى إلى القول بصوت متجهم فخور
- أراد أن ينتحر.
فيقول برجير:
- أقسم بأني أفكر بذلك.
وتمر هنيهة صمت.
كان لوسيان قد اخفض عينيه بهيئة متواضعة ولكنه تساءل ما إذا كان برلياك سيذهب. ونظر برجير فجأة إلى ساعته. وسأل:
- وطبيب الأسنان؟
ونهض برلياك بالرغم منه ورجاء:
- رافقني يا برجير، أنه على بعد خطوتين.
- لا أرافقك لأنك ستعود. سأبقى برفقة صديقك.
ومكث برلياك لحظة وراح ينط، فقال برجير بصوت جليل:

- هيا اذهب، سنعود للقائنا هنا.

وما أن ذهب برلياك حتى قام برجير وجلس بغير تكلف إلى جانب لوسيان وسرد له لوسيان قصة انتحاره بالتفصيل. وشرح له بأنه اشتهى أمه، وبأنه سادي شرجي، وبأنه لا يحب شيئًا في جوهره، وبأن كل شيء عنده مهزلة. كان برجير يصغي إليه بدون أن يتكلم، بينما لوسيان مسرور جدًا لأنه وجد من يفهمه. وما أن انتهى، حتى أحاطه برجير بذراعه فشم لوسيان رائحة الكولونيا والتبغ الإنكليزي.

- أتدري يا لوسيان ماذا اسمي حالتك؟

فنظر إليه لوسيان بأمل وبغير خيبة.

قال برجير:

- أسميه التشوش.

التشوش: بدأت الكلمة عذبة بيضاء لكن آخرها رن كصوت النفير.

وقال لوسيان: "التشوش..."

وأحس بأنه مجد قلق مثلما كان عليه حين قال لريري أنه مروبص. كان البار معتمًا، لكن بابه فتح على مصراعيه لجهة الشارع، تحت غمام الربيع الساطع. وكان لوسيان يشم، عبر رائحة برجير العطرة، رائحة الحانة الثقيلة، وهي رائحة النبيذ الأحمر والخشب الرطب. وفكر في نفسه: "التشوش... إلام سيقودني هذا!" فلم يعرف ما إذا كان قد اكتشف فيه جدارة أم مرضًا جديدًا. وأبصر قرب عينيه بشفتي برجير الرشيقتين، اللتين كانتا تبديان بريق من ذهبية ثم تحجبانه. وقال برجير:

- أحب الأشخاص الذين عانوا التشوش، وأرى أن لك حظًا خارقًا للعادة. لأن هذا إنما هو هبة. هل ترى كل هذه الخنازير؟ أنهم قوم قاعدون. ينبغي أن نقدمهم طعمة للنمل الأحمر ليعبث بهم قليلًا. أو تدري ما تفعل هذه الحيوانات الواعية؟

فقال لوسيان:

- أنها تأكل البشر.

- نعم، أنها تريح الهياكل العظمية من اللحم الإنساني الذي يكسوها.

فقال لوسيان:

- إنني ألاحظ ذلك.

وأضاف:

- وأنا؟ ما ينبغي أن أفعل؟

فقال برجير بنوع من الذعر الهزلي:

- لا شيء بحق الله. وعليك خاصة ألا تقعد مثلهم، وعلى وتد. هل قرأت رانبو؟

فقال لوسيان:

- كـ - لـ - لـ - لا.

سأعيرك ديوان "الإلهام". اصغ، ينبغي أن نجتمع في وقت آخر. فإذا كان لديك بعض الفراغ يوم الخميس، مر ببيتي في الساعة الثالثة فأنا أقيم في مونبارناس ٩ــ شارع الكامبانيه برمبير.

يوم الخميس التالي، ذهب لوسيان إلى بيت برجير، وصار يتردد عليه طيلة شهر أيار. واتفقا على أن يقولا لبرلياك أنهما يلتقان مرة في الأسبوع، لأنهما يريدان أن يكونا صريحين معه

بدون أن يسببا له أي عناء. وأبدى برلياك امتعاضه. وقال للوسيان ساخرًا: "أنه الغرام العابر؟ شرح لك القلق، وشرحت له الانتحار: يا للعبة الكبرى، أليس كذلك!" واحتج لوسيان وقال له بعد أن احمر وجهه:

- سأبرهن لك بأنك أنت الذي تكلمت أولًا عن عملية انتحاري.

فقال برلياك:

- أوه! حدث ذلك، لأجنبك الخجل من عملية سرده بنفسك. وأبعدا أوقات لقائهما. ذات يوم قال لوسيان لبرجير:

- إن كل ما كان يعجبني فيه، أخذه عنك، لقد أدركت هذا في الوقت الحاضر.

فقال برجير ضاحكًا:

- برلياك هو قرد، وهذا ما جعلني أوجه اهتمامي إليه. أتدري بأن جدته لأمه يهودية؟ وهذا ما يفسر أشياء كثيرة.

فأجاب لوسيان: "في الواقع، وأضاف بعد لحظة: "أنه شخص جذاب على كل حال". كانت شقة برجير مليئة بالأغراض الغريبة المضحكة: كنبات ترتكز مقاعدها المخملية على سيقان نساء صنعت من الخشب المدهون، وتماثيل سوداء، وحزام للعفاف صنع من حديد ذي أشواك، وأثداء من الجفصين غرست فيها ملاعق صغيرة. وعلى المنضدة، قملة هائلة من البرونز وجمجمة كاهن مسروقة من مجموعة عظام ميسترا، تستعملان لتثبيت الأوراق. أما الجدران فكانت مرصوفة ببطاقات الدعوة التي تعلن عن موت برجير السريالي. الشقة رغم كل شيء توحي بنوع من الترف الذكي،

وكان لوسيان يحب أن يستلقي على ديوان غرفة التدخين، وأن ما أثار دهشته بصورة خاصة، تلك الأشياء التي رصفها برجير على الرف: هن مسحوق العطس، إلى وسخ الشيطان إلى رباط الساق الخاص بالعروس... كان برجير وهو يتكلم يتناول قليلًا من وسخ الشيطان بين أصابعه وينظر إليه باهتمام قائلًا:

- إن لهذه الأشياء قيمة ثورية، أنها تثير القلق. أن فيها قوة مدمرة تلوق القوة التي تضمها جميع مؤلفات لينين. وكان لوسيان، وقد دهش وانبهر، يتطلع تارة إلى هذا الوجه المعذب ذي العينين الغائرتين، وطورًا إلى تلك الأصابع الدقيقة التي تحمل برفق تلك القذارة. كان برجير يحدثه أكثر الأحيان عن رامبو وعن الخلل القياسي في جميع الحواس. "حين يصبح بإمكانك وأنت تمر في ساحة الكونكورد، أن ترى بوضوح عندما تشاء، زنجية راكعة تلحس المسلة، عندها تستطيع أن تقول إنك خرقت النظام وأنقذت نفسك". وأعاره ديوان "الإلهام" و"أناشيد المالدورو"، ومؤلفات الماركيز دي سال. وكان لوسيان يسعى إلى الفهم بإخلاص، لكن كثيرًا من الأمور كانت تفوته، كما تعجب لأن رامبو كان لواطيًا. وسأل عن ذلك برجير الذي راح يضحك: "ولكن، لماذا يا صغيري؟" وبدا لوسيان شديد الانزعاج. واحمر وجهه وكره برجير لمدة دقيقة من كل قلبه؛ غير أنه سيطر على نفسه ورفع رأسه وقال بصراحة بسيطة: "قلت أنها قذارة"، فداعب برجير شعره: وبدا أنه قد رق كثيرًا وقال: "هاتان العينان المفعمتان بالاضطراب، عينا الغزالة... أجل يا لوسيان. قلت أنها قذارة. إن لواطة رامبو

هي الخلل الأول والنابغ في حساسيته. وإنما نحن مدينون لها بقصائده. فالاعتقاد بأن هناك أغراضًا مميزة خاصة بالرغبة الجنسية، وبأن هذه الأغراض هي النساء لأن لهن بين الساقين، أن هو إلا اعتقاد بغيض خاطئ لدى "القاعدين". انظر!" وأخرج من مكتبه حوالي اثنتي عشرة صورة مصفرة ورماها على ركبتي لوسيان. ورأى لوسيان صورًا مذهلة للبغايا العاريات، ضاحكات بأفواههن الخالية من الأسنان، وقد باعدن ما بين سيقانهن كما تتباعد الشفاه، وغرسن بين أفخاذهن شيئا كاللسان المكسو بالريق. وقال برجير: "اشتريت المجموعة بثلاثة فرنكات في أبو سعدة، إنك إن قبلت مؤخرة هؤلاء النسوة، تكن ابن عائلة، وكل الناس يقولون إنك تعيش حياة رجل. لأنهن نساء، هل تفهم؟ وأنا أقول لك بأن أول ما يجب أن تفعله هو أن تقتنع بأن "كل شيء يمكن أن يشكل غرضًا للرغبة الجنسية، من آلة الخياطة إلى الأنبوب الزجاجي، وكذلك الحصان أو الحذاء". وقال ضاحكًا:

- أنا نكحت الذباب، وأعرف جنديًا بحريًا ينكح البط. كان يضع رؤوسها في درج الطاولة، ويمسكها بقوة من ساقيها، ويبدأ، وقرص برجير إذن لوسيان وختم حديثه: "كانت البطة تموت على الأثر، فيأكلها الجندي".

كان لوسيان يخرج من تلك المحادثات ملتهب الرأس، يفكر بأن برجير عبقري، لكنه هفي بعض الأحيان كان يستفيق من نومه وقد تبلل جسمه بالعرق، وتتكدس في رأسه من جديد رؤى رهيبة بذيئة، ويتساءل ما إذا كان برجير يؤثر عليه تأثيرًا حسنًا. وتنهد وهو يلوي يديه: "أن أكون وحيدًا! ما من أحد

ينصحني، ويقول لي إذا كنت على "الصراط المستقيم!" فلو ذهب إلى آخر الشوط، ومارس جميع أنواع الخلل في حواسه، أفلن تزل قدمه ويغرق؟ وذات يوم، بينما كان برجير يحدث مطولًا عن أندريه بريتون، تمتم لوسيان وكأنه في حلم: "نعم، ولكن إذا كنت، بعد هذا، لا أود الرجوع على الوراء؟" فارتجف برجير وقال: "تعود إلى الوراء؟ من يتحدث عن الرجوع إلى الوراء؟ لو تصبح مجنونًا يكن هذا أفضل. وبعدها، على حد قول رامبو: سيأتي عمال بغيضون آخرون". فقال لوسيان بأسى: "هذا ما فكرت به". ولاحظ أن محادثاته الطويلة كانت تصل إلى نتيجة معاكسة لتلك التي يبغيها برجير! ما إن يباغت لوسيان نفسه وهو يعاني حسًا دقيقًا نوعًا ما، أو انطباعًا خاصًا، حتى بدأ بالارتجاف وفكر في نفسه: "ها أن الأمر قد بدأ. وتمنى لو أنه لا يشعر حد الآن بسوى تلك الأنواع السخيفة والكثيفة من الإدراك الحسي. ولم يعد بشعر بالطمأنينة إلا عند المساء، حين يكون مع أبويه: هناك كان ملاذه. كانا يتحدثان عن بريان، وعن سوء نية الألمان، وعن ولادة نسيبتهما جان، وعن غلاء المعيشة. وكان لوسيان يبادلهم تلك الآراء بلذة، وبنوع غليظ من أنواع الحس السليم. ذات يوم وكان عائدًا من بيت برجير، أغلق الباب بالمفتاح آليًا وضغط على الزليج. ولما أدرك حركته تلك، اجهد نفسه بالضحك، لكنه لم يستطع النوم طيلة الليل: وفهم بأنه خائف.

غير أنه لن يتخلى بأي ثمن عن صداقة برجير. كان يقول لنفسه: "أنه يسحرني". ثم أنه كان يقدر هذا النوع المميز من أنواع الصداقة الذي أحسن برجير إقامته بينهما. فبدون أن

تفارقه نبرة الرجولة، كان بإمكان برجير أن يجعل لوسيان يشعر بحنوه: إذ كان مثلًا بعيد ربط ياقته، ويزجره لأنه لا يحسن هندامه، ويسرح له شعره بمشط ذهبي من صنع كمبوديا. وكشف للوسيان عن خفايا جسده وشرح له حلاوة الشباب القاسية المفعمة وكشف بالعاطفة. كان يقول له: "إنك أنت رامبو، كانت له يداك الكبيرتان حين قدم إلى باريس لمقابلة فرلين، كان له هذا الوجه الوردي، وجه الفلاح الشاب الرافل بالصحة، وهذا الجسد الطويل الناحل كجسد فتاة شقراء". كان يرغم لوسيان على فك قبته وفتح قميصه، ثم يقوده شاردًا، إلى المرآة، يمتعه بهذا الانسجام الجذاب بين خديه الأحمرين وعنقه الأبيض؛ وعندها يلامس برفق ودفي لوسيان ويضيف بحزن: "على المرء أن ينتحر في سن العشرين". في الوقت الحاضر، أصبح لوسيان كثير التطلع في المرآة، لقد تعلم كيف يستمتع بشبابه الغض. وفكر وهو يخلع ثيابه بحركات ملؤها العذوبة بأنه رامبو. وبات يعتقد بأن حياته ستكون قصيرة مؤلمة كحياة زهرة رائعة الجمال. في تلك اللحظات، يتبادر إلى ذهنه بأنه رأى في السابق انطباعات وصورًا كهذه: ويرى نفسه من جديد، بفستانه الطويل الأزرق وجناحي الملاك، يوزع الزهور في عملية بيع، قصد الإحسان. ويتطلع إلى ساقيه الطويلتين. ويقول في نفسه بارتياح: "هل صحيح أن جلدي ناعم إلى هذا الحد؟" ومرة راح يمر بشفتيه فوق ذراعه، من القبضة حتى المرفق، على طول وريد أزرق جميل.

ذات يوم وهو يدخل بيت برجير، حصلت له مفاجأة لا يرغب فيها: برلياك كان هناك يقطع بالسكين أقسامًا من مادة

مائلة للسواد تشبه قطعة من التراب. لم يكن الشابان قد التقيا منذ عشرة أيام: وتصافحا ببرود. وقال برلياك: "هل ترى هذه، أنها قطعة حشيش، سنضع قليلًا منها في الغليون بين طبقتين من التبغ الأشقر. وستحدث مفعولًا مدهشا". وأضاف: "ولك فيها حصة" وقال لوسيان: "شكرًا، أنا لا أتمسك بهذه الحصة" وراح الآخران يضحكان بينما كان برلياك يلح عليه بعين غاضبة: "إنما أنت مغفل، ستأخذ قليلًا منها: فليس بإمكانك أن تتصور كم هذا لذيذ". فقال لوسيان: "قلت لك لا". ولم يجب برلياك بشيء، وأخذ يبتسم ابتسامة متفوقة ورأى أن لوسيان يبتسم هو الآخر. فضرب برجله وقال: "لا أريد تلك القطعة، لا أريد أن أرهق نفسي، فمن البلاهة أن يتعاطى المرء هذه القضايا التي تجعله مخبولًا". قال هذا بالرغم منه، ولما أدرك مآل كلامه وتصور ما يمكن لبرجير أن يعتقده فيه، اعترته رغبة في قتل برلياك، وتصاعدت الدموع إلى عينيه. وقال برلياك وهو يهز كتفيه: "أنت بورجوازي، تتظاهر بأنك تعوم، لكنك تخاف أن تزل قدمك". فقال لوسيان بصوت أكثر هدوءً: "لا أريد أن أدمن على المخدرات، أنها عبودية كسائر أنواع العبودية وأريد أن أظل جاهزًا في كل وقت". فأجاب برلياك مجدة: "قل بأنك لا تريد أن تنتمي". وهم لوسيان بصفعه ضربتين لما سمع صوت برجير الجليل يقول لبرلياك: "دعه يا شارل، فالحق إلى جانبه. وخوفه الانتماء نوع من التشوش أيضًا"، ودخنا وهما مستلقيان على الديوان، وتصاعدت في الحجرة رائحة ورق أرمينيا. أما لوسيان فقد جلس على كنبة من المخمل الأحمر ناظرًا إليهما بصمت. وما هي إلا لحظة

حتى أرخى برلياك رأسه إلى الوراء وخفق حاجباه بنوع من الابتسامة المبللة. وأخيرًا نهض برلياك وغادر الحجرة بخطى مترددة: لقد حافظ حتى النهاية على تلك الابتسامة الناعسة اللذيذة فوق شفتيه. وقال لوسيان بصوتو مبحوح: "اعطني غليونًا". فأخذ برجير يضحك وقال: "لا أدعي لذلك. ولا تهتم لبرلياك. فأنت لا تعرف ما هو يفعل في هذه اللحظة؟". فقال لوسيان: "هذا لا يهمني". فقال برجير بهدوء: "حسنًا، اعلم مع ذلك أنه يقيء. هذا هو المفعول لوحيد الذي يحدثه الحشيش فيه. أما الباقي فليس سوى مهزلة، لكنني أعطيه ليدخن في بعض الأحيان فهو يريد أن يلفت نظري إليه. وهذا ما يسليني" وفي صبيحة اليوم التالي جاء برلياك إلى الكلية وأراد أن يعامل لوسيان من فوق. وقال له: "أنت تصعد في الحافلات، لكنك تحسن اختيار الذين يظلون في المحطة". فأجابه لوسيان: "أنت كثير تقيء، يا صاحبي!" فاصفر وجه برلياك: "هل أن برجير هو الذي أخبرك بذلك؟".

- من تريد أن يكون؟

فتمتم برلياك:

- حسنًا، ولكنني لم أكن لأظن أن برجير يهزأ من أصحابه القدامي مع أصحابه الجدد. كان لوسيان مضطربًا نوعًا ما فقد وعد برجير بأنه لن يتكلم عن شيء. وقال: "حسنًا أنه لم يسخر منك، بل أراد أن يبرهن على أن قصصك لا تنطلي عليه". لكن برلياك أدار ظهره وخرج بدون أن يشد على يد لوسيان. ولم يكن لوسيان فخورًا جدًا حين صادف برجير في المرة الثانية. سأله برجير بهيئة لا تنم عن شيء.

- ماذا قلت لبرلياك؟

وأخفض لوسيان رأسه بدون أن يجيب. كان متضايقًا جدًا. وفجأة أحس بيد برجير فوق رقبته: "لا بأس عليك يا صغيري. على كل حال يجب أن ينتهي الأمر: فالممثلون لا أرغب بهم دائمًا". واستعاد لوسيان بعض قوته، ورفع رأسه وابتسم وقال: "لكنني أنا ممثل أيضًا".

فأجابه برجير وهو يضمه إليه:

- نعم، ولكن أنت، أنت جميل.

وسمح لوسيان بذلك. وأحس بأنه عذب كالفتاة وتصاعدت الدموع إلى عينيه، وعانقه برجير على خده، وعض له شفتيه برفق وهو يناديه تارة "بالأبله الصغير". وطورًا "بأحجي الصغير". وفكر لوسيان بأن من حسن الحظ أن يكون للمرء أخ كهذا الأخ.

وأراد السيد فلورييه وزوجته أن يتعرفا على برجير الذي كان لوسيان يتحدث عنه ودعياه، لتناول طعام العشاء. لقد وجده الجميع جذابًا، حتى جرمين، التي لم تر في حياتها رجلًا جميلًا إلى هذا الحد. وكان السيد فلورييه قد تعرف في السابق على عمه الجنرال نيزان وتحدث عنه مطولًا. لذا كانت السيدة فلورييه سعيدة بأن تولي برجير أمر مرافقة ولدها في عطلة عيد العنصرة. وقصدا روان بالسيارة. كان لوسيان يريد زيارة الكاتدرائية ودار البلدية، لكن برجير رفض تمام الرفض. وسأله بوقاحة: "تريد زيارة هذه القاذورات؟" وأخيرًا ذهبا ليقضيا ساعتين في شارع الكوردلييه، وكان يرجع مضحكًا: أنه ينادي جميع الأشخاص "آنستي" وهو يرفس لوسيان برجله من

تحت الطاولة، ثم رضي بالصعود مع إحداهن لكنه ما لبث أن عاد بعد خمس دقائق وقال: "فلنذهب من هنا، وإلا سيكون الأمر خطيرًا". ودفعا الثمن على عجل وذهبا في الشارع اخبره برجير عما حصل له اغتنم الفرصة عندما أدارت الفتاة ظهرها ليرمي على السرير قبضة من الشعر، ثم أعلن لها أنه عاجز وأسرع بالنزول. كان لوسيان قد احتسى كأسين من الوسكي وقد داخ قليلًا: فغنى نشيد المدفع والدي بروفوندس موربيونيبوس. ورأى أنه من الأمور الرائعة أن يكون برجير يجمع عمق التفكير إلى الصبيانية.

وما إن وصلا إلى الفندق حتى قال برجير: "لم أحجز سوى غرفة واحدة لكن فيها حمامًا كبيرًا". ولم يندهش لوسيان إذ كان يتوقع بصورة مبهمة أنه سيقتسم مع برجير غرفة واحدة، ولكن بدون أن يتوقف كثيرًا عند هذه الفكرة. أما الآن ولم يعد بوسعه أن يتراجع فقد بدت له الفكرة مزعجة بعض الإزعاج، لا سيما وأن قدميه لم تكونا نظيفتين. وتصورن بينما كان الخدم يصعدون الحقائب، بأن برجير سيقول له: "كم أنت قذر، ستوسخ الغطاء". وسيجيبه لوسيان بوقاحة: "لديك أفكار بورجوازيه عن النظافة". لكن برجير دفعه إلى غرفة الحمام مع حقيبته قائلًا له:

- تدبر أمرك في الداخل، وأنا سأخلع ثيابي في الغرفة.

وغسل لوسيان قدميه وبعض جسمه. وكان يشعر بحاجة الذهاب إلى المرحاض لكنه لم يجرؤ على ذلك واكتفى بأن يبول في المغسلة، ثم ارتدى قميص النوم، وانتعل الخف الذي

أعارته أمه إياه (فهفه هو، كان مثقوبًا) وضرب على الباب سائلًا:

- هل أنت مستعد؟

- نعم، نعم أدخل.

كان برجير قد ارتدى روب النوم الأسود فوق بيجاما زرقا فاتحة. وكانت رائحة العطر تفوح في الغرفة. وسال لوسيان: "ألا يوجد سوى سرير واحد؟" ولم يجب برجير: بل كان ينظر إلى لوسيان مشدوهًا وانتهت دهشته بضحكة قوية وقال له: "إنك بثياب الزينة. ماذا فعلت بقبعة النوم؟ آه! كلا أنت مضحك جدًا أريدك أن ترى نفسك".

فقال لوسيان بانزعاج:

- ها قد مرت سنتان وأنا أطلب إلى أمي أن تشتري لي بيجاما.

واقترب منه برجير وقال له بلهجة لا تحتمل جوابًا:

- هيا، اخلع هذا، سأعطيك إحدى بيجاماتي. ستكون واسعة بعض الشيء، لكنها ستوافقك أكثر من هذا الثوب.

وظل لوسيان مسمرًا في وسط الغرفة، عيناه تنظران إلى المربعات الحمراء والخضراء المرسومة على السجادة. كان بوده أن يعود إلى الحمام لكنه خشي من أن يعتبر مغفلًا، وبحركة عاجلة شمر قميصه إلى ما فوق رأسه، ومرت هنيهة صمت. كان برجير يتطلع إلى لوسيان مبتسمًا، وأدرك لوسيان أنه عار وسط الغرفة ينتعل في رجليه خفي أمه. ونظر إلى يديه - يدي رامبو الكبيرتين - وأراد أن يضعهما فوق بطنه ليخبئهما على الأقل، لكنه تنبه ووضع يديه خلف ظهره. على الجدران،

وبين صفين من المربعات، كان يبدو م نبعيد مربع بنفسجي اللون. وقال برجير: "اقسم بأنه لأطهر من فتاة: لوسيان، انظر إلى نفسك في المرآة فقد احمر لونك حتى الصدر. غير أنك أفضل على هذا الشكل، مما كنت عليه بتلك الثياب". فقال لوسيان بجهد: "نعم ولكن لا يمكن للإنسان أن يكون ظريفًا حين يكون عاريًا. اعطني البيجاما بسرعة". فرمى له برجير بيجاما من الحرير تفوح منها رائحة العطر، وذهبا إلى السرير. ومر وقت من الصمت ثقيل فقال لوسيان: "صحتي سيئة. أريد أن أقئ". ولم يجب برجير وتجشأ الوسكي. وقال في نفسه: "سينام معي، وراحت مربعات السجادة تدور بينما كانت تدور بينما كانت رائحة العطر الخانقة عالقة في حلقه.

"لم يكن ينبغي أن أقوم بهذه الرحلة". ليس له حظ. لعشرين مرة خلال هذه الأيام الأخيرة، أصبح على قاب قوسين أو أدنى من معرفة الشيء الذي يريده برجير، ولكن في كل مرة، كانت تمر حادثة فتحوله عن تفكيره. والآن، أنه هنا موجود، في سرير الرجل، ينتظر متعته اللذيذة "سأخذ وسادتي وأذهب إلى الحمام لأنام فيه". لكنه لم يتجرأ، إذ فكر بنظرات برجير الساخرة. وراح يضحك وقال: "أفكر بتلك البغي، لا بد وأنها تفرك نفسها الآن". ولم يجب برجير. فنظر إليه لوسيان بطرف عينيه: كان مستلقيًا على هره، عليه سيماء البراءة، ويداه تحت عنقه. عندها اعترى لوسيان غيظ شديد، فانتصب على أحد مرفقيه وقال له: "حسنًا، ماذا تنظر؟ هل اصطحبتني إلى هذا المكان لأزدان بالجواهر؟".

كان الوقت قد فات حتى يندم على عبارته: واتجه برجير إليه ونظر إليه نظرة ملؤها السرور: "يا لك من آلة ذات وجه ملائكي. وأخيرًا يا طفلي الصغير، أنا لم أدفعك لتقول هذا: ستعتمد علي لكي يدب الخلل في حواسك الصغيرة"" ونظر إليه لحظة أخرى، وكاد وجهاهما أن يتلامسا ثم أخذ لوسيان بين ذراعيه وداعب صدره من تحت سترة البيجاما، لم يكن هذا كريهًا، بل هو عذب إلى حد ما، إلا أن برجير كان مخيفًا: إذ بدت عليه سيماء البلاهة، وراح يردد بقوة: "ألا تخجل أيها الخنزير الصغير. ألا تخجل!" وكأنه أسطوانة الفونوغراف تعلن عن مواعيد القطارات. أما يد برجير فكانت بالعكس حية رشيقة وكأنها إنسان. كانت تلامس برفق طرف ثديي لوسيان، وكأنها دغدغة الماء الساخن عندما يدخل المرء إلى الحمام. وورد لوسيان لو أنه يمسك تلك اليد، ويزيحها عنه ويلويهأن لكن برجير سيسخر منه ولا شك. وتزحلقت اليد على طول بطنه وتوقفت قليلًا لتفك عقدة الحزام الذي يشد السروال. وترك اليد تتزحلق: كان ثقيلًا مائعًا كالإسفنجة المبللة وهو في ذروة الفزع. وازاج برجير الغطاء، ووضع رأسه على صدر لوسيان وكأنه يحسه. وتجشأ لوسيان مرتين وخشي أن يقيء على شعر برجير الفضي الجميل. وقال له: "إنك تضغط على معدتي" فارتفع برجير قليلًا ووضع إحدى يديه تحت كليتي لوسيان، أما اليد الأخرى فلم تعد تدغدغه بل راحت تشد عليه. وقال برجير فجأة: "لك فخذان جميلان" وظن لوسيان أنه يرى كابوسًا: فسأل بغنج: "هل يعجبانك؟" لكن برجير تركه فجأة ورفع رأسه على عجل وقال بغضب: "يا لك من مغفل لعين، ها قد

مضت ساعة، وهو يريد أن يلعب دور رامبو، ولم أستطع حتى الآن أن أهيجه" وتصاعدت إلى عيني لوسيان دموع الغيظ ودفع برجير عنه بكل قواه وقال بصوت دقيق: "أنها ليست غلطتي، فقد قدمت لي كثيرًا من الشراب وأريد الآن أن أقئ". فقال برجير: "حسنًا اذهب. اذهب. واملأ وقتك" وأضاف من بين أسنانه: "يا له من قذر!" أحس بأنه مُهان إلى حد بعيد، لكنه لا يعرف إذا كان خجلًا من مداعبات برجير أو من عدم اضطرابه. كانت تأتيه من الممر قرقعة ترتعد فرائصه عند سماعها، لكنه لم يكن بوسعه أن يقرر دخول الغرفة. وفكر في نفسه: "ينبغي على كل حال أن أعود إليها وإلا فسيسخر مني - مع برلياك!" وهم بالوقوف، لكنه رأى فجأة برجير بوجهه الحيواني وكان يسمعه يقول: "ألا تخجل أيها الخنزير الصغير ألا تخجل". فعاد إلى الجلوس يائسًا كل اليأس! وما هي إلا لحظة حتى أصيب بإسهال قوي فارتاح قليلًا وفكر في نفسه: "ها أن الأمر ينتهي من تحت، وأنا أفضل هذا". في الواقع، أنه لم يعد يرغب في التقيؤ. وفكر في نفسه فجأة: "سيؤذيني" وظن بأنه سيغمى عليه. وأخيرًا شعر لوسيان بالبرد الشديد وأخذت أسنانه تصطك، وفكر بأنه سيصاب بالمرض في الحال. ولما عاد، نظر إليه برجير متضايقًا، كان يدخل سيكارة، وبيجامته مفتوحة، يبدو من تحتها صدره الضعيف. وخلع لوسيان بتؤدة، خفته وروب النوم، وانزلق تحت اللحاف بدون أن ينبس بكلمة. فسأله برجير: "كيف أنت" فهز لوسيان كتفيه: "أشعر بالبرد!".

- هل تريد أن أدفئك؟

فقال لوسيان:

- حاول دائمًا.

في هذه اللحظة أحس بأنه ينسحق تحت عبء ثقيل. والتصق بفمه فم ساخن رخو، وكأنه البفتاك النئ. لم يعد لوسيان يفقه شيئًا، ولم يعد يدري أين هو وكان أن يختنق، لكنه سر لأنه شعر بالدفء. وفكر بمدام بيس التي كانت تضع يدها على بطنه وهي تناديه "يا لعبتي الصغيرة". وفكر أيضًا بهبرار الذي كان يسميه "الهليونة الكبيرة". ويقول في نفسه: "أنا لعبته الصغيرة!" في تلك اللحظة أرسل برجير صيحة الانتصار وقال: "وأخيرًا ها أنك تصمم". وأضاف وهو يلهث: "هيا، سنصنع منك شيئًا". وحرص لوسيان على أن يخلع بيجامته بنفسه.

في اليوم التالي، استيقظا عند الظهر، وأتى الخادم بطعامهما إلى السرير، ووجد لوسيان أنه غريب الهيئة. وفكر في نفسه بارتعاشه تنم عن الاشمئزاز: "أنه يعتبرني مغفلًا" أما برجير فكان في منتهى الدماثة؛ ارتدى ثيابه قبل لوسيان وراح يدخن سيكارته في محلة الفيور مارشيه بينما كان لوسيان يستحم وفكر لوسيان وهو يفرك جسمه بعناية: "كل ما هنالك، أن العملية مقلقة". ما أن مضت لحظة الذعر، وأحس بأنها ليست أليمة بقدر ما توقع، اجتاحه قلق قاتم. كان يأمل دائمًا أن ينتهي ذلك وأن يستطيع أن ينام، لكن برجير لم يتركه وشأنه قبل الرابعة صباحًا وقال في نفسه: "ينبغي أن أنهي مسألة التريفونومتري مهما يكن م نأمر". وحاول أن يحصر تفكيره بعمله. كان النهار طويلًا. سرد له برجير قصة لوتريامون، لكن لوسيان لم يصغ إليها بانتباه. إذ إن برجير بات يزعجه قليلًا.

وفي المساء، ناما في كودبيك، وبالطبع أزعج برجير لوسيان لوقت لا بأس به، ولكن نحو الساعة الواحدة، قال له لوسيان بصراحة أنه يشعر بالنعاس، فتركه برجير وشأنه بدون أن يغضب. وعاد إلى باريس في نهاية بعد الظهر. ولم يكن لوسيان راضيًا عن نفسه.

واستقبله أبواه استقبالًا حسنًا. وسألت أمه: "هل شكرت السيد برجير على الأقل". وتحدث مهما قليلًا عن الريف النورماندي وآوى إلى فراشه في ساعة مبكرة. ونام كالملاك، لكنه في صبيحة اليوم التالي، شعر عندما استيقظ بأنه يرتجف في داخله. فنهض ونظر إلى نفسه مليًا في المرآة. وقال في نفسه: "أنا لواطي". وخارت قواه. وصاحت أمه من خلف الباب: "أنهض يا لوسيان عليك أن تذهب إلى الكلية هذا الصباح" فأجابها لوسيان بليونة: "نعم يا أمي" ، لكنه استلقى على سريره وراح ينظر إلى أصابع قديمه. "ليس هذا صوابًا، لم أكن أعي ذلك؛ أناح ليست لدي أية تجربة". تلك الأصابع، قد مصها أحد الرجال الواحدة تلو الأخرى. وأشاح لوسيان بوجهه بعنف: "كان هو يعرف ذلك إن الفعل الذي جعلني أقدم عليه يحمل اسمًا، أنه يسمى مضاجعة رجل لرجل، وهو يعرف ذلك". أنه أمر مضحك - وابتسم لوسيان بمرارة - بوسع الجميع أن يتساءلوا أيامًا طوالًا: هل أنا ذكي، هل أنا ساذج، وليس بالإمكان التوصل إلى نتيجة. إلى جانب هذا، هناك أمور تتعلق بك يومًا من الأيام، وينبغي تحملها طيلة الحياة. كان لوسيان، على سبيل المثال، طويلًا أشقرِ، يشبه أباه، وهو ابن وحيد، وهو لواطي ابتداء من يوم أمس. سيقال عنه: "فلوريه. أنت

تعرف حق المعرفة، هذا الطويل الأشقر الذي يحب الرجال!" وسيجيب الناس: "آه! نعم. الرجل الطويل؟ حسنًا، أعرف من هو".

وارتدى ثيابه وخرج، لكنه لم ينو الذهاب إلى الكلية. ونزل إلى جادة لا مبال حتى وصل إلى السين. وسار بمحاذاة الأرصفة، كانت السماء صافية، والشوارع تفوح برائحة الورق الأخضر والقطران والتبغ الإنكليزي. وقت يحلم المرء به ليرتدي أحلى ثيابه على جسده النظيف وبروح جديدة. كان الجميع يتمتعون بمعنوياتهم، أما لوسيان فظل وحده محتارًا وغريبًا في هذا الربيع. وفكر في نفسه: "أنه الانحدار الحتمي: بدأت بعقدة أوديب، ثم أصبحت ساديًا شرجيًا، والآن جمعت كل شيء إذ أصبحت لواطيًا. فأين ينبغي أن أقف؟" لا شك أن حالته لم تكن شديدة الخطورة. فلم يستمتع كثيرًا بمداعبات برجير. ولكنه فكر بقلق: "ولكن إذا اعتدت على ذلك؟ لا يعود بإمكاني الاستغناء عنه، إذ يصبح كالمورفين!" سيصبح رجلًا ذا عاهة، ما من أحد يقبل ان يستقبله، وسيسخر منه عمال أبيه عندما يصدر إليهم أمره. وتصور لوسيان مصيره الرهيب. ورأى نفسه في الخامسة والثلاثين رقيقًا متبرجًا، ورجلًا له شاربان يحمل وسام جوقة الشرف، يرفع عصاه بهيئة تبعث على الرهبة. "إن جودك هنا أيها السيد إهانة لبناتي" وفجأة تأرجح ذات اليمين وذات اليسار فقد تذكر عبارة من عبارات برجير كان ذلك في كودبيك أثناء الليل. قال له برجير: "حسنًا قل لي. هل أصبحت تستسيغ ذلك!" ما كان يعنيه! بالطبع، لم يكن لوسيان من خشب. وقال في نفسه قلقًا: "هذا لا يدل على

شـيء". لكـن هنـاك مـن يعتقـد بـأن هـؤلاء الأشـخاص كـانوا مدهشين في التعريف على أشباههم، كانت لديهم حاسة سادسة. نظر لوسيان مطولًا إلى رقيب المدينة الذي كان ينظم السير أمـام جسـر الايأنـا. "هـل بإمكـان هـذا الشـرطي أن يهيجنـي؟" وثبت نظره على سراول الشرطي الأزرق، وتصور فخذيه الزاخرين بالعضلات، المكسوين بالشعر: "هل يصنع لي شيئًا؟ وذهب بعد أن وجد لنفسه تعزية. وفكر في نفسه: "ليس الأمر خطيرًا جدًا، إذ إن بإمكاني أن أنفذ نفسي. لقد أفرط في استغلال تشوشي لكنني لست لواطيًا حقيقيًا" وعاود، التجربة مع جميع الرجال الذين صادفهم، وفي كل مرة كانت النتيجة سلبية. وفكر في نفسه: "أفٍ" إننى أشعر بشدة الحر." إن هذا تحذير، ذلك كل شـيء. ليس عليه أن يعيد الكرة، لأن العادة السيئة يمكن تلقنها بسرعة ثم إن عليه أن يشفي من عقده بسرعة، وقرر أن يذهب ليجري لنفسه تحليلًا عند محلل نفسي بدون أن يعلم أبويه بذلك. وبعدها، يتخذ لنفسه عشيقة ويصبح رجلًا كسائر الرجال.

وبدأ لوسيان يطمئن حين يفكر ببرجير: في نفس اللحظة، كان برجير في باريس شديد الرضى عن نفسه يعيش مع ذكرياته الجميلة: "أنه يعرف كيف تكويني، ويعرف فمي، لقد قال لي: "لك رائحة لن أنساها قط". سيذهب إلى أصدقائه ليفتخر أمامهم ويقول: "لقد نلته". في هذه اللحظة يمكن أن يكون منهمكًا بسرد أخبار لياليه إلى ... - وتوقف قلب لوسيان عن الخفقان - إلى برلياك! لو فعل هذا، لقتلته. أن يرلياك يكرهني، وسيخبر بذلك جميع من في الصف، فأصبح رفيقًا مارقًا، ويرفض رفاقي أن يمدوا أيديهم لمصافحتي. وقال

لوسيان في نفسه أيضًا: "سأقول إن ذلك غير صحيح، وسأقيم دعوى، وأقول أنه اغتصبني!" ، كان لوسيان يكره برجير بكل ما أوتي من قوة: فبدونه، بدون هذا الضمير الفاضح الذي ليس له دواء، كان بالإمكان تسوية كل شيء، إذ لا أحد يدري بذلك ثم إن لوسيان نفسه سينسى الأمر. "لو كان بالإمكان أن يموت بسرعة! يا رب، أتوسل إليك، اجعله يموت هذه الليلة قبل أن يخبر أحدًا بذلك. ربّ، اجعل هذه القصة منسية، فأنت لا تقبل بأن أكون لواطيًا !" وفكر لوسيان بغيظ: "أنه يمسكني على كل حال. سينبغي أن أعود إلى بيته وأفعل كل ما يريده مني وأن أقول له بأنني أحب تلك العادة، وإلا لفقدت نفسي!" ومشى خطوات أخرى وأضاف كأنه يقدم على تدبير احترازي: "رب، واجعل برلياك يموت أيضًا".

لم يعد بوسع لوسيان أن يعود إلى بيت برجير. وفي الأسابيع التي تلت، كان يظن بأنه يلاقيه عند كل خطوة، وعندما يعمل في غرفته، ترتعد فرائصه لدى سماعه الجرس. في الليل رأى كوابيس رهيبة: برجير يأخذه بالقوة في باحة كلية سان لويس، أمام أنظار جميع الرفاق الذين ينظرون ساخرين. لكن برجير لم يقم بأية حركة لمقابلته ولم تصدر عنه أية إشارة تدل على أنه حي. وفكر لوسيان مزعوجا: "ما كان يبغي سوى جلدي". واختفى برلياك برفقته أيضًا. وغيغار، الذي كان يذهب أحيانًا إلى ميدان السباق يوم الأحد، أكد بأنه غادر باريس على إثر انهيار عصبي. وهدأت أعصاب لوسيان شيئا فشيئا: إن رحلته إلى روان أحدثت في نفسه أثر حلم غامض فظ لا يرتبط بشيء. لقد نسي جميع تفصايله، ولم يعد يتذكر سوى رائحة

اللحم البشري الكئيبة، ورائحة العطر وكذلك القلق الذي لا يرحم. وسأل السيد فلوربيه مرارا عما حدث للصديق برجير: "ينبغي أن ندعوه إلى فيرول لنشكره". فأجاب لوسيان:

- لقد ذهب إلى نيويورك.

وذهب لوسيان مرات عديدة وتمرن على شاطئ المارن على قيادة القوارب برفقة غيغار وشقيته، وعلمه غيغار الرقص. وفكر في نفسه: "ها أنني أستيقظ، وأحيا من جديد". لكنه لا يزال يحس في بعض الأحيان بعبء يرزح على كاهله: تلك هي عقده النفسية، وتساءل إذا كان يجب أن يذهب لمقابلة فرويد في فينا: "سأذهب بدون نقود، مشيًا على الأقدام إذا اقتضى الأمر، سأقول له: "أنا مفلس لكنني أمثل قضية معينة". وفي أصيل يوم حار من أيار حزيران التقى في جادة سان - ميشال إل بدوان، أستاذه السابق في الفلسفة. فسأله البدوان: "ماذا يا فلوربيه، هل تعد المدرسة المركزية؟"

فقال لوسيان: "نعم يا أستاذ". فقال إل بدران: "كان بإمكانك أن تتجه نحو الدراسات الأدبية. فقد كنت من الطلبة الماهرية في مادة الفلسفة". فقال لوسيان: "لم أتخل عن الفلسفة. وقد طالعت كثيرًا هذه السنة. طالعت فرويد مثلًا". وأضاف وكأن وحيًا قد أتاه: "كان بودي أن أسألك يا أستاذ: ما رأيك بالتحليل النفسي" فأجابه إل بدوان ضاحكًا: "أنها تقليعة وتمر. وإن ما تجده حسنًا عند فرويد، تجده أيضًا عند أفلاطون". وأضاف بلهجة لا تحتمل المناقشة: "على أني لا أحسم في مثل هذه الأمور، ولكن عليك أن تقرأ سبينوزا". وأحس لوسيان بأنه

يرتاح من عبء ثقيل، وعاد إلى بيته وهو يصفر وفكر في نفسه:

"كان كابوسًا، ولم يبق منه شيء!" كانت الشمس محرقة في ذلك النهار، لكن بوسع لوسيان أن يواجه هذا النهار؛ أنه تخلص! وفكر في نفسه، "أنه هراء. أنه هراء، لقد حاولوا أن يجعلوني مجنونًا لكنهم لم يفلحوا". في الواقع أنه لا زال يقاوم: صحيح أن برجير قد أثر عليه في تحليلاته، لكن لوسيان يحس مثلًا بأن لواطة رامبو هي عيب متأصل فيه، وتذكر حين أراد هذا البرجير أن يدخن له الحشيش فقاومه. وفكر: "كدت أن أفقد نفسي، لكن الذي انقذني إنما هي صحتي المعنوية". وفي المساء، نظر إلى أبيه والعائلة جالسة إلى مائدة الطعام، نظرة ملؤها الحنو. كان السيد فلوربيه مربع الكتفين، ثقيل الحركات، أغبر العينين، نحاسي النظرات كالرؤساء. وفكر لوسيان: "إنني أشبهه". وتذكر بأن أفراد عائلة فلوربيه، أبًا عن جد، كانوا من أرباب الأعمال في الصناعة، منذ أربعة أجيال، ومهما قيل، فإن العائلة موجودة!" ثم فكر باعتزاز بصحة آل فلوربيه المعنوية.

لم يتقدم لوسيان هذه السنة لامتحان المدرسة المركزية، وذهبت عائلة فلورييه إلى فيرول في وقت مبكر جدًا. وسر لوسيان برؤية بيته من جديد وكذلك البستان والمصنع، والمدينة الهادئة المتزنة. أنه عالم آخر: وقرر أن ينهض في الصباح الباكر ليقوم بنزهات كثيرة في المنطقة. وقال لأبيه: "أريد أن أملأ رئتي بالهواء النقي استعدادًا للعام القادم". ورافق أمه في زيارتها لعائلتي بوفارديه وبيس، ووجد الجميع أنه أصبح شابًا

متزنًا. كان هبرار ووثكلمن اللذان يدرسان الحقوق في باريس قد عادا إلى فيرول لقضاء العطلة وخرج لوسيان مرات عديدة برفقتهم، وتحدثوا عن الألاعيب التي قاموا بها مع الكاهن جا كمار، وعن أغنيتهم فوق الدراجة وأنشدوا نشيد مدفع متز، بأصواتهم الثلاثة. كان لوسيان يقدر صراحة أصحابه القدامي وصلابتهم وأنحى باللائحة على نفسه لأنه تخلى عنهم. واعترف لهبرار بأنه لا يحب باريس ولم يكن بوسع هبرار أن يفهمه: سلمه أبواه إلى أحد الكهنة، وهو لا يزال مبهورًا بمتحف اللوفر وبالأمسية التي قضاها في الأوبرا. ورق لوسيان لهذه البساطة. وشعر بأنه شقيق هبرار رونكلمن الأكبر، وبات يشعر بأنه لا يأسف على تلك الحياة المعذبة التي قذاها: فقد أكسبته تجربة. وحدثهما عن فرويد وعن التحليل النفسي، وتسلى قليلًا بإغوائهما. لقد انتقدا بعنف نظرية العقد النفسية لكن آراءهما كانت ساذجة كما بين لهما لوسيان، وأضاف بأنه من الناحية الفلسفية، بالإمكان دحض نظريات فرويد. وكانا شديدي الإعجاب به، فيتظاهر لوسيان بأنه لا ينتبه لذلك.

وشرح السيد فلوربيه للوسيان كيفية العمل في المصنع. كما اصطحبه لزيارة الأبنية المركزية، وراقب لوسيان مطولًا شغل العمال. وقال السيد فلوربيه: "إذا مت ينبغي أن تتمكن بين يوم وآخر من السيطرة على زمام المصنع. وزجره لوسيان قائلًا: "ألا تريد يا أبتاه، أن تكف عن هذا الحديث!" لكنه فكر في الأيام التالية بالمسؤولية الكبرى التي ستلقى على عاتقه إن عاجلًا أم آجلًا. وتبادلا الآراء حول واجبات رب العمل، وشرح له السيد فلوربيه بأن الملكية ليست حقًا بل واجبًا. وأضاف:

"يريدون أن يزعجونا بصراع الطبقات، كما لو أن مصلحة أرباب العمل ومصلحة العمال متناقضة! خذ مثلًا عني يا لوسيان. أنا رب عمل صغير، وهذا ما يسمونه بالأرغولان بلغة باريس العامة. حسنًا، إنني، أحيي مائة عاملة مع عائلاتهم. فإذا قمت بأشغال كبيرة، فهم أول من يستفيد منها. لكنني إذا أرغمت على أقفال المصنع، فأنهم يتشردون في الشارع. وقال مشددًا على كلامه: "وليس لي الحق" أن أقوم بأشغال سيئة. وهذا ما أسميه أنا تضامن الطبقات".

وجرى كل شيء على ما يرام طيلة ثلاثة أسابيع، ولم يعد يفكر أبدًا ببرجير. لقد غفر له، لكنه تأمل على الأقل ألا يعود إلى رؤيته مدى الحياة. وأحيانًا حين يبدل قميصه، كان يقف أمام المرآة وينظر إلى نفسه بدهشة، ويفكر: "رجل اشتهى جسده". ويمر بيديه على ساقيه مفكرًا: "رجل اضطرب من أثر ساقيه". ويند يده إلى مكان كليته ويأسف على أنه ليس رجلًا آخر ليداعب جسده كما يداعب قطعة الحرير. وكان يأسف أحيانًا على عقده: فهي صلبة، شديدة، ترزح بعبئها الثقيل على كاهله. والآن، انتهى كل شيء فلم يعد لوسيان يؤمن بها، وأحس بشدة خفته. لم يكن ذلك من الأشياء التي لا تحتمل، بل هو نوع من النفوذ المحتمل، والمؤلم إلى حد ما، يمكن أن يتحول إلى قلق. وفكر في نفسه: "أنا لست أي شيء، وذاك لأنني لم أتلطخ بشيء أما برلياك فهو متلزم كل الالتزام. وبإمكاني أن أتحمل القليل من عدم اليقين فهو فدية الطهارة".

وفكر في إحدى رحلاته بعد أن جلس على العشب: "لقد نمت ست سنوات، ثم استفقت ذات يوم". كان مفعمًا بالحيوية

وهو يتطلع إلى المناظر المحيطة. وقال في نفسه: "لقد خلقت من أجل العمل". لكن أفكاره أصبحت باهتة. وقال بصوت خافت: "فلينتظروا قليلًا حتى يروا ما أساوي". وتكلم بقوة لكن الكلمات تدحرجت من فمه كالأصداف الفارغة: "ما بي". ذلك القلق الغريب الذي لم يرض بالاعتراف به، سبب له أذى كبيرًا. لقد فكر في الماضي: "أنه هذا الكون ... هذه البلاد ..."

ما من كائن حي سوى القبابيط تجر بطونها وسط الغبار بصعوبة، كان يكره القبابيط لأنها تبدو أقرب إلى الموت. وفي الجهة الثانية رأى الشجرة الباسقة ذاوية على حافة النهر. ما من أحد يرى لوسيان، ما من أحد يسمعه. وقفز في الفضاء وتهيأ له بأن حركاته لا تصادف أية مقاومة، حتى مقاومة الجاذبية، وهو واقف وراء ستار من الغمام الأغبر. لكأنه موجود في الفراغ. وفكر في نفسه: "هذا السكون ..." كان شيئًا يفوق السكون، أنه العدم. وحول لوزسيان بدا السهل ساكنًا رخوًا عديم الحياة بشكل عجيب: وبدا له أن السهل يتقلص كثيرًا اقطعًا تنفسه كيلا يزعجه "متى يعود صاحب المدفع في ميتز إلى كتيبته..." وانطفأ الصوت على شفتيه كلهيب في فراغ: كان لوسيان وحده، بلا ظل، ولا صدى، وسط هذه الطبيعة المتخفية، التي لا وزن لها. وارتعش قليلًا وحال أن يعيد وصل حبل أفكاره: "لقد خلقت من أجل العمل. قد أضل في البدء: إذ بإمكاني أن ارتكب الحماقات، لكن هذا لن يبلغ مدى بعيدًا لأنني سأعود إلى رشدي". وفكر: "لدي حجة معنوية". لكنه توقف بعد أك كشر عن أسنانه مشمئزا، كم بدت له غريبة فكرة الكلام عن الصحة المعنوية"، "على تلك

الطريق البيضاء التي تسير عليها حشرات في نزاعها الأخير. ولشدة غيظه داس لوسيان على قبوط؛ وشعر تحت حذائه بكرة صغيرة من المطاط، ولما رفع رجله كان القبود لا يزال على قيد الحياة، فبصق لوسيان عليه. "أنا محتار، أنا محتار، كما في العام الماضي". وراح يفكر بونكلمن الذي كان يلقبه "ببطل الأبطال"، وبالسيد فلوريبه الذي يعامله كرجل، وبالسيدة بيس التي قالت له: "هذا الصبي الذي كنت أناديه بلعبتي الصغيرة"، لم أعد أجرؤ على مخاطبته بصيغة المفرد، أنه يرهبني". لكنهم كانوا شديدي البعدن وبدا له أن لوسيان الحقيقي قد فقد، وليس سوى يرقة بيضاء محتارة "ما أنا؟" كيلو مترات وكيلو مترات تمتد على مداها الأراضي البور، بلا عشب ولا رائحة، إلا الهليونة التي، لشدة غرابتها، ليس لها أي ظل. "من أكون؟". لم يتغير السؤال منذ الغطلة السابقة، وكأنه ينتظر لوسيان حيث تركه ليرد عليه؛ أو بالأحرى ليس سؤالًا، بل هو حالة من الحالات. وهز لوسيان كتفيه وفكر: "أنني شديد الاشتباه، وأحلل نفسي كثيرًا".

في الأيام التالية، حاول أن يتغاضى عن تحليل نفسه: شاء أن يجعل الأشياء تسحره، ونظر مطولًا إلى الأشجار والواجهات، وامتدح أمه كثيرًا وهو يرجوها أن تريه الطقم الفضي. لكنه بينما كان ينظر إلى الطقم الفضي، فكر بأن وراء نظرته غمامة صغيرة تتراقص. وعبثا حاول لوسيان أن يركز انتباهه على حديثه مع أبيه، لكن الغمامة تسللت إلى ما وراء الانتباه الذي كان بيديه لكلمات أبيه: تلك الغمامة، أنها هو بذاته. كان لوسيان من وقت لآخر يتغاضى عن الأصغاء، ويستدير

إلى الوراء، يحاول أن يمسك بالغمامة وينظر إليها مواجهة، ولم يصادف سوى الفراغ، والغمامة لا تزال وراءه.

وجاءت جرمين باكية أمام السيد فلوربيه، تقول أن أخاها أصيب بالتهاب رئوي. فقالت السيدة فلوربيه:

- مسكينة يا جرمين، هذا الذي قلت عنه أنه متين العود!

منحتها عطلة شهر، واستقدمت ابنة أحد عمال المصنع لتحل محلها، وهي برت موزيل الصغيرة، وعمرها سبع عشرة سنة. أنها فتاة قصيرة ذات جدائل شقراء تلفها حول رأسها، وهي تعرج بعض الشيء. ولما كانت قادمة م نكونكارنو، رجتها السيدة فلوربيه على ابتداء مئزر موشى بالدنتيل، "فهذا أكثر لياقة". ومنذ اليوم الأول، أخذت عيناها الزرقاوان الواسعتان، تشعان بالمحبة العنيفة عند رؤية لوسيان. أنها تعبده. تحدث إليها بلطف وسألها مرات عديدة: "هل أنت مسرورة في بيتنا؟" في الممرات كان يلامسها ليرى أثر الملامسة فيها. لكنها كانت تحنو إليه، فوجد في تلك المحبة تعزية خالصة. كان يفكر أكثر الأحيان بنوع من التأثر بالصورة التي كونتها برت عنه: "في الواقع أنني لا أشبه قط أولئك العمال الذين تعاشرهم برت". وادخل ونكلمان إلى المكتب، فوجدها جذابة، وقال له: "إنك محظوظ، لو كنت في مكانك لأقدمت، لكن لوسيان كان يتردد: إذ إن رائحة العرق تفوح منها، كما أن قميصها الأسود أصبح رثًا تحت ذراعيها. في أصيل يوم ممطر من شهر أيلول، قصدت السيدة فلوربيه باريس بالسيارة، وبقي لوسيان وحده في الغرفة. استلقى على سريره وراح يتثاءب. وبدا له أنه غمامة كيفية الطباع، تبقى

على حالها وتتغير في نفس الوقت، كما تذوب دائمًا في الأهواء والشواطئ. "اسأل نفسي لماذا أنا موجود؟" أنه هنا، يهضم طعامه، ويتثاءب، ويسمع المطر يضرب الزجاج، والغمامة البيضاء تتهادى في رأسه: وبعدها؟ أن حياته فضيحة ولا تكاد المسؤوليات التي سيتحملها فيما بعد تكفي لتبريرها. وقال في نفسه: "على أني، لم أطالب أحدًا بخلقي". واعتراه نوع من الشفقة على نفسه. وتذكر قلقه حين كان طفلًا، وروبصته الطويلة؛ فبدت له على صورة جديدة: في الواقع أنه ما برح ينزعج من حياته، من تلك الهدية الضخمة غير المجدية، التي حملها بين ذراعيه دون أن يعرف أين يضعها. "لقد أمضيت وقتي في الأسف على ولادتي". لكنه كان شديد الإعياء وليس بإمكانه أن يذهب إلى أبعد من ذلك. ونهض، ثم أشعل سيكارة ونزل إلى المطبخ ليطلب إلى برت أن تحضر له قليلًا من الشاي.

ولم تره برت وهو يدخل. فلمس كتفها فأرعشت بعنف وسألها: "هل أخفتك؟" ونظرت إليه بوجه ملؤه الرهبة وهي تلقي بكلتا يديها على الطاولة؛ وارتفع صدروها قليلًا. وما هي إلا هنيهة حتى ابتسمت ثم قالت: "فوجئت بوجودك، إذ لم أكن أدري أن هناك أحدًا". فبادلها لوسيان الابتسامة بتسامح وقال لها: "أرجو أن تعدي لي فنجانًا من الشاي". فأجابت الصغيرة وهي تسرع نحو المرقد: "سأعده في الحال يا سيد لوسيان". بدا لها أن وجود لوسيان شديد الوطأة عليها. مكث لوسيان في عتبة الباب مترددًا وسألها بلهجة أبوية" "هل أنت مسرورة في بيتنا؟" كانت برت تدير له ظهرها تملأ الطنجرة من الحنفية.

فخيم خرير الماء على إجابتها. وانتظر لوسيان لحظة، وما أن وضعت الطنجرة على الثار حتى تابع كلامه: "هل دخنت في السابق؟" فأجابت الفتاة بحذر: "مرات كثيرة". وفتح علبته ماركة كريفن، وناولها إياها. لم يكن شديد السرور إذ بدا له أنه في مجال التآمر، فلا ينبغي أن يقدم لها سيكارة. فقالت مدهوشة:

- هل تريد أن أدخن؟

- ولم لا؟

- ستعنفني السيدة.

واعترى لوسيان شعور التآمر المقيت. فراح يضحك وقال: "لن نخبرها بذلك". فاحمر وجه برت، وتناولت سيكارة بطرف أصابعها ووضعتها في فمها. "هل ينبغي أن أشعلها لها؟ هذا خطأ". فقال لها: "ألا تشعلينها" كانت تزعجه؛ إذ بقيت في مكانها، جامدة الذراعين، محمرة الوجه طائعة، تزم شفتيها حول السيكارة، وكأنها تضع في فمها ميزان الحرارة. وأخيرًا تناولت عود ثقاب من علبة حديدية بيضاء، وحكت العود، وأخذت عدة أنفاس وهي تغمر بعينيها وقال: "هذا لذيذ". ثم أخرجت السيكارة من فمها، وضغطت عليها بأصابعها الخمس. وفكر لوسيان "هل ولدت ضحية؟" ثم شعرت بالأنس، حين سألها إذا كانت تحب موطنها بريتونيا، فشرحت له عن الأصناف الموجودة فيها، حق أنها انشدت بصوت عذب خاطئ الإيقاع، أغنية لروز بوردرن. ومازحها لوسيان بلطف، لكنها لم تفهم الممازحة وراحت تنظر إليه بوجه ملؤه الخوف، كانت في تلك اللحظات تشبه الأرنب الأليف. وجلس على طاولة

وأحس بأنه مرتاح جدًا وقال لها: "استريحي إذًا". "أوه وشدها نحو ركبتيه وسألها: و"هكذا؟" وسمحت له بذلك بوجه ملؤه الانشراح واللوم، وتمتمت بلهجة غريبة: "على ركبتيك!". ففكر لومسيان بقلق: "إنني رحت بعيدًا، لم يكن ينبغي أن أبعد إلى هذا الحد". وسكتك: بينما ظلت هي جالسة على ركبتيه، شديدة الدفء، ملؤها الهدوء، لكن لوسيان أحس بقلبه يخفق وفكر: "أنها شيء لي، بإمكاني أن أفعل بها ما أريد". وتركها، ثم أخذ إبريق الشاي وصعد إلى غرفته، ولم تقم برت بأية حركة لإمساكه. وقبل أن يحتسي الشاي، غسل لوسيان يديه بصابون أمه المعطر، إذ إن رائحة الإبط كانت تفوح منهما.

"هل سأضاجعها؟" شغلت هذه المسألة الصغيرة بال لوسيان في الأيام التي تلت. كانت ببرت تقف طيلة الوقت في طريقه وتنظر إليه بعينين كئيبتين. وانتصرت الأخلاق، أدرك لوسيان بأنه قد يجعلها حاملًا لأنه ليس ذا خبرة كافية. (ومن المستحيل أن يشتري "الكبابيت الواقية" من فيرول، لأنه معروف فيها) وأنه سيسبب متاعب للسيدة فلورييه. وفكر في نفسه بأن مهابته في المصنع ستقل كثيرًا إذا أخذت ابنة أحد العمال تفاخر بأنها ضاجعته. "ليس لي الحق أن ألامسها". لقد تجنب الانفرا ببرت طيلة الأيام الأخيرة من شهر أيلول. وقال له ونكلمن: "وأخيرًا ماذا تنتظر؟" فأجاب لوسيان إجابة جافة: "لن أقدم على هذه الخطوة فأنا لا أرغب في غرام الخادمات ولما سمعه ويتكلمن يتحدث عن غرام الخادمات، صفر صفرة خفيفة وسكت.

كان لوسيان شديد الرضى عن نفسه. لقد تصرف كإنسان عصري، وهذا ما يعوض له عن الكثير من الأخطاء. ثم يقول ببعض الأسف: "كانت جديرة بالحيازة". لكنه يعود ويفكر: "لكأنني نلتها: إذ هي قدمت نفسها ولم أرض". واعتبر أنه ليس بعد طاهرًا. تلك المسرات الخفيفة شغلته عدة أيام ثم تحولت بدورها إلى غمام. وفي بداية تشرين الأول، أحسن بنفس الضيق الذي كان فيه في العام الدراسي المنصرم.

لم يكن برلياك قد عاد، ولا أحد يعرف شيئًا عن أخباره. ولاحظ لوسيان وجود بعض الوجوه التي لا يعرفها: إن جاره الذي كان يجلس إلى يمينه واسمه لي موردًا درس سنة في فرع الرياضيات في بواتييه. وهو لا يزال أطول من لوسيان، فقد أصبح رجلًا كبير بشاربيه الأسودين. لقد قابل لوسيان رفاقه بغير سرور، لأنهم بدوا بعينه تافهين كثيري الضجيج: أنهم رهبان. وهو لا يزال يشتريك بتظاهراتهم الجماعية ولكن بغير تحمس. واجتذبه لي موردان لأنه أكثر نضوجًا من الآخرين، لكنه لم يبد عليه أنه أفاد قدر إفادة لوسيان من تجاربه الكثيرة الصعبة: أنه بالغ بالولادة. وغالبًا ما كان لوسيان يتمتع بمنظر هذا الرأس الضخم المفكر، الذي لا عنق له، وإنما غرس بين الكتفين اعتباطا: وليس بالإمكان إدخال أي شيء فيه لا عن طريق الأذنين، ولا عن طريق العينين الصينيتين المحمرتين. وفكر لوسيان باحترام: "أنه شخص له آراؤه الراسخة". كما كان يتساءل، وليس بغير حد ما يمكن أن يكون ذاك اليقين الذي يجعل لي موردان، يعي نفسه إلى هذا الحد. "وهذا ما ينبغي أن أكونه: صخرة". ودهش كثيرًا إذ كيف للي موردان أن يفقه

المنطق الرياضي، وطمأنه الأستاذ هوسون بعد أن رد لهم الفروض الأولى: حل لوسيان سابعًا، أما لي موردان فنال العلامة خمسة وحل في الدرجة الثامنة والسبعين. كل شيء كان يسير بانتظام. ولم يتعجب لي موردان إذ يبدو أنه توقع نتيجة أسوأ، ولم يكن خداه الأصفران الناعمان، وفمه الصغير، لتعتبر عن المشاعر. أنه كتمثال بوذا. لم يره أحد وهو غاضب سوى مرة واحدة، في اليوم الذي دفعه لوفي إلى غرفة الثياب. أرسل في البداية بعض المهمات الحادة وهو يرفرف بحاجبيه. ثم قال في النهاية "إلى لولونيا! إلى لوبونيا! يا يوبان القذر، ولا تلطخنا بقذارتك هنا". وخيم على لوفي بقامته الضخمة وما لبث أن صفعه صفعتين، فاعتذر لوفي القصير، ووقف الأمر عند هذا الحد.

يوم الخميس خرج لوسيان بصحبة غيغار وقد دعاه إلى الرقص عند صديقات شقيقته. لكن غيغار اعترف في النهاية بأن هذه البلاهات تقلقه.

وأسر للوسيان: "لي صديقة موظفة عند بليسنه، في شارع رويال. ولها صديقة ليس عندها صاحب: فعليك أن تأتي معنا مساء السبت". وتنازع لوسيان مع أهله حتى سمحوا له بالخروج أيام السبت؛ على أن يتركوا له المفتاح تحت الممسحة. ولحق بغيغار في الساعة التاسعة إلى إحدى الحانات في شارع سانت - هونوري. وقال غيغار: "سترى، أن فأني جذابة ومن ميزاتها أنها تحسن الاعتناء بهندامها".

- وصديقتي أنا؟

- أنا لا أعرفها، لكنني أعرف أنها عاملة خياطة قدمت إلى باريس مؤخرًا من أنغوليم.

وأضاف: "لا تخطئ: أنا بيار دورا. وأنت بما أنك أشقر، فقد قلت بأن دمك انكليزي، فهذا أفضل. واسمك لوسيان بونيار.

فسأل لوسيان مدهوشًا:

- ولكن لماذا؟

فأجاب غيغار:

- يا صاح - أنه مبدأ، بإمكانك أن تفعل أي شيء مع هؤلاء النسوة، ولكن ليس بإمكانك أن تطيعهن اسمك الحقيقي.

فقال لوسيان:

- حسنًا، حسنًا. وماذا عن مهنتي في الحياة؟

- بإمكانك أن تقول إنك طالب، فهذا أفضل، فعشرة الطلاب تروق لهن، ثم إنك تضطر لدفع ثمن باهظ. أما بالنسبة للتكاليف فسنقتسمها بالطبع. ولكن دعني أدفع هذا المساء لأنني ألفت ذلك: وسأعين لك يوم الاثنين المبلغ الذي ينبغي أن تدفعه لي.

وفكر لوسيان في الحال بأن غيغار يريد أن يجني مكسبًا من وراء ذلك. وفكر أيضًا في نفسه: "كم أصبحت حذرًا!" في تلك اللحظة بالذات دخلت فأني: كانت فتاة طويلة سمراء اللون نحيلة الجسم، ذات فخذين مديدين ووجه شديد التبرج. فوجدها لوسيان مهيبة. وقال غيغار: "أنه السيد بأنيار الذي حدثتك عنه". فقالت فأني بغير اهتمام: "تشرفنا. وهذه مود، صدقيتي".

وأبصر لوسيان بامرأة قصيرة القامة، لم تتبرج، كما بدا لونها أغبر إلى جانب فأني الرائعة. أصيب لوسيان بخيبة أمل مريرة، لكنه وجدها جميلة الثغر - ثم أنه لن يشعر معها

بانزعاج. واتفق غيغار معهما على الأجرة وسط الضجة التي سادت عند دخولهما واصطحب الفتاتين نحو الباب، قبل أن يفسح لهما المجال كي تتناولا شرابًا ما. لم يكن السيد فلورييه يعطي لوسيان أكثر من مائة وخمسة وعشرين فرنكًا في الأسبوع من ضمنها أجرة المواصلات. كانت الأمسية جميلة، فقد ذهبوا ليرقصوا في الحي اللاتيني، في قاعة ساخنة وردية ذات زوايا مظلمة، حيث سمر كأس الكوكتيل بمئة فلس. كان فيها الكثير من الطلبة مع نسوة من طراز فأني ولكن دونها رونقًا. وكانت فأني رائعة: نظرت إلى رجل سمين أرسل لحيته ووضع في فمه غليونًا وصاحت بأعلى صوتها. أنني أكره الرجال الذين يضعون الغليون في حلبة الرقص". فاحمر وجه الرجل ووضع غليونه وهو يشتعل في جيبه. كما أنها عاملت غيغار ورفيقه باحتقار مرددة على مسامعها: "أنما صبيان قذران". وأحس لوسيان بأنه مرتاح جدًا، وقد سرد لفاني كثيرًا من الدعابات المسلية وهو يبتسم عندما يقولها. وأخيرًا، لم تعد الابتسامة تفارق وجهه وعرف كيف يتدبر أمره بنوع من اللياقة. لكن فأني لا تكلمه كثيرًا: بل أمسكت ذقن غيغار بيدها وضغطت عليها لتبرز فمه إلى الخارج. وما تدفق شفتاه وتنتفخان حتى تروح تلمسهما برفق قائلة: "يا طفلي". وأحس لوسيان بانزعاج شديد ووجد غيغار مضحكًا: إذ تلطخت شفتاه بأحمر الشفاه وعلى وجهه آثار أصابع. لكن وضع الرفاق الآخر كان أكثر إهمالًا. الجميع يتعانقون، كما تأتي من وقت لآخر السيدة الموكلة بغرفة الثياب وترمي بكريات متعددة الألوان صالحة: "هيا يا أبنائي، استمتعوا!". ويبدأ الجميع

بالضحك. وأخيرآ تصكر لوسيان بأن مود موجودة فقال باسمًا: "انظري إلى هذين الشابين". وهو يعني غيغار وفاني وأضاف: "أما نحن فشيخان وقوران..." ولم ينه عبارته، بل ضحك بصورة غريبة حتى ضحكت مود بدورها. وانتزعت قيمته، ورأى لوسيان أنها كانت أفضل من سائر النساء اللاتي كن في الحلبة، عندئذ دعاها للرقص وحدثها عن الألاعيب التي قام بها مع الأساتذة، عندما كان في صف البكالوريا. أنها تحسن الرقص، كما أن عينيها سوداوين رصينتين، وعليها سيماء النباهة. حدثها لوسيان عن برت وقال لها أنه يشعر بالندم متألمًا وأضاف: "لكن هذا كان أفضل لها". ووجدت مود قصة برت شاعرية وحزينة معًا، وسألت كم تكسب برت من عملها عند أهل لوسيان". وأضافت: "أليس من المضحك حقًا أن تتخذ الفتاة لنفسها وضعًا معينًا". لم يعد غيغار وفاني يهتمان بهما، فهو يداعبها وهي تداعبه، وكان وجه غيغار مبللًا من العرق. وراح لوسيان يردد من وقت آخر: "انظري إلى الشابين، انظري إليهما". وجهز عبارته: "أنهما يدبان بي الرغبة لأعمل مثلهما". ولكنه لم يضعها في مكانها واكتفى بالابتسام، ثم تظاهر بأنه رفيق قديم لمود، قد مل من الحب وسماها "بالأخ القديم". وتظاهر بأنه يربت على كتفها. وفجأة نظرت فأني نحوها مدهوشة وقالت: "إذًا" أيتها الطبقة الصغيرة، ماذا تفعلان؟ تعانقا، فتسموتان من شدة الرغبة". وأخذ لوسيان مود بين ذراعيه، كان مزعوجًا بعض الانزعاج لأن فأني تتطلع إليهما: أراد أن تكون القبلة طويلة ناجحة، لكنه تساءل ما ينبغي أن يفعله الناس ليستطيعوا التنفس. وأخيرًا، وجد أن العناق ليس

بمثل الصعوبة التي توقعها، إذ يكفي أن يقبل المرء اعتباطًا حتى يزيح منخريه. وسمع غيغار وهو يعد: "واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة" وترك مود عند رقم اثنين وخمسين". وقال غيغار لا بأس بهذا كبداية؛ لكنني سأحسن الحال" ونظر لوسيان إلى قشاط ساعته وراح يعد بدورن: "ترك غيغار ثغر فأني بعد مائة وخمسين ثانية. وفكر في نفسه. وغضب لوسيان أشد الغضب ووجد أنها مساسبقة لا معنى لها. وفكر في نفسه: "لقد تركت مود بملء أرادتي، فليس هذا صعبًا، إذ أنه ما أن يتعلم المرء كيف يتنفس حتى يصبح بإمكانه أن يستمر وقتًا لا نهاية له". وعاودوا الكرة ثانية. وما أن انتهى الجميع، حتى تطلعت مود إلى لوسيان وقالت له برصانة: "أنت تحسن التقبيل". فاحمر وجه لوسيان من السرور. وأضاف هو ينحني: "أنا في خدمتك" لكنه مع ذلك يؤثر تقبيل فاني. وافترقوا في الساعة ة الثانية عشرة والنصف، موعد المترو الأخير. كان لوسيان جذلًا: "لقد كسب القضية". لكن زوايا فمه باتت تؤلمه لأنه ابتسم كثيرًا.

اعتاد على مقابلة موديوم الخميس في السادسة وليلة السبت. كانت تسمح له بتقبيلها بدون أن تستسلم له. فشكا لوسيان الأمر لغيغار فطمأنه قائلًا: "لا تقلق بالك" فأني متأكدة من أنها ستضاجع؛ فهي لا تزال صغيرة ولم تعرف سوى عشيقين حتى الآن؛ توصيك فأني بأن تكون شديد الرقة معها". فقل لوسيان: "شديد الرقة". كان يقبل مود كثيرًا ويقول لها أنه يحبها، ولكن مع الوقت أصبح هذا رتيبًا، ثم أنه لم يكن فخورًا بالخروج معها: كما أن بوده أن يبدي لها بعض الملاحظات بشأن زينتها

لكن لديها الكثير من المزاعم الخاطئة فضلًا عن أنها سريعة الغضب. وفي فترة ما بين القبلتين، كانا يظلان صامتين، يمسك واحدهما بيد الآخر مثبتًا نظره فيه. "الله يعلم بم هي تفكر، بتلك النظرات الصارمة". أما لوسيان، فكان يفكر بشيء واحد: بتلك الحياة الكئيبة المبهمة، حياته هو. فيوقل في نفسه: "أود أن أصبح مثل لي موردان، فهذا شخص عرف كيف يجد طريقه!" في تلك اللحظات، يرى نفسه وكأنه إنسان آخر: يجلس بجوار امرأة تحبه، يدها في يده، وشفتاها لا تزلان مبللتين من قبلاته، ترفض السعادة التي يعرضها عليها: وحده. عندها يضغط بقوة على أصابع مود الصغيرة وتصعد الدموع إلى عينيه: أنه يريد أن يسعدها.

في يوم من أيام كانون الأول اقترب لي موردان من لوسيان، وكان يحمل ورقة وسأله: "هل تريد أن توقع عليها".

- ما هذه؟

- أنها عريضة احتجاج ضد عريضة أخرى تحمل مئتى توقيع، تعارض التجنيد الإجباري. ونحن يلزمنا جمع ألف توقيع". واعترت لوسيان النشوة وسأل: "وهل ستنشره" - في جريدة أكسيون بالطبع. أو في الايكودي باري" وأراد لوسيان أن يوقعها في الحال، لكنه لم يجد أن توقيعها بسرعة يدل على الرصانة. فأخذ الورقة وقرأها بانتباه كلي. وأضاف لي موردان: "أنت لا تهتم بالسياسة، وهذا شأنك. لكنك فرنسي، ولك الحق بأن تقول كلمتك، ولما سمع عبارة "لك الحق بأن تقول كلمتك" عمت الفرحة في نفس لوسيان ووقع العريضة. وفي اليوم التالي اشترى جريدة الأكسيون، لكن العريضة لم

تكن موجودة فيها. ولم يتم نشرها إلا يوم الخميس، لقد عثر عليها لوسيان في الصفحة الثانية بعنوان: "شبيبة فرنسا تسدد ضربة قاصمة إلى وجه الحركة اليهودية الدولية". واسمه كان موجودًا، في مكان غير بعيد عن اسم لي موردان. أنه اسم ملائم. وفكر في نفسه: "لوسيان فلوربيه، اسم فلاح، اسم فرنسي حقًا" وقرأ بصوت عال قائمة الأسماء التي تبدأ بحرف ف، ولما جاء دور اسمه، لفظه متظاهرًا بأنه لم ينتبه إليه. ثم وضع الجريدة في جيبه وعاد إلى بيته مسرورًا على أشد ما يكون السرور.

وذهب من تلقاء نفسه بعد أيام لمقابلة لي موردان: "هل تقرأ جريدة الأكسيون أحيانًا؟" فقال لوسيان بصراحة "ليس كثيرًا، فهي لا تمهني كثيرًا: حتى الآن، لكنني أحسن بأنني أتبدل". كان لي موردان ينظر إليه بغير اهتمام. وأخبره لوسيان بالتفصيل عما سماه برجير "بالتشوش" فسأله لي موردان: "من أين أنت؟

- من فيرول، وأبي يملك مصنعًا فيها.
- كم بقيت من الوقت هناك؟
- حتى الصفا الثاني.

فقال لو موردان:

- أرى تمامًا بأنك غير مركز هل قرأت بارس؟

قرأت كوليت بودوش.

فقال لي موردان بغير صبر:

- ليس هذا.

- سآتي لك بعد الظهر بكتاب "المهاجرين" أنها قصتك. ستجد فيها "العلة والدواء". كان الكتاب مجلدًا بغلاف جلدي أخضر. على الصفحة الأولى اسم "أندريه لي موردان. ودهش لوسيان! لم يخطر قط بباله أن يكون للي موردان اسم شخصي.

وبدأ قراءته ببالغ الحذر: فكثيرًا ما شرح الناس له الأمور، وكثيرًا ما أعاروه الكتب قائلين له: "اقرأ هذا، فهو يشبهك تمام الشبه". وفكر لوزسيان، بضحكة كئيبة، أنه ليس الرجل الذي يمكن خداعه ببعض العبارات: عقدة أوديب، والتشوش: يا لها من صبيانيات وكم أن هذا بعيد المنال! لكنه تأثر منذ الصفحة الأولى: فليس الكتاب في علم النفس. - والشباب الذين تحدث عنهم بارس ليسوا من الأشخاص المجردين أو الخارجين على مجتمعهم مثل رامبو وفرلين، وليسوا مرضى كنساء فينا اللواتي لا عمل لهن سوى التردد على عيادة فرويد، وراح بارس يضع هؤلاء الشباب في إطار وسطهم وعائلتهم، لقد أحسنوا تربيتهم في المناطق الخارجة عن باريس ضمن التقاليد المتينة. ووجد لوسيان أن ستوديل يشابهه. وقال في نفسه: "هذا صحيح مع ذلك، فأنا هاجرت من بلدي". وفكر بصحة آل فلوربيه المعنوية، الصحة التي لا يؤتى بمثلها إلا في الريف، وفكر أيضًا بقوتهم الجسدية (كان جده يلوي قطعة النقود المعدنية بين أصابعه. وتذكر بتأثر طلوع الفجر في فيرول: كان ينهض، وينزل مسرعًا كيلا يوقظ أبويه، يأخذ دراجته، ويخلب لبه منظر الإيل دي فرانس. وفكر في نفسه بقوة: "لقد كرهت باريس على الدوام". وقرأ "حديثة بيرنيس"، وكان من وقت لآخر يقطع قراءته ويفكر، بعينين شاردتين. ها أنهم من

جديد يقدمون إليه طبيعة ومصيرًا، وسيلة للتخلص من الثرثرات التي لا تنتهي، طريقة ليحدد نفسه بها ويعرف قيمتها. ولكم يؤثره ذاك اللاوعي المفعم برائحة الحقول، والذي عرفه عند بارس لكم يؤثر على حيوانات فرويد الشهوانية. وحتى يدرك ذلك، لم يكن ينبغي على لوسيان إلا أن يتحول عن تأمل عقيم وخطر لنفسه: ينبغي له أن يدرس أرض فيرول من الخارج والداخل، وأن يفسر معنى الهضاب التي تبلغ "سرنيت"، وأن يتجه نحو الجغرافيا البشرية والتاريخ. أو أن عليه بالأحرى أن يعود إلى فيرول ليعيش فيها: سيجدها تحت قدميه، خصبة وديعة، تمتد على طول الريف الذي يحمل اسمها، الريف الذي تحت قدميه، خصبة وديعة، تمتد على طول الريف الذي يحمل اسمها، الريف الذي يمتزج بالأعشاب والغابات والسواقي. ومن هناك ستأتيه القوة اللازمة كي يصبح قائدًا. وحرج لوسيان شديد التحمس من خيالاته الطويلة، أنه بات يفكر من وقت لآخر، أنه قد وجد سبيله. والآن عندما يقف واجمًا إلى جانب مود، كانت الكلمات ترن في أذنه "إعادة وصل التقاليد". "الأرض والأموات" كلمات عميقة ليس لها قرار. وفكر في نفسه "كم هذا مشوق". غير أنه، لم يتجرأ على تصديق ذلك: فكثيرًا ما خاب ظنه. وأعرب للي موردان عن مخاوفه. فقال لي موردان: وسيكون الأمر جميلًا. فليس بالإمكان أن يؤمن الإنسان بسهولة بما يراه. بل إن عليه أن يجرب". وفكر لحظة ثم أضاف: عليك أن تأتي معنا". وقبل لوسيان بطيبة خاطر، لكنه أوضح بأنه يريد حريته وقال: "سأذهب، غير أني لن التزم. سأرى وأفكر".

وسر لوسيان بصحبة صغار البائعين، الذين استقبلوه استقبالًا قلبيًا وبسيطًا معًا، ولم يمض وقت طويل حتى شعر بالارتياح بينهم. وتعرف بسرعة على "عصبة" لي موردان، وهم عشرون طالبا يعتمرون قبعات المخمل. كانوا يداومون على الطابق الأول عند بولدر حيث يلعبون البريدج والبليار. وكان لوسيان يذهب للقائهم، ويدرك بأنهم تبنوه، لأنهم يستقبلونه دائمًا هاتفين: "ها هو أجملنا !" أو "أنه فلورييه ذخر الوطن". لكن حسن عشرتهم هي التي أثرت في نفس لوسيان: فلا ادعاء ولا استبداد، وقليل من المحادثات السياسية. كان يضحكون وينشدون الأغاني ويهتفون للشبيبة الطلابية، حتى لي موردان نفسه الذي لم ينكر عليه أحد جديته كان يبتسم في بعض الأحيان. أما لوسيان، فكان يسكت في أكثر الأحيان منصتًا إلى هؤلاء الشباب الرافلين بالصحة، الزاخرين بالعضلات. وفكر في نفسه: "أنهم يشكلون قوة". لقد تعرف في وسطهم على معنى الشباب الحقيقي: إذ إن معناه ليس موجودًا في الإغراء المريض الذي يقدره برجير. الشبيبة، أنها أمل فرنسا. ولم يكن لأصدقاء لي موردان مظاهر المراهقة المغرية: أنهم رأشدون نبتت لحاهم، يبعثون في نفس الناظر إليهم نوعًا من الارتياح العائلي: لقد انتهوا من متاهات السن وشكوكه. كانت ممازحاتهم الخفيفة القوية تثير الخجل في نفس لوسيان: لكنه بالإمكان اعتبارهم غير واعين لتلك الحال. ولما جاء ريمي ليعلن أن السيدة دوبوس، زوجة القائد الراديكالي، قد قطعت الشاحنة ساقيها؛ انتظر لوسيان أن يعمد الرفاق إلى الترحم على زوجة الخصم. لكنهم انفجروا بالضحك وراحوا

يضربون على أفخاذ بعضهم البعض قائلين: "الجثة العتيقة". "سائق الشاحنة ذو التقدير"؟ وتأثر لوسيان قليلًا، غير أنه أدرك أن ذلك لم يكن سوى الرفض: لقد استشفوا الخطر، ولم يرضوا بنوع من الشفقة. وراح لوسيان يضحك بدوره، واحرز بعض النجاح. وعندما كان يقول: "إذا قضى في سريره هذا الرجل، فليس هناك من إله" وأحس بأن نوعًا من الغضب الشديد يتولد فيه. عندها ضغط على فكيهِ، وأحسن للحظة بأنه مقتنع اقتناع ريمي ودي بيرو الضيق. وفكر في نفسه: "إن لي موردان محق. إذ ينبغي إجراء الممارسة، فكل القضية هنا". وتعلم أيضًا كيف يرفض المناقشة: فغيغار الذي كان جمهوريًا، أرهقه بالملاحظات. وأصغى إليه لوسيان بطيبة خاطر، ولم تمض لحظة حتى أغلق على نفسه. واستمر غيغار بالكلام، لكن لوسيان لم يعد ينظر إله، بل راح ينفخ الدخان من فمه على شكل دوائر وهو يتفحص وجوه النساء. غير أنه كان يسمع، رغم كل شيء، ملاحظات غيغار التي تصل إلى مسامعه وتتحول من ثم إلى كلمات خفيفة لا معنى لها. وأخيرًا سكت غيغار متأثرًا كل التأثر. وحدث لوسيان أبويه عن أصدقائه الجدد وسأله السيد فلورييه إذا كان ينوي أن يصبح بائعًا صغيرًا. وتردد لوسيان ثم قال برصانة: "إن هذا يجتذبني. حقًا أنه يجتذبني - فقالت أمه: "لوزسيان، أرجوك لا تقدم على هذا العمل، أنهم متقلقلون، وقد تقودك صحبتهم إلى السجن؟ ثم أنك لا زلت صغيرًا ولم يأت الوقت لتعمل في السياسة". ولم يجبها لوسيان بسوى ابتسامة جادة، فتدخل السيد فلورييه قائلًا بعذوبة: "دعيه يا عزيزتي، دعيه يقدم على هذا العالم، إذ ينبغي

أن يمر بهذه المرحلة". وبدا للوسيان منذ ذلك الحين أن أهله باتوا يعاملونه بنوع من الاعتبار. غير أنه لم يصمم على شيء. فقد علمته هذه الأسابيع الأخيرة الكثير من الأمور. وتمثل فضول أبيه، ومخاوف مه، واحترام غيغار، والحاح لي موردان، ولجاجة ريمي وقال هو يهز رأسه: "ليس ذلك عملًا بسيطًا". وتحدث مطولًا مع لي موردان، وتفهم لي موردان جميع الأسباب التي قدمها، ونصحه بألا يستعجل. كان لوسيان لا يزال يشعر بالضيق: وبدا له أنه ليس سوى شيء شفاف يرتجف على سطح فنجان القهوة، ورأى أن تحركات البائعين الصغار لا مبرر لها. غير أنه أحس في لحظات أخرى بأنه قاس وثقيل كالحجر. فسر لذلك بعض السرور.

وأخذت أحواله تتحسن مع أولئك الأصحاب. فأنشد هلم أنشودة عرس ربيكا التي علمه إياها هبرار في العطلة الماضية. وصرح الجميع بأن الأنشودة مسلية جدًا. فتحمس لوسيان وأبدل بعض الملاحظات ضد اليهود وتحدث عن برلياك البخيل: "كنت أقول في نفسي لماذا هو مقتر إلى هذا الحد، ليس بالإمكان أن يكون المرء مقترًا إلى هذا الحد. ثم فهمت ذات يوم أنه ينتمي للقبيلة". وراح الجميع يضحكون فتحمس لوسيان حماسًا كبيرًا: أحس بأنه شديد النقمة على اليهود كما أن ذكرى برلياك كانت كريهة جدًا بالنسبة إليه. ونظر إليه لي موردان مليًا وقال له: "أنت عفيف". وبعدها سئل لوسيان مرارًا "فلورييه" أخبرنا قصة عن اليهود". ويبدأ لوسيان بسرد القصص التي حفظها عن والده، مستهلًا كلامه بتقليد لهجة اليهود. ليضحك رفاقه. ذات يوم قال ريمي وباتنوتر

أنهما اشتبكا مع يهودي جزائري على ضفاف السين وجعلاه يخاف خوفًا شديدًا وهما يتقدمان إليه وكأنهما يريدان إلقاءه في الماء وختم ريمي حديثه بقوله: "يا للأسف، آه لو كان فلورييه معنا". فقاطعه ديبرو "إن غيابه أفضل، لأنه لو كان موجودًا لألقى به فعلًا في الماء. زليس لدى لوسيان من شبيه له حتى يتعرف على اليهودي بمجرد رؤيته. وعندما يخرج مع غيغار، كان يدفعه برفق: "لا تستدر إلى الوراء في الحال: هذا القصير الضخم الذي وراءها هو واحد منهم". فيقول غيغار: "لديك حاسة قوية في مثل هذه الأمور". وفاني بدورها لا تستطيع أن تشم رائحة اليهود. صعد الأربعة معًا يوم الخميس إلى غربة مود، وغنى لوسيان أنشودة عرس ربيكا. ولم تعد فأني تتمالك نفسها فقالت له "توقف، توقف، سأبول في سروالي". وما أن ينتهي حتى ترهقه بنظرة ملؤها السرور والعذوبة. في معمل بوردل، دبروا للوسيان مقلبًا. فهناك دائمًا من يقول: "فلوربيه الذي يحب اليهود كثيرًا، أو "ليون بلوم صديق فلورييه الكبير"... بينما ينتظر الآخرون فاغرين أفواههم رد الفعل لديه ويحمر وجه لوسين، ويضرب على الطاولة صائحًا: "يا للاسم اللعين...!" فيضحك الجميع ويقولون:

"ها قد مشي؟ ها قد مشي!

كلا لم يمش: بل ركض!"

كان يصحبهم أكثر الأحيان إلى الاجتماعات السياسية ويستمع إلى الأستاذ كلود والي ماكسيم ريل دل سارت. ولا شك بأن هذه الأمور كانت تعيق لوسيان عن دروسه، ولم يعد يتأمل بالنجاح في تلك السنة في مباراة المدرسة المركزية، لذا كان

السيد فلوربيه يقول لزوجته: "لا بأس، عليه أن يتعلم كييف يكون رجلًا" وعندما يخرجون من الاجتماعات يعمد لوسيان ورفاقه إلى ارتكاب الأعمال الصبيانية لشدة تحمسهم. ذات يوم وكانوا خمسة عشر شخصا يسيرون في شارع سان أندريه دي آر أبصروا بشخص يقرأ جريدة الأومانيتيه. فحصروه عند الحائط وأمره ريمي بقوله: "إرم هذه لجريدة". وأراد الرجل أن يقاوم، فجاء ديبرو من ورائه وكتف له يديه، بينما انتزع منه لي موردان الجريدة. أنه لأمر ممتع: راح الرجل القصير يلبط في الهواء صائحًا: "اتركوني! اتركوني!" بلهجة مضحكة، بينما كان لي موردان يمزق الجريدة على مهل. ولكن حين أراد ديبرو أن يفلت الرجل، تأزمت الأمور: كاد الرجل يمسك لي موردان، لو لم يضربه ريمي على أذنه ضربة قوية. فارتطم الرجل بالجدار ونظر إليهم صائحًا: "يا لكم من فرنسيين قذرين!" فقال له مارشو: "كرر ما قلته". وفهم لوسيان أن القضية سيزداد تدهورها: إذ أ، مارشو لم يكن يستطيع الممازحة حين تتعلق القضية بفرنسا وقال الرجل الغريب. "يا لكم من فرنسيين قذرين". فتلقى ضربة قوية وارتمى إلى الأمام مطأطئ الرأس صائحًا: "يا للفرنسيين القذرين، يا للبورجوازيين القذرين، إنني أكرهكم، أريد أن تموتوا جميعًا، جميعًا!، وأضاف الكثير من الشتائم الأخرى التي لم يكن لوسيان ليتصورها. عندها ضاقوا به ذرعًا واشتركوا جميعًا في عملية إصلاحه. وما هي إلا لحظة حتى تركوه فتهالك الرجل، وأسند ظهره للجدار، وتجمعوا حوله بعد أن تعبوا من الضرب ينتظرون وقوعه على الأرض. ولوى الرجل فمه وبصق: "يا

للفرنسيين القذرين! " وسأله ديبرو وهو يلهث: "هل تريد ان تعاود الكرة. ولم يبد على الرجل أنه سمع: بل كان ينظر اليهم بعينه اليسرى، التي لم تصب وراح يكرر: "يا للفرنسيين القذرين! يا للفرنسيين القذرين!".

ومرت فترة تردد، وفهم لوسيان بأن رفاقه لن يتابعوا الجولة. فانقضّ بدوره على الرجل بكل قواه. وسمع شيئًا يقرقع، فنظر إليه الرجل مبغوتًا "يا للقذرين...." وبدأت عينه اليمنى المغمضة تنفتح بعض الشيء. ووقع على ركبته ولم يضف أي شيء. فقال ريمي: "فلنذهب". وراحوا يركضون ولم يتوقفوا إلا عند جادة سان – ميشال: ما من أحد لحق بهم. وحسنوا وضع ياقتهم وسرّحوا شعرهم على عجل.

ومضت السهرة بدون أن يأتي الشباب على ذكر مغامرتهم، وتآنسوا فيما بينهم: ها أنهم يتركون ذلك العمل الوحشي الذي يخفي مشاعرهم وراءه. وراحوا يتحدثون بكل تأدب، وفكر لوسيان بأنهم بدوا للمرة الأولى كما ينبغي أن يكونوا عليه في منازل أهلهم. لكنه كان منزعجًا؛ إذ أنه لم يألف القتال في الشارع مع أبناء الأزقة، وفكر بمود وفاني مجنو.

لم يذق طعم النوم. وفكر في نفسه: "ليس بإمكاني أن ألتحق بهم كهادو، عليّ أن اعلن انتمائي الآن! " وشعر بأنه رصين جدًا حين زفّ النبأ للي موردان. فقال له: " ها أنك تصممَ، وأنا معك". وربت لي موردان على كتفه ، واحتفلت الجماعة بالحدث وشربوا عدّة زجاجات. وعادوا إلى لهجتهم العنيفة ولم يتناولوا حادث البارحة. ولما هموا بالافتراق قال مارشسو

للوسيان: "ضرباتك قوية !" فأجاب لوسيان: "لقد كان يهوديًا!".

وفي اليوم الذي تلا الغد، أتى لوسيان لمقابلة مود وهو يحمل قضيبًا غليظًا من الخيزران اشتراه من جادة السان ميشال. وأدركت مود المغزى في الحال، ونظرت إلى القضيب قائلة: "إذاً فقد تمّ الأمر". وأجابها باسمًا: "لقد تمّ". ورأت مود أن هذا يرفع من شأنها شخصيًا؛ وإن كانت أقرب إلى اليسار، فأنها واسعة الأفق . وقالت له: "إنني أجد جوانب حسنة في جميع لأحزاب". وفي المساء؛ حكت له أذنه عدة مرات وهي تخاطبه بالبائع الصغير. بعد ذلك بوقت قصير، يوم السبت، شعرت مود بالتعب وقالت له: " أرى أنه ينبغي أن أعود إلى البيت، ولكن بإمكانك أن تصعد معي، لو كنت عاقلًا: ستمسكني بيدي وستكون لطيفًا جدًا مع مود الصغيرة التي تشعر بالألم، وستقصّ عليها الحكايات". ولم يتحمس لوسيان كثيرًا للفكرة: إذ أنّ غرفة مود كانت تضايقه بقلة أثاثها، فهي كغرفة الخادمات. لكنه من الجريمة أن يجعل الفرصة تفوته. وما إن دخلت مود، حتى ارتمت على السرير قائلة: "أوف ، كم أشعر بالارتياح". ثم سكتت ونظرت إلى لوسيان بإمعان بعد أن زمّت شفتيها. وأتى ليستلقي إلى جانبها ، ووضعت يديها على وجهها وباعدت بين أصابعها قائلة بصوت كصوت الطفل: "كوكو" هأنا أراك، أنا أراك يا لوسيان" وأحس بأنه ثقيل رخو، ووضعت أصابعها في فمه فراح يمصها، وقال لها برقة: "إن صغيرتي مود مريضة، كم هي بائسة صغيرتي مود". وداعب جسدها، وكانت قد أغمضت عينيها وهي تبتسم ابتسامة غريبة.

وما هي إلا لحظة حتى رفع فستان مود ورأى أنه يضاجعها. وفكر لوسيان: "أأنا قدير". وقالت مود بعد أن انتهيا: "آه، لو كنت انتظر مسبقًا! " ونظرت إلى لوسيان بنوع من العتاب العذب: "يا لك من خبيث ظننت أنك ستظل عاقلًا! " وقال لوسيان بأنه فوجئ أيضًا بذلك وقال: "حدث الأمر تلقائيًا". ففكرت قليلا وقالت له برصانة: "أنا لا آسف على شيء؛ في السابق كان الأمر أكثر طهارة، ولكن أقلّ كمالًا".

وفكر لوسيان في الميترو: "إن عشيقة". كان فارغ الذهن، تعبًا، يشم رائحة الافسنتين والسمك الطازج. وجلس في مكانه جامدًا ليتجنب ملامسه قميصه المبلل بالعرق. وتهيأ له أن جسمه قد صنع من اللبن. وكرر لنفسه بقوة: "أن لي عشيقة". لكنه شعر بالحرمان؛ فان الذي جعله يرغب في مود حتى عشية أمس، كان وجهها الضيق، وشكلها الرقيق، وشهرتها كفتاة رصينة، واحتقارها لجنس الرجال، وكل ما يجعل منها شخصًا غريبًا، إنسانا "آخر" . بأفكارها الخاصة وحشمتها، وجوربيها الحريريين، وذاب الطلاء حين ضمها إليه، وجه عار كالبطن، لقد حاز على زهرة ضخمة من اللحم المبلل. وتذكر الحيوان الأعمى الذي كان يتحرك في السرير وفكر: "أنه كلأنا معًا". لم يكونا سوى شخص واحد، لم يعد بوسعة أن يميز لحمه عن لحم مود. ما من أحد جعله يشعر بتلك الصحبة الخاصة سوى ريري: حين كان ريري بيدي عضوه وراء السياج أو حين كان ينسى نفسه نائمًا على بطنه، يحرك رجليه ويديه، بقفاه العارية، بينما هو يحففون سرواله. وشعر لوسيان ببعض العزاء حين فكر بغيغار: سيقول له غدًا بأنه ضاجع

مود، "أنها امرأة مثيرة يا صاح: والإثارة موجودة في فمها". لكنه كان متضايقًا: يحس بأنه عار وسط المترو، مواجهًا امرأتين ناضجتين، وكأنه هليونة قذرة.

وهنأه غيفار بحرارة. وكأنه قد سئم معاشرة فاني: "إن عشرتها سيئة للغاية. وأمس قلبت وجهها طيلة السهرة". واتفق كلاهما على أنه ينبغي وجود نساء كهذه النساء، إذ ليس بالإمكان أن يبقى المرء طاهرًا حتى الزواج، ثم إن هذه النسوة لسن مغرضات ولا مريضات، سوى أنه من الخطأ التمسك بهن. وتحدث غيفار عن الفتيات الحقيقات بكثير من الرقة، وسأله لوسيان عن أخته. فقال غيفار: "صحتها جيدة يا صاح. وتقول بأنك سريع الهجران" وأضاف بنوع من الشرود: "هل تدري! إنني مسرور لأن لي شقيقة، إذ أن هناك أشياء لا تستطيع ان نعيها بدون الشقيقات. وأعطاه لوسيان كل الحق. وبعدها، أخذ ا يتحدثان كثيرًا عن الفتيات وأحسها بأنهما مفعمان الشعر، وكان يحلو لغيفار أن يردد قول أحد أعمامه، وهو شديد النجاح مع النساء: "لعلي لم افعل أية حسنة في حياتي الملعونة، لككن هناك شيئًا واحدًا سيسجله الله لي، فمن الأفضل أن أتسبب بقطع يدي على ان أمدها نحو فتاة من الفتيات". كانا يذهبان أحيانًا لزيارة صديقات بيرات غيفار. وكان لوسيان يحب بيرات كثيرًا، يحدثها بلهجة الأخ الأكبر وليس بغير مضايقة، كما أنه شكر لها حسن صنيعها لأنها لم تقدم على قص شعرها. وملأت عليه نشاطاته السياسية كل شيء، إذ راح يبيع" الأكسيون فرانسيز" أمام كنيسة نوبي. ويظل طيلة ساعتين يروح ويجيء، منكمش الأسارير. فترفع

الفتيات وهن خارجات من الكنيسة أنظارهن الجميلة إليه. عندها ينشرح لوسيان قليلًا ويبتسم لهن. وقد أوضح لجماعته بأنه يحترم النساء وهو سعيد لأنه وجد أنهن يتمتعن بنفس الإدراك الذي كان يأمله. وجميع أصحابه لهم شقيقات.

وفي ١٧ نيسان أقام آل غيفار حفلة بمناسبة بلوغ بيرات الثامنة عشرة من عمرها، ودعي لوسيان إلى الحفلة بالطبع. كان على صلة وثيقة ببيرات، إذ أنها تسميه راقصها الخاص، وهو يظن بعض الظن بأنها تحبة. ورقص لوسيان عدة مرات مع بيرات ثم راح ليلتحق بغيفار في قاعة التدخين. فقال غيفار: "تحية لك، أظن بأنكم تعرفون بعضكم البعض، سيمون، فينوس، لودو". وبينما غيفار يقدم أصدقاءه، أبصر لوسيان بشاب أشقر، كث الحاجبين، يقترب منهم بتردد، فاجتاحه الغضب. وتساءل في نفسه: "ماذا يفعل هنا هذا الشخص؟" وغيفار يعرف حق المعرفة انني لا استطيع ان أشم رائحة اليهود!" وأشاح بوجه وابتعد ليتجنب التعارف. وسأل بيرات بعد لحظة: "ما هذا اليهودي!"

- أنه وايل، طالب في معهد العلوم التجارية العليا؛ تعرف عليه أخي في قاعة الأسلحة. فقال لوسيان: "انني اكره اليهود". فضحكت بيرات ضحكة خفيفة وقالت: "أنه شاب طيب، تعال رافقني إلى البوفيه" تناول لوسيان كوبًا من الشمبأنيا وما كاد يلقيه من يده: حتى رأى نفسه بمواجهة غيفار ووايل. ونظر إلى غيفار نظرة ملؤها الغضب وأدار ظهره بسرعة. لكن بيرات أمسكته بذراعة. وباغته غيفار بصراحة قائلًا ببساطة: "صديقي فلورييه، صديقي وايل. ها قد أجرينا التعارف". ومد

وايل يده، وأحس لوسيان بضيق شديد. ولحسن الحظ، تذكر كلام ديبرو: "لو كان فلورييه موجودًا لألقى به فعلا في الماء". ووضع يديه في جيبه وأدار ظهره لغيفار وفكر في نفسه وهو يطلب ثيابه: "لم يعد بإمكاني أن آتي إلى هذا البيت مرة أخرى". وأحس بنوع من التكبر المرير. "هذه هي عاقبة التزمت، يفقد المرء مقدرته على العيش في المجتمع". وفي الشارع تلاشى ذال التكبر واعتره قلق شديد. لا بد وان يكون غيفار قد غضب! " وهز رأسه وحاول أن يقول لنفسه باقتناع راسخ: "لم يكن ينبغي أن يدعو يهوديًا، في نفس الوقت الذي يدعوني فيه". لكن غضبة تبدد . وتذكر بنوع من الضيق وجه وايل المستهجن، ويده الممدودة، وشعر يميل للمصالحة: "لا بد وان تفكر بييرات بأني فظ غليظ. كان ينبغي أن أصافح تلك اليد. فذلك لا يلزمني بشيء. إن كل ما كان يتوجب علي هو أن أقوم بتحية ملؤها التحفظ وأبتعد بعدها على الإثر: هذا كل ما هناك". وتساءل في نفسه إذا كان يستطيع العودة إلى بيت غيفار. سيقتب من وايل ويقول له: "اعذرني، فقد اعتراني بعض الضيق." وسيشد على يده ويحدثه نوعًا من الحديث اللطيف". ولكن لا. لقد فات الوقت. وتصرفه لا يمكن تلافيه. وفكر في نفسه غاضبًا: "ما كان يحوجني لإبداء آرائي أمام أناس لا يفهمونها!" وهز كتفيه بعصبية: أنها كارثة. في نفس اللحظة كان غيفار وبييرات يعلقان على تصرفه، وقال غيفار: "أنه مجنون تمام الجنون!" وضغط لوسيان على قبضة يده. وفكر بنوع من اليأس: "أوه، كم إنني اكرهم! كم اكره اليهود!" وأراد أن يجني بعض القوة من ذلك الكره الكبير. لكن الكراهية

تلاشت أمام عينيه، فهما فكر بان ليون بلوم يتلقى المساعدة من ألمانيا ويكره الفرنسيين، لم يعد يشعر بسوى نوع من اللامبالاة. ومن حظ لوسيان أنه وجد مود في بيتها. وقال لها أنه يحبها وضمها عدة مرات إلى صدره بنوع من الثورة. وقال في نفسه: "انتهي كل شيء، ولن أصبح رجلًا مهمًا" فقالت له مود: "لا. لا. كف عن هذا يا عزيزي الكبير، هذا ممنوع".

لكنها رضخت في النهاية: أراد اوسيان أن يقبلها في كل مكان. وشعر بأنه صبياني النزعة منحرف الطباع. واعترته رغبة البكاء.

وفي صبيحة اليوم التالي انعصر قلب لوسيان حين وقع نظره على غيفار. وتظاهر غيفار بأنه لم يره. ولم يتمكن لوسيان لشدة غيظه من كتابة شروح الاستاذ وفكر في نفسه: "يا للقذر! يا للقذر". وفي ختام الدرس اقترب منه غيفار وكان ممتقع اللون وفكر لوسيان: "لو اعترض ، سأضربه".

ومكث لحظة جنبًا إلى جنب، كلاهما ينظر إلى رأس حذائه. وأخيرًا قال غيفار بصوت متهدج: "اعذرني يا صاح، فلم يكن ينبغي أن أقدم على هذا العمل". وارتعد لوسيان ونظر إليه بحذر. لكن غيفار تابع بصعوبة: "صادفته في القاعة، هل تعلم. عندها أردت ... وكنا نتمرن معًا، ودعاني إلى بيته، لكنني أدري، كما تعلم، لم يكن علي أن، لست ادري كيف جري لوسيان يقول شيئًا لأن الكلمات لا تخرج من فيه، لكنه شعر بميله للغفران. وأضاف غيفار مطأطئ الرأس: "وبالنسبه لهذه الخطيئة ..." فقال لوسيان وهو يربت على كتفه: "يا لك من مصران خنزير، أنا أعرف حق المعرفة بأنك لم تتعمد ذلك".

وأضاف: "وأنا أخطأت بدوري. وتصرفت تصرف الفظ الغليظ. ولكن ماذا تريد، لم استطع ان اتمالك نفسي، فليس بإمكاني ان ألمسهم، وهذا شيء طبيعي، أحس بأن في أيديهم القشر. ما قالت بييرات!" فقال غيفار برفق: "لقد ضحكت كالمجنونة".

- والرجل؟

- لقد فهم. وقلت ما بإمكاني أن أقوله، لكنه غادر الحفلة بعد ذلك بربع ساعة. وأضاف بنفس الرفق: "قال أهلي بأنك محق، وبأنه ليس بإمكانك أن تتصرف بخلاف ذلك تجاه اعتقادك الراسخ. وتذوق لوسيان كلمة "اعتقاد". وأراد أن يضم غيفار بين ذراعيه وقال له: "لا بأس. لا بأس. طالما أننا لا نزال أصدقاء". ونزل إلى جادة سان ميشال بنوع من الانشراح العجيب: وبدا له أنه ليس الشخص نفسه.

وقال في نفسه: "غريب هذا الأمر، فلست أنا أنا، ولا أعرف نفسي!" كان الطقس دافئًا ولذيذًا؛ والناس يجوبون الشوارع وعلى وجوههم ابتسامة الربيع الأولى. وانضم لوسيان إلى هذا الجمهور المائع وكأنه زاوية من الفولاذ وفكر في نفسه: "ماعدت أنا نفسي، أنا" كنت لا أزال حتى مساء أمس كالحشرة الضخمة، التي تشبه قبايط فيرول. والآن يشعر لوسيان بأنه دقيق دقة الكرونومتر. ودخل مقهى لا سورس وطلب كأسًا. لم يكن صحبه يقصدون لاسورس لأنها تعج بالغرباء. لكن الغرباء واليهود لم يكونوا ليضايقوا لوسيان في هذه الأيام. وأحس بأنه غريب على تلك المجموعة من الأجساد البشرية التي تضج كحقل "الشوفان" إذا تلعب به الريح.

وتعرف على يهودي قصير، كانت العصبة قد ضربته في الفصل المنصرم، في ممرات كلية الآداب". لم يظهر أثر الضرب على هذا الكائن العجيب السمين. لقد إلتوت أجزاؤه لكنه ما لبث ان عاد إلى حالته السابقة. لكنه يعيش نوعًا من الاستسلام الفاضح.

أنه سعيد في هذه اللحظة. لقد تثاءب بلة. كما دغدغ شعاع الشمس منخريه، فحك أنفه وابتسم. هل كانت تلك بسمة؟ أو نوعًا من الارتجاج الذي نشأ في الخارج، هناك في مكان ما من زاوية القاعة، وجاء ليذوي فوق ثغره؟ كان جميع هؤلاء الغرباء عائمين في مياه قائمة ثقيلة، تهز بتموجاتها أجسامهم الرخوة، كما ترفع أيديهم، وتحرك أصابعهم، يا للأشخاص المساكين! ان لوسيان يشفق عليهم بعض الشفقة. لم أتوا إلى فرنسا؟ أية تيارات بحرية جرفتهم وألقت بهم هنا؟ ومهما احتشموا في لباسهم عند خياطي جادة سان ميشال، فأنهم ليسوا سوى حيوانات بحرية. وفكر لوسيان بأنه ليس حيوانًا بحريًا، وبأنه لا ينتمي لاية مجموعة من الحيوانات المحتقرة. وقال في نفسه: "إنني أغطس!" وفجأة نسي لا سورس والغرباء، ولم يعد يرى سوى ظهر، ظهر عريض تكسوه العضلات، يبتعد بسرعة بقوة متزنة، ويضيع في الغمام. ورأى أيضًا غيفار: كان غيفار شاحب الوجه، يلاحق هذا الظهر بعينيه، ويقول لبيرات التي لم تظهر: "حسنًا، بالنسبة للغلطة!..." واعترى لوسيان نوع من السرور الذي لا مبرر له: إن هذا الظهر القوي المنعزل إنمّا هو "ظهره"! والحادثة جرت امس وبمجهوده العنيف استطاع أن يتطلع إلى ظهره بعيني غيفار، وشعر

بوضاعته واحس بان الذعر قد دب فيه. وفكر في نفسه: "سيكون ذلك بمثابة درس لهم". وتبدلت المناظر: أنها غرفة بييرات الصغيرة، والحادثة تجري في المستقبل. بييرات وغيفار يشيران إلى اسم في لائحة المدعوين. لم يكن لوسيان موجودًا، لكن سطواته خيمت عليها. وقال غيفار: "آه! كلا. ليس هذا الشخص! حسنًا! فمع لوسيان تصبح الأمور جميلة؛ لوسيان الذي لا يستطيع الرفق باليهود". لقد تلفظ مرارًا بتلك العبارة، لكن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة. كلا. في الظاهر ليس إلا، كما لو أننا نقول: لوسيان لا يحب السمك" أو أن "لوسيان يحب الرقص". ولكن ينبغي أن نتجنب الخطأ. فمحبة الرقص، لعل بالإمكان العثور عليها لدى اليهودي القصير، وهي لا تكون آنئذ سوى ارتعاشة حيوان بحري. لم يكن ينبغي سوى التطلع إلى هذا اليهودي اللعين حتى ندرك بان اذواقه لاصقة به كرائحته، كانعكاسات جلدة؛ وبأنها ستختفي معه كاهتزازات جفنيه الثقيلين، وكبسماته المفعمة بالشهوة. لكن الاساميّة لدى لوسيان تتخذ طابعًا آخر: أنها طاهرة عديمة الشفقة، قد غرست بمنأى عنه كسكين الفولاذ، مهددة صدورًا أخر. وفكر في نفسه: "هذا، هذا ... لعين!" وتذكر بان أمه كانت تقول له أحيانًا في صغيره: "والدك يعمل في مكتبه" وبدت له هذه العبارة بمثابة سر من الأسرار المقدسة أفضت إليه فجأة بجمهرة من الموجبات الدينية، كأن لا يلعب ببندقية الهواء المضغوط وان لا يصيح "ترارا بوم" في الممرات وهو يمشي على رؤوس أصابعه، كما أنه داخل كنيسة.

وفكر في نفسة راضيًا كل الرضى: "الآن جاء دودري". كانوا يقولون بصوت خافت "لوسيان لا يحب اليهود" ويحس الناس بان قواهم تتلاشى أمام جمهرة الأشهم التي تخترقها. ويقول في نفسه بحنو: " إن غفيار وبييرات طفلان" ارتكبا جرما كبيرًا، ولكن ما ان كشر لوسيان عن أسنانه حتى شعرا بتوبيخ الضمير وراحا يتكلمان بصوت خافت ويسيران على رؤوس أصابعهما.

وأحس لوسيان للمرة الثانية بأنه مفعم باحترام نفسه. لكنه هذه المرة ليس بحاجة لعيني غيفار: فهو يبدو محترمًا بعينه هو، بعينه اللتين تخترقان غلافه المصنوع من اللحم، من الذوق، والاشمئزاز، والعادات، والأمزجة. وفكر في نفسه: "لم أجد نفسي حيث شئت عن نفسي". وقام بإحصاء جميع ما هو عليه. "لكنني إذا لم أكن إلا ما أنا، فإنني لا أساوي أكثر من هذا اليهودي القصير". ولو بحثنا في سر هذا الغشاء ماذا بإمكاننا أن نجد، إن لم يكن كاذبة اللحم، وأكذوبة المساواة، والفوضى؟ وقال لوسيان في نفسه: "الحكمة الأولى، عدم البحث عن شيء في الذات. فليس من خطأ يفوق بخطورته هذا الخطر. وهو يعرف الآن أن لوسيان الحقيقي ينبغي أن يعثر عليه في أعين الآخرين، في طاعة بييرات وغيفار، وفي الانتظار المفعم بالأمل لدى أولئك الناس الذين يكبرون وينضجون من أجله، وفي هؤلاء العمال الذين سيصبحون عماله هو، وفي سكان الفيرول كبارًا وصغارًا، كان فسيصبح يومًا ما رئيسًا لبلدتهم. واعترى لوسيان بعض الرهبة. وشعر بأنه كبير على نفسه. فكثيرون من الناس ينتظرونه لحمل السلاح: وهو كان وسيظل

دائمًا يجسّد انتظار الآخرين. وفكر في نفسه "هذا هو القائد". ورأى من جديد ظهرًا مكسوًا بالعضلات، ثم رأى بعد ذلك كنيسة كان في داخلها يسير بخطى الذئاب تحت الأضواء المكيفة" لكنني، أنا الكنيسة". وأمعن النظر إلى جاره، وهو رجل كوبي اسمر عذب كالسيكار. كان ينبغي إيجاد كلمات بأي شكل للتعبير عن هذا الاكتشاف العجيب. ورفع يده بتؤدة وبعناية عائقة إلى جبينه، وخلا لنفسه قليلًا وجاءته الكلمات من تلقاء ذاتها وتمتم: "لي حقوق، حقوق!" سيء على صورة المثلثات والدوائر: أنه كامل إلى حد أنه ليس موجودًا، أجيال من العمال ستطيع أوامر لوسيان كل الطاعة، ولن تستفيد حقه بإعطاء الأوامر. فالحقوق من وراء الوجود كالأشياء الرياضية والعقائد الدينية. وهذا ما كان عليه لوسيان بالضبط: باقة ضخمة من المسؤوليات والحقوق لقد آمن لوقت طويل بأنه وجد بالصدفة: ومردّ ذلك لأنه فكَّر ما فيه الكفاية. فقبل ولادته كان اسمه مسجلًا في الشمس. في فيرول، كانوا "بأنظاره" حتى قبل زواج أبيه. وإذا ما أتى إلى العالم الآن فكلي يحتل هذا المكان. وفكر في نفسه، "أنا موجود لأن لي الحق بالوجود ولأول مرة، على ما يبدو، شهد رؤيا ساطعة مجيدة في مصيره. سيتم قبوله في المدرسة المركزية إن عاجلًا أم آجلًا (وليس لهذا أية أهمية على كل حال.) عندها يتخلى عن مود (أنها تريد طيلة الوقت أن تضاجعه. وهذا مرهق إن رائحة الشواء تنبعث من امتزاج جسديها في مستهل هذا الربيع الحار "ثم إن مود لجميع الناس: اليوم هي لي وغًا لغيري وليس لهذا أي معني".) سيقسم في فيرول. في مان ما في فرنسا فتاة من

نوع بييرات، فتاة ريفية ذات عينين ورديتين، لا تزال تحافظ على عفتها من أجله: كانت تحاول أن تتخيل سيدها في المستقبل، هذا الرجل الرهيب العذب. لكنها لم تتوصل إلى ذلك، أنها عذراء . وتعترف بحق لوسيان بامتلاك جسدها وحده. سيقترن بها وستصبح "زوجته" وهي أكثر حقوقه عذوبة. وحين تخلع ثيابها في المساء، بحركات لا أهمية لها، ستكون بمثابة قربان. سيأخذها بين ذراعيه بموافقة الجميع، ويقول لها: "انك لي! "وان ما تبديه أمامه، من واجبها ألا تبديه أمام غيره، والعملية الجنسية ستكون بمثابة الإحصاء الشهواني لثرواته، أي أكثر حقوقه عذوبة، وأعز حق عليه: حق الاحترام حتى في اللحم البشري، والطاعة حتي في السرير. وفكر في نفسه: "سأتزوج في وقت مبكر". كما فكر بعمل أبيه. أنه يستعجل إتمامه وتساءل في نفسه إذا كان السيد فلورييه سيموت بعد وقت قصير.

ودقت ساعة الجدار الثانية عشرة: قبلها بساعة كان قد دخل المعهد شاب جذاب متردد، فخرج منها رجلًا. هو قائد من الفرنسيين. وخطا لوسيان بضع خطوات في ضوء صباح فرنسي مجيد. وفي زاوية شارع المدارس وجادة سان جرمان، اقترب من مكان حانوت الورق وتراءى أمام المرآة: كان بوده أن يرى في وجهه، وجه لي موردان غير الشفاف. لكن المرأة لم تعكس له سوى وجه عنيد، ليس مخيفًا جدًا حتى الآن: وصمم في نفسه: " سأرسل شاربيّ".

obeikandl.com

obeikandl.com